الفكر السياسي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

تصدر كل ثلاثة أشهر، تعنى بنشر المواد الفكرية والسياسية والاجتماعية والوثائق المتصلة بذلك

السنة الرابعة عشرة خريف 2012 / العدد 45

رئيس التحرير

د. حسين جمعة

مدير التحرير

أ. محمد حديفي

هيئة التحرير

د. اسكندر لوقا

د. خلف الجراد

أ. عطية مسوح

د. عيسى درويش

د. عبد اللطيف عمران

د. غازي حسين

الإخراج الفني

وفاء الساطي

الاشتراك السنوي

- أعضاء اتحاد الكتاب العرب 250 ل.س
- داخل القطر، للأفراد 300 ل.س.
- داخل القطر، للدوائر الرسمية 900 ل.س.
- الأقطار العربية، للأفراد 600 ل.س أو 15 دولاراً
- الأقطار العربية، للدوائر الرسمية 1200 ل.س أو 25 دولاراً أمريكياً.
- خارج الوطن العربي، للأفراد 900 ل.س أو 20 دولاراً أمريكياً.
- خارج الوطن العربي الدوائر الرسمية 2000 ل.س أو 40 دولاراً أمريكياً.

دمشق ـ أوتستراد المزة ـ ص.ب: 3230

هـ ـ 6117240 ـ 6117242 ـ 6117243 فاكس: 6117244

البريد الإلكتروني لاتحاد الكتاب العرب:

Email: aru@net.sy

Website: http://www.awu-sy

شروط النشر في مجلة الفكر السياسي

1 ـ أن تتسم الأبحاث والدراسات بالجدة والمنهجية وسلامة اللغة.
2 ـ أن تكون ذات طابع فكري سياسي وفكري ثقافي واجتماعي.
3 ـ أن لا تكون جزءاً من بحث سابق منشور أو من رسالة جامعية.
4 ـ ألا يزيد حجم البحث على عشرين صفحة وإلا أهمل.
5 ـ أن تُرفق بالبحث سيرة وجيزة تتضمن الاسم الثلاثي للباحث ومرتبته العلمية إن وجدت.
6 ـ أن يُرسل البحث مرفقاً بقرص مدمج (CD) أو عن طريق البريد الإلكتروني لاتحاد الكتاب العرب:

E.Mail: aru@net.sy

موقع الاتحاد الإلكتروني: http://www.awu.sy

7 ـ أن توضع الحواشي في أسفل الصفحة.
8 ـ أن يثبَّت في آخر البحث فهرس المصادر والمراجع وفق ترتيب حروف الهجاء.
9 ـ أن توجه جميع المراسلات باسم رئاسة التحرير.
10 ـ ترتيب المواد في العدد يخضع لاعتبارات فنية.
11 ـ الأبحاث المنشورة في المجلة تعبِّر عن رأي أصحابها.
12 ـ المواد التي تتلقاها المجلة لا تُرد لأصحابها سواء نُشرت أم لم تُنشَر.
13 ـ أن يكون المقال لا يقل عن عشر صفحات ولا يزيد عن ثلاثين مع التوثيق مرفق بـ CD.

التوزيع في الجمهورية العربية السورية:
المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
فاكس: 2122532 / هاتف: 2127797 / ص.ب: 12035

ملاحظة: الأبحاث والمقالات الواردة تعبر عن آراء أصحابها

في هذا العدد من الفكر السياسي

1 ـ **الافتتاحية**: غزة وفجر (5) دلالات ومواقف ..... د. حسين جمعة 5

2 ـ فلسطين في أجندة الثورات الجديدة ..... د. رفعت سيد أحمد 13

3 ـ أسس التحول المجتمعي إلى الديمقراطية، ومسألة المشاركة السياسية

..... د. خلف الجراد 23

4 ـ هل ولد النظام الدولي متعدد الأقطاب؟ ..... أ. حميدي العبد الله 43

5 ـ الرجعية سلاح على رقاب الشعوب يكبح تقدمها ويعيق ازدهارها.. محمد إسماعيل حديد 53

6 ـ إشكاليّات التحول الديمقراطي في الوطن العربي

"الربيع العربي" أنموذجاً ..... حمزة محمد أبو حسن 69

7 ـ الديمقراطية والإعلام ..... د. عيسى درويش 87

8 ـ الطبيعة المحتملة لحروب اليوم والمستقبل ..... د. أكرم محمود الشلّي..... 97

ملف الوثائق

9 ـ دور المغتربين العرب في القارة الأمريكية ..... د. علي دياب 109

10 ـ الجولان البوابة الجنوبية الغربية لسورية ..... محمد سعيد طالب 131

11 ـ الحوار ..... هيثم دقاق 143

12 ـ قراءة في الكتاب "الإمبريالية بقناع إنساني" للكاتب "جون بريمون" ..

ترجمة: عبود كاسوحة ..... غسان كامل ونوس 159

13 ـ السلطة والأخلاق: نحو حكومة العلماء والحكماء والقديسين...

ترجمة د. ثائر زين الدين مراجعة وتدقيق د. فريد الشحف 171

14 ـ قراءة في كتاب العقم الفكري الثقافي العربي"

للدكتور عبد اللطيف ياسين قصاب ..... عرض: نبيل فوزات نوفل.. 187

متابعات

15 ـ خطاب الوطن ..... يحيى أحمد عيسى 195

آخر الكلام:

16 ـ الديمقراطية في مواجهة الإرهاب ..... أ. محمد حديفي..... 229

من أقوال السيد الرئيس
بشار الأسد
رئيس الجمهورية العربية السورية

«إن الإرهابي لا يعنيه الإصلاح ولا الحوار بل هو مجرم كلف بمهمة وهو لا يهتم بالإدانة ولا بالاستنكار ولا يتأثر ببكاء الأرامل والثكالى والأيتام وهو لن يتوقف حتى ينجز هذه المهمة بغض النظر عن أي شيء ولن يتوقف إلا إذا قمنا نحن بإيقافه»

غزة وفجر (5)

دلالات ومواقف

□ د. حسين جمعة

تمسك الشعب العربي جيلاً بعد جيل بأرضه وهويته، وآمن كل جيل بعروبة فلسطين وبُعدها الإسلامي الحضاري من البحر إلى النهر... ومن ثم كانت على الدوام في قلبه وروحه؛ يدافع عنها كلما آلمها جرح واعتدى عليها غاز، أياً كانت القوة التي يمتلكها... ثم أخذت الغزوات الحاقدة تنال منها وآخرها غزوة بني صهيون التي بدأت بمؤتمر (بازل).

وإذا تغافلنا عن الطبيعة العنصرية السادية للحركة الصهيونية وروحها العدوانية التوسعية والحقد الذي صاغ نشأة دولتها في صميم ما دلّت عليه الجرائم التي ارتكبها قادتها بحق الشعب العربي الفلسطيني خاصة والشعب العربي عامة منذ مطلع القرن العشرين وتحت سمع ذلك الانتداب فإننا لا نتغافل عن المشاريع الصهيو ـ غربية لتفتيت الوطن العربي، واستمرار تجزئة المجزأ والسيطرة على موارده البشرية والطبيعية... فالمشروع الصهيوني قرر ألا يتعايش مع المشروع العربي الوحدوي النهضوي وألا يتعايش مع أي دعوة تفند مفاهيمه ومبادئه الدينية والفكرية التي ورثها من التلمود والتوراة...

لذا لا أريد أن أتحدث عن هشاشة دولة الكيان الصهيوني كما يحلو لعدد غير قليل من الباحثين أن يذهبوا إليه؛ ولاسيما حين يلجؤون إلى تحليلات ما أنزل الله بها من سلطان... ما يدعونا إلى التساؤل:

من منا لا يعلم أن هذا الكيان عبارة عن ثكنة عسكرية متطورة ومتقدمة للإمبريالية الصهيونية والأمريكية، فهو يملك كل التقنيات العسكرية والأسلحة البالغة التعقيد إذا تجاوزنا امتلاكه لما يزيد على (مئتي) رأس نووي قادرة على تدمير الكرة الأرضية... فالكيان دولة استيطانية استئصالية عنصرية سادية تمارس كل أنواع (الغيتو) بتلذذ بمثل ما تمارس المراوغة والكذب بنجاح... وقد أثبت التاريخ أن أبناءها لا يرتوون إلا بشرب الدم الإنساني ووفق تعاليم توراتية تفوح بكراهية الشعوب والأمم الأخرى...

ولهذا كانت غزواته الوحشية على الشعب العربي منذ احتلاله لفلسطين عام (1948م)... فقد تعرض هذا الشعب قبل ذلك التاريخ وبعده للقتل والإرهاب والعنف والطرد من الأرض والتشريد وسرقة ثروته.. وحُرم من حقوقه الإنسانية المشروعة، واعتدي على تراثه وخصوصياته وعاداته ومعتقداته... ثم حاول الكيان الصهيوني منذ نشأته عملية تزوير منهجية ومحو لكل ما هو فلسطيني وعربي... أراد أن يصنع له من الأطفال حديثي الولادة أناساً مشوهي الفكر والطبيعة؛ ملحقين بدولة الكيان المزعومة.. وهو الشعب الذي أدرك أن حكامه أعجز من أن يحرروا الأجزاء التي سلبت من أوطانه؛ وخبر المتخاذل منهم والخائن والعميل والضعيف... وعرف أن الآلة العسكرية والتقنية المتطورة لدولة الكيان لن تنال من قدراته ولن ترعبهُ، بل لم تعد تستفزه وتجره إلى الفعل ورد الفعل؛ فقد راح يعمل على إعداد قدراته البشرية والعسكرية، ويخطط لكل حركة يقوم بها. لهذا حاز نصره على نفسه في حرب (1973/10/6م) وحقق المعادل الموضوعي للذات والإرادة التي استثمرها من بعد؛ فكان نصر (تموز 2006م) مع المقاومة الوطنية اللبنانية ثم كانت وقفة العزة والإباء مع شعبنا في غزة الذي حقق مقولة (الدم الذي انتصر على السيف) إذ واجه بلحم أبنائه آلة الفتك الصهيونية في عملية (الرصاص المسكوب) المجرمة لمدة (23 يوماً) بدأت منذ يوم (السبت 2008/12/27م)، واستباحت كل المحرمات والقوانين الدولية؛ ثم جاء العدوان الوحشي الصهيوني الجديد الذي أطلق عليه الكيان اسم (عمود السحاب) على غزة يوم الأربعاء (2012/11/14م) ودام ثمانية أيام. لقد صمم هذا الكيان على أن يجعل أبناء غزة عنصراً جباناً يواجه غطرسة المحتل الصهيوني بالأنفاق والملاجئ والبكاء... على حين لم يدرك أن الأطفال سيواجهونه بالصمود واللامبالاة، ويمضون في طلب العلم من خلال مواظبتهم على الدراسة ومتابعة تعليمهم، بينما النساء يشترون حاجاتهم، والجميع يعمل دون خوف أو كلل. ولذلك نقض العدو الصهيوني الهدنة السابقة غير مرة؛ وتمادى في جبروته فافتتح عدوانه الهمجي باغتيال القائد العسكري لكتائب القَسَّام (أحمد الجعبري) الذي ارتقى شهيداً إلى المجد... ومن ثم أخذ شعبنا في غزة يؤكد من جديد عنفوانه وصموده البطولي؛ وإن فقد ما يزيد على (162) شهيداً و(1200) جريح كان عدد الشهداء الأطفال العدد الأكبر فيه إذ بلغ

(34) شهيداً، و(274) مصاباً جراح بعضهم خطيرة كما ذكرته وكالات الأنباء ومراكز حقوق الإنسان...

وإذا كان هذا الفعل الإجرامي مروّعاً فإنه عجز عن النيل من إرادة المقاومة وتمسكها بالرد المناسب الذي أثبت أن الرَّدْع لا يقاوم إلا بالردع؛ وأن العدو المتغطرس لم يعدْ قادراً على مفاجأة المقاومة أو خداع العالم، مهما تبجح بأنه يريد أن يدافع عن مواطنيه؛ وكأنه أصبح الضحية على حين أن شعب فلسطين كله ما زال يدفع ثمن جرائمه، وما زالت أرضه مستباحة للاستيطان الصهيوني العنصري... ومن ثم فإن المقاومة المسلحة وحدها هي الكفيلة بإعادة الأرض والحقوق المغتصبة إلى أهلها؛ وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة إذ لم يعد هناك مكان للجبناء والضعفاء، والعملاء والخونة... ولا مكان للجهل والتخلف في حياتنا فعالم اليوم عالمه تحكمه القوة الاقتصادية والتقنية والعسكرية و... والسارق لا يمكنه أن يعيد ما سرقه إلا إذا نفذ القانون عليه. ولمّا كان القانون معطّلاً بفعل همجية القوة الصهيو- أمريكية كان لزاماً علينا أن نتسلح بالحق الذي تدعمه القوة... وإلا فستبقى أرضنا مهددة بالاغتصاب وسرقة مواردها، والهيمنة على شعوبها؛ وإلغاء سيادتها... فالعالم الغربي لم يَرقَّ قلبه لكثرة الشهداء والضحايا الذين سقطوا من أجل حريتهم وحرية أوطانهم؛ ولم يحترم كينونة حقوقهم المغتصبة... فالحق تلزمه القوة وهي التي تحميه وتدافع عنه، وهذا ما نفذته فصائل المقاومة وفق ما ذكرته كتائب المقاومة الوطنية في بيانها العسكري بتاريخ (2012/11/20م) والذي جاء حصاداً لإطلاق صواريخها على المستوطنات الصهيونية.

ـ اليوم الأول للعدوان الإسرائيلي ((يوم الأربعاء الموافق 2012/11/14))

- كتائب المقاومة الوطنية تقصف بئر السبع بصاروخين جراد وصاروخ 107، وتقصف النقب الغربي بصاروخين جراد وصاروخ 107، وتقصف مدينة عسقلان المحتلة بصاروخ جراد، وبالاشتراك مع كتائب شهداء الأقصى (كتيبة الثوار) تقصف مستوطنة نتيفوت بصاروخ 107، وتقصف موقع صوفا بصاروخ 107، وتقصف سديروت المحتلة بصاروخين جراد، وتقصف مستوطنة بئيري بصاروخين 107.

ـ اليوم الثاني للعدوان الإسرائيلي ((يوم الخميس الموافق 2012/11/15))

- كتائب المقاومة الوطنية تقصف كرم أبو سالم بصاروخين 107، وتقصف مدينة عسقلان المحتلة بـ 3 صواريخ جراد، 2 منهم بالاشتراك مع كتائب شهداء الأقصى وتقصف مستوطنة كريات غات بصاروخ جراد، وتقصف بئر السبع بـ 4 صواريخ جراد بالاشتراك مع سرايا القدس، وتقصف بوابة أبو مطيبق بصاروخ 107، وتقصف النقب الغربي بصاروخين جراد و3 صواريخ 107، وبالاشتراك مع مجموعات الشهيد أيمن جودة تقصف موقع صوفا بصاروخ 107، وتقصف مدينة سديروت المحتلة بصاروخ جراد، وبالاشتراك مع كتائب شهداء الأقصى (كتيبة الثوار)، تقصف

نتيفوت بصاروخين 107، وتقصف مستوطنة بئيري بصاروخين 107، وتقصف مستوطنة ياميت بصاروخ 107.

ـ اليوم الثالث للعدوان الإسرائيلي ((يوم الجمعة الموافق 2012/11/16))

- كتائب المقاومة الوطنية تقصف مدينة سديروت المحتلة بصاروخ جراد، وبـ 4 صواريخ جراد بالاشتراك مع كتائب أبو علي مصطفى وتقصف النقب الغربي بصاروخين 107، وبالاشتراك مع كتائب شهداء الأقصى تقصف قاعدة زكيم العسكرية بصاروخين 107، وتقصف بوابة أبو مطيبق بصاروخين 107، وتطلق صاروخ موجه على جيب عسكري قرب موقع الإرسال بالاشتراك مع كتائب شهداء الأقصى وبالاشتراك مع "أبو الريش" تقصف موقع صوفا بصاروخين 107، وتقصف نتيف عتسرا بصاروخ جراد، وبالاشتراك مع مجموعات الشهيد أيمن جودة تقصف مستوطنة بئيري بصاروخ 107.

ـ اليوم الرابع للعدوان الإسرائيلي ((يوم السبت الموافق 2012/11/17))

- كتائب المقاومة الوطنية بالاشتراك مع كتائب شهداء الأقصى تقصف كريات غات بصاروخين جراد، وبالاشتراك مع كتائب شهداء الأقصى تقصف مجمع أشكول بصاروخين 107، وكتائب المقاومة الوطنية تقصف بوابة أبو مطيبق بصاروخ 107، وتقصف مدينة أسدود بصاروخين جراد، وتقصف كوسفيم بصاروخين 107، وتقصف نتيف عتسرا بصاروخ 107، وتقصف نحل عوز بصاروخ 107، وتقصف مستوطنة بئيري بصاروخ 107.

ـ اليوم الخامس للعدوان الإسرائيلي ((يوم الأحد الموافق 2012/11/18))

- كتائب المقاومة الوطنية بالاشتراك مع كتائب شهداء الأقصى تقصف مدينة عسقلان المحتلة بـ 4 صواريخ جراد، وكتائب المقاومة الوطنية تقصف بئر السبع بصاروخين 107، وتقصف النقب الغربي بصاروخ 107، وتقصف مدينة أسدود بصاروخ جراد، وتقصف موقع صوفا بصاروخين 107، وتقصف مجمع أشكول بصاروخين 107، وتقصف مستوطنة بئيري بصاروخين 107.

ـ اليوم السادس للعدوان الإسرائيلي ((يوم الاثنين الموافق 2012/11/19))

- كتائب المقاومة الوطنية تقصف مدينة عسقلان بصاروخين جراد، وتقصف بئر السبع بصاروخين 107، وتقصف النقب الغربي بصاروخين 107، وتقصف قاعدة زكيم بصاروخ 107، وتقصف مجمع أشكول بصاروخ جراد و3 صواريخ 107، وتطلق 4 قذائف هاون على النصب التذكاري والعدو يعترف بوجود إصابتين شمال القطاع، وتقصف إيرز بصاروخين 107، وتقصف نتيف عتسرا بصاروخين 107، وبالاشتراك مع كتائب شهداء الأقصى تقصف كوسفيم بصاروخين 107.

ـ اليوم السابع للعدوان الإسرائيلي ((يوم الثلاثاء الموافق 2012/11/20))

- كتائب المقاومة الوطنية أعلنت مسؤوليتها الكاملة عن تفجير عبوة موجهة بقوة راجلة صهيونية شرق بيت حانون وإصابة جنديين منهما، وكتائب المقاومة الوطنية تقصف مستوطنة أوفاكيم بصاروخين 107، وتقصف بئر السبع بصاروخ 107، وتقصف كرم أبو سالم بصاروخ 107، وتقصف مجمع أشكول بصاروخين 107، وتقصف نيريم بصاروخين 107)).

كان الهدف الأساسي للعدوان الصهيوني الغادر اختبار قدرة شعبنا في غزة على الصمود والثبات، وقدرة مقاومته على ردّ عمليته العسكرية التي أطلق عليها اسم (حجارة السجيل) أو (عمود السحاب) وراح يرعد ويزمجر باجتياح قطاع غزة؛ ويعلن أن عدوانه الجديد مفتوح على الفضاء بحراً وجواً وأرضاً؛ ومفتوح على الزمن حتى يحقق أهدافه التي خُطِّط لها. وكان يتساءل: هل يمتلك المقاومون إرادة إطلاق الصواريخ المتطورة التي تفاخروا بامتلاكها؟ ثم هل هم حقاً يمتلكون هذه الصواريخ؟ وهل هي قادرة على الصمود في وجه القبة الحديدية التي نصبت في كل مكان؟ أو هل هي قادرة على الدفاع عن نفسها بوجه الطائرات الصهيونية المتطورة التي أخذت تقذف جام حممها على الأبرياء في كل مكان من القطاع مدمرة كل ما تصل إليه؟ ثم إن أبناء صهيون جُبلوا على الصلف والعنترية والسخرية بقدرة الآخر العربي؛ وكانوا متيقنين أنهم سيحطمون عظام المقاومة الوطنية في غزة... ومن ثم شكلوا لجنة لعدوانهم من تسعة وزراء بقيادة (نتن ياهو) ومنهم وزير الدفاع (إيهودا باراك) ووزير الخارجية المتطرف (أفيغدور ليبرمان)... كان نتن ياهو مصمماً على فرض وقائع جديدة على الأرض؛ وعلى أن يكتب تاريخاً جديداً لحكومته وكيانه... في الوقت الذي يحفر قبراً لكل مواطن فلسطيني، وأخذت مجموعة الوزراء تعقد اجتماعاتها وتدير عمليات آلتها الوحشية التي ارتكبت مجازر وحشية بحق الأطفال والنساء والشيوخ، ودمَّرت الأهداف المدنية والإنسانية والبنية التحتية... كان عدوان الكيان حرباً عبثية نالت عائلات بأكملها كعائلة (الدلو) في جريمة شنعاء خطفت أرواح (13) شخصاً من أفرادها أطفالاً ونساءً وشيوخاً على أمل النيل من إرادة أبناء غزة وقيادتها... ولمَّا تأكد للكيان الصهيوني عجزه عن سحق الشعب العربي في غزة وفلسطين كلها ولاسيما أنه صيغ صياغة جديدة وتمتع بإرادة فولاذية ـ وبخاصة أن فصائل المقاومة تجلت بقوتها الموحدة في غزة وبتأييد بعيد المدى من الشعب العربي عامة ومن جبهة الممانعة في سورية ولبنان وإيران التي أمدتها بالمال والسلاح خاصة؛ وأن صاروخ فجر (5) وأخواته وبناته كن قادرات على ضرب الكنيست في القدس ومواضع محددة من تل الربيع، أو ما سماه الكيان بمدينة (تل أبيب) ـ سارع ذلك العدو إلى طلب إيقاف النار، والتراجع عن تهديداته المتواصلة بشن حربه البرية، وأخذ يتوسط لدى الرئيس الأمريكي أوباما؛ والرئيس المصري محمد مرسي للقيام بالمهمة الجديدة، وقد يتساءل أحدنا: لمَ توجهت الإدارة الأمريكية إلى مرسي للقيام بالهدنة؟ والجواب سهل وواضح؛ فالرئيس مرسي ينتمي إلى جماعة الإخوان، وكذلك منظمة (حماس) ويقترب منهم في التوجه الإسلامي منظمة (الجهاد الإسلامي). فالثقافة الواحدة وفَّرت المناخ المناسب للوصول إلى هدنة، علماً أن جماعة الإخوان تريد تحقيق مكسب سياسي إقليمي ودولي وهي ما زالت في بداية حكم مصر... وهذا لا

ينسينا أن المهمة الجديدة التي أوكلت إلى السيد مرسي قد ساندها عدد غير قليل من الأنظمة العربية فضلاً عن حكومة أردوغان في تركيا... لقد ظهر الدور المقلوب لكل من الجامعة العربية ومشيخة قطر والسعودية وحكومة أردوغان... فكل منها كان حريصاً على التهدئة وعدم الاستمرار في ضرب العمق الصهيوني، على حين لم يترك حلفاء الكيان، وأذناب الإدارة الأمريكية فرصة تضيع منهم لإشعال الفتنة في سورية، وتأجيج الاقتتال وإمداد المتورطين فيها بالمال والسلاح والمرتزقة. إن الجامعة العربية وبعض دول المنطقة لم تقف مكتوفة الأيدي تجاه الأزمة السورية... كان قادتها يجتمعون مرة بعد مرة ويشكّلون المجالس المعارضة والمتهافتة على السلطة لقتل السوريين والوصول بهم إلى اندلاع حرب أهلية، وهي الفصل الأخير من (مشروع الشرق الأوسط الجديد) القاضي بتفكيك المنطقة؛ وإنشاء دويلات دينية تكون سبباً لإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين، وفيها جميع الفلسطينيين من داخل الخط الأخضر وتظل فلسطين التاريخية خالصة لليهود كما انتهى إليه عدد من علماء الغرب، وفق معادلة (أورلاند دي بريتو) الإيطالي الجنسية؛ علماً أن أولئك العلماء قد تبنوها. ومن ثم طارت وزيرة الخارجية الأمريكية (هيلاري كلينتون) إلى القدس المحتلة ثم القاهرة وأنجزت المراد.

ولهذا فنحن لن نتحدث عن أبناء شعبنا في غزة الذين استطابوا طلب الحياة في إهاب مواجهة الموت؛ ومازالوا يرقصون بين شهيدين كما قال ـ يوماً ما ـ الشاعر المرحوم محمود درويش، لم تعد نساؤهم يولولن على الشهيد بل صِرْن يزغردن زافين إياه إلى جنة الرضوان، ولم تعد آلة القهر والموت الصهيونية تنال من عزيمتهن وقد أدركن طبيعة هذا العدو؛ إنه عدو صهيوني حاقد وعنصري ما إن ينته من جريمة حتى يخطط لجريمة أخرى وهو يظن أن الاعتداء على غزة خاصة وفلسطين عامة يعد رحلة استجمام... إن شعبنا في غزة أحدث ما يسمى بتوازن الرعب؛ وفتح باب الأمل على إنهاء الحصار الجائر المفروض على غزة منذ حزيران عام (2007م) وفتح المعابر الستة. كان هذا الحصار الطويل قد ترك آثاراً إنسانية خطيرة، أدّت إلى تداعيات قاتلة في الاقتصاد والحياة وفي المؤسسات الطبية والتعليمية والزراعية ومؤسسات الكهرباء والماء.. وقد شكّل الحصار تدميراً منهجياً هائلاً في اتجاهات شتى ومجالات عدة، ولولا أن أبناء غزة يتمتعون بمناعة قوية لكانوا اليوم أثراً بعد عين، ويطبقون مقولة الشاعر العظيم (محمود درويش): (حاصر حصارك لا مفر).

لهذا كانت وقفتهم قوية وصلبة في وجه العدوان الوحشي الجديد لدولة الكيان، ولم يضعفهم فقر الإنتاج المحلي لديهم، وتراجعه عن سنوات سابقة؛ ولا العقوبات المفروضة عليهم من الأنظمة العربية قبل الإقليمية والدولية... لقد حققوا بإرادتهم هدنة من نوع جديد؛ فرضوها بأنفسهم...

ومن ثم حقق طريق الأمل بالحصول على مزيد من الحقوق؛ وسيصبح الصيادون أحراراً في الحصول على لقمة عيشهم. ومن ثم فإننا لن نثير التساؤلات حول نجاح الوساطة أو انكشاف الوجه القبيح للإعلام العربي المغرض، والإعلام

الغربي العنصري والمنحاز إلى دولة الكيان، على علم أساتذته بحقيقة الصراع العربي الصهيوني، ولكننا نثير التساؤلات حول اللعبة الصهيونية القذرة التي جعلت الشعب الفلسطيني مادة للتجربة القاتلة وجعلته ألهية في سياسة العدو الشيطانية...

وفي ضوء ما تقدم ندرك أن شعبنا في غزة قد تحدث باسم أحرار العالم قبل أن ينطق باسم الشعب العربي؛ خاض معركة الشرف وحقق المعادلة الصعبة التي لم يكن أحد يتخيل أنه قادر عليها؛ فصان كرامة الأمة قبل أن يصون كرامته.

ومن هنا ينبغي على الشعب العربي وعلى شعوب دول المنطقة أن يتيقظوا جميعاً لما تخطط له الدوائر الصهيونية ـ الأمريكية، فالتحديات القادمة أمام الجميع تحديات استراتيجية وكبيرة قد تجرّ المنطقة إلى مآلات خطيرة؛ وحقول حُبلى بالألغام المتفجرة... فالمعركة مفتوحة براً وبحراً وجواً، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً وعسكرياً ودينياً... فمن منا ينسى جرائم الصهاينة في الحرم الإبراهيمي والمسجد الأقصى وكنيسة المهد؟ فهم يريدون الأماكن الدينية، ويصممون على تشويه تاريخها وإبقائها تحت سيطرتهم... ويعملون على إعلان دولتهم اليهودية وفق أجندة مدعومة من الغرب... وكل منا يعلم أن العدوان الصهيوني الأخير لم يكن ليكون من دون ضوء أخضر أمريكي فقد شُنَّ العداون بغطاء أمريكي وتخاذل عربي لا نظير له؛ إذ لم نقل غير ذلك... وكذلك ما كان ليكون لولا حرص الصهاينة على معرفة القدرة التقنية والعسكرية والتدميرية للصواريخ الجديدة المصنعة في سورية وإيران قبل أن يقوم الصهاينة بعدوانهم الذي يُعدّون له على المنشآت النووية الإيرانية أو على سورية مستغلين الأزمات المتناقضة التي وقع فيها النظام العربي الرسمي في معرض ما أطلقت عليه الإدارة الأمريكية اسم (الربيع العربي) ولم يكن أكثر من صقيع عربي أحدث تشوهات قاتلة في بنية المجتمع العربي.

وأنا ممن يرى أن مشروع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير مازال مطروحاً على الطاولة، إذ يعمل قادته جاهدين من أجل السيطرة على المنطقة من بوابة شعارات براقة وفي طليعتها (الحرية والديمقراطية). وعلينا أن نكون متيقظين تجاه مصالح شعبنا وقضاياه العادلة والمشروعة، وفي طليعتها قضية فلسطين التي استطاعت اختراق عتاة المجتمع الدولي الذين حاولوا الوقوف في وجه الحق الفلسطيني في تقرير مصيره، وإنشاء دولته المستقلة وعاصمتها القدس... ومن ثم كان تصويت الجمعية العامة يوم (2012/11/29م) لصالح فلسطين بوصفها عضواً مراقباً نصراً حقيقياً، ومحطة على طريق التحرر والاستقلال؛ إذ صوّت لصالحها (138) دولة، وضدها (9) دول على رأسها أمريكا والكيان الصهيوني؛ وامتنع عن التصويت (41) دولة... وإذا كنا نؤمن بأننا متمسكون بخارطة فلسطين التاريخية من النهر إلى البحر ومن رأس الناقورة إلى إيلات وسيناء فإن أي خطوة على الطريق تعد محطة نهوض والتقاء بين الجميع.

إن مثل هذا الإجراء يدفع الفصائل الفلسطينية إلى التوحد من أجل قضيتهم؛ لكي يزهر ربيع المقاومة في النصر والتحرير...

إن غزة هاشم أضاءت الطريق من جديد لأبناء الأمة وأكدت أن استدعاء المجد والعزة لا يتم بغير المقاومة المسلحة، وليس بالبيانات الشاجبة؛ والإدانات الطنانة وأكدت طريق المصالحة الوطنية، وأن غزة جزء لا يتجزأ من أرض فلسطين التاريخية من البحر إلى النهر، وليست في يوم من الأيام بديلاً عنها كما ترتئيه الرؤية الصهيونية... فقيام دولة فلسطينية سيتحقق بالفعل الحيوي المقاوم والمتجدد لكل أبناء الأمة. ما يدفعنا إلى سؤال ذي دلالة نضعه بين يدي الأنظمة العربية التي بلغت درجة قصوى في إصدار مثل هذه البيانات، وعقد عدد من المؤتمرات للخروج من الجرح أمام الإدارة الأمريكية: أما نفذ صبر حكامها من الجرائم التي يرتكبها الصهاينة؛ ومن المواقف الفاضحة للإدارة الأمريكية؛ فأمريكا لن تكون إلا حارسة للكيان الصهيوني؟

فغزة وفجر (5) حققا أشياء ذات دلالات كبيرة على المستويات كلّها عربياً وإقليمياً ودولياً؛ خلقياً ووطنياً واقتصادياً وعسكرياً، سياسياً واجتماعياً... ولم يستطع التضليل الإعلامي الكاذب والمنافق أن يغيّب شمس الحق... وسنقرأ هذه التجربة جيداً... فهل سيعي النظام العربي الرسمي ذلك جيداً؟!! هل سيبقى هذا النظام عاجزاً عن إدراك أن الشعب الفلسطيني هو الشعب الوحيد الذي ما زال يرزح تحت أرزاء أبشع استعمار استيطاني عنصري إرهابي في التاريخ القديم والحديث؟!!

هل سيعي أن الإرادة الأمريكية خاصة والغرب عامة لن يتخليا عن الكيان الصهيوني؛ لأنهم صنّاعه، والمستفيدون منه؟! هل سيدركون أن إرادة الشعب العربي سوف تجرف كل ما يعادي وجودها وقيمها إلى مزابل التاريخ؟!!!

❑❑

فلسطين في أجندة الثورات الجديدة

□ د. رفعت سيد أحمد

مدخل:

• لعل أبرز القضايا العربية التى تأثرت بقوة ـ بما سُمى بربيع الثورات العربية، هى القضية الفلسطينية، ولعل أكثر الدول الكبرى تأثراً ثم توظيفاً أواختراقاً لهذه الثورات هى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ ولقد أنتج التداخل بين الأركان الثلاثة لهذا التأثير والتأثر ونقصد بهم (فلسطين ـ الثورات ـ الولايات المتحدة) واقعاً جديداً، ومختلفاً خاصة بعد مرور قرابة العامين على اندلاع الثورة الأولى من ثورات ما سمي بالربيع العربى (الثورة التونسية ـ ديسمبر 2010) مروراً بالثورة المصرية (25 يناير 2011) وانتهاءً بما جرى فى ليبيا وسوريا والذى يراه البعض أنه ليس بثورات، وأن ما يلمع ليس كله ذهباً، وأنه لا يعدو كونه مجرد صراعات على الحكم ومؤامرات خارجية تستهدف النفط (حالة ليبيا) أو تفكيك المقاومة العربية وإضعافها (حالة سوريا) وأن الغرب ومعه دول الخليج التابعة له قد ركبها جميعاً وأسماها (ثورة) مستخدماً القصف الإعلامى الموسع لشل العقل والرؤية عن الفرز الصحيح بين الثورات الحقيقية والثورات المزيفة.

ـ ترى كيف جرى التاثير والتاثر، بين هذه الأركان الثلاثة (فلسطين ـ الثورات ـ واشنطن)، وما هى الانعكاسات الحقيقية له على أرض الواقع ؟ خاصة مع وضوح الاختراق الأمريكى الكبير لهذا الربيع العربى والنجاح تقريباً فى حرفه عن مساره الصحيح، مسار التغيير للأفضل بالنسبة للشعب العربى وللحقوق العربية الثابتة والمقاومة العربية الصحيحة ضد الهيمنة الإسرائيلية والغربية، وأضحى ربيعاً أمريكياً بامتياز خاصة فى اليمن وسوريا وليبيا وغيرها. !! إن هذه الورقة البحثية تحاول أن ترصد وتحلل أبرز السلبيات والإيجابيات فى مرحلة ما بعد (الثورات) على القضية الفلسطينية والدور الخبيث لواشنطن وركائزها فى الخليج وبعض المتأسلمين من قوى التيار الإسلامى ـ الذى كان متشدداً ـ المنتشر الآن فى سلطة الحكم فى بلاد الربيع العربى ؛ فى سرقة الثورات وتوجيهها فى الاتجاه المعادى لروح الثورات الحقيقية لتصبح ثورات ضد المقاومة ومع إسرائيل، ثورات أسقطت عن عمد من حساباتها ؛ فلسطين ولعقود طويلة قادمة، ومن لا يعى ذلك عليه أن يعيد قراءة التاريخ وأن يستعد له من الآن وبخاصة القوى الفلسطينية المجاهدة وللوصول إلى الحقيقة فيما جرى فى المنطقة وانعكاسه على (القضية الفلسطينية) دعونا نفتش ونبحث:

أولاً : نعتقد ـ للأسف ـ أن النتيجة النهائية لما اصطلح على تسميته بالربيع العربى كما عشنا ـ ولانزال نعيش ـ وقائعه منذ ثورة تونس وحتى أحداث سوريا والبحرين مروراً بمصر وليبيا واليمن ـ هى سقوط القضية الفلسطينية من أجندة الذين انتصروا فى هذه الثورات وتولوا الحكم وتراجعها خطوات طويلة للخلف، بل وربما التآمر عليها ومحاولة تدجين وترويض بعض حركات المقاومة المسلحة لتتحول إلى مقاومة سياسية بلا طعم ولا رائحة فى وطن محتل بالكامل، إن المؤرخ المنصف لتطور الأحداث فى ثورة مثل مصر على سبيل المثال يجد أن من وصل فيها إلى الحكم وافق على التطبيع مع إسرائيل وعلى اتفاقية كامب ديفيد وقروض البنك الدولى ودول الخليج التى تعنى إعادة إنتاج نظام التبعية لحسنى مبارك ولكن بلحية وقشرة إسلامية، وسقطت فلسطين تماماً من سلم الأولويات، حتى القضايا ذات البعد الإنسانى مثل قضية العودة سقطت وباتت موضوعاً للمزايدة إرضاء لواشنطن وتل أبيب (لنتأمل تصريحات أبو مازن الأخيرة بشأن إسقاط حق العودة وردود الفعل عليه) إن قضية مثل قضية حق العودة والتى أسقطها الربيع العربى ـ الأمريكى تحتاج منا فى هذا المقام البحثى إلى إعادة تذكير فمن بين أطلال 531 مدينة وقرية ومن بين 600ضيعة وقرية صغيرة، خرج ولم يعد أكثر من ستة ملايين فلسطيني منذ حرب العام 1948 وحتى اليوم (2012)، ومن هؤلاء تشكل ما أضحى يعرف بظاهرة اللاجئين الفلسطينيين الموزعين على كافة أرجاء المعمورة وبخاصة المعمورة العربية التي كانت تسمى سلفاً بـ(الوطن العربى) وباسم هؤلاء وبسبب مأساتهم تشكل ما بات يسمى بحق العودة، ذلك الحق الذى يعد أهم محاور القضية، أو هو أصلها إن شئنا الدقة، وهو القرار الذي انبنى عليه، وصدرت بشأنه عشرات القرارات والتوصيات الدولية، وعقدت

بشأنه آلاف المؤتمرات والندوات، وللأسف ذهبت كلها أدراج الرياح بسبب ممالأة الغرب وتآمره مع (إسرائيل) لانتزاع وطن من أهله، ومصادرته مدى الحياة: في أبشع جريمة ضد الإنسانية، جريمة وفقاً للقوانين الوضعية ـ قبل السماوية ـ لا تسقط بالتقادم. إن العودة ليست حلماً، بل حق أقرته المواثيق الدولية، عودة إلى البيت الذي طرد منه الفلسطيني وليس إلى أي مكان آخر داخل فلسطين كما تحاول أن تفرضه محاولات التسوية الجديدة منذ أوسلو وحتى ربيع الثورات العربية الذى تحاول أمريكا تحويله إلى شتاء قارص يلعنه الجميع وفى مقدمته الشعب الفلسطينى، لأنه ببساطة ربيع أسقط حق العودة، مقابل قيام حكم الإخوان والسلفيين فى البلاد العربية، وكأننا نستبدل نظام مبارك العسكرى بنظام مبارك بلحية !! الشكل تغير ولكن القلب لايزال أمريكياً إسرائيلياً خاصة فى القضية الفلسطينية * . على أية حال إن أبرز وأقدم قرار صدر عن الأمم المتحدة بشأن حق العودة هو القرار رقم 194 الصادر يوم 11 ديسمبر 1948 يقضي بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة والتعويض (وليس: أو التعويض) وأصر المجتمع الدولي على تأكيد قرار 194 منذ عام 1948 أكثر من 135 مرة ولم يعارضه إلا الكيان الصهيوني وأمريكا ـ وحق العودة أيضاً نابع من حرمة الملكية الخاصة التي لا تزول بالاحتلال أو بتغيير السيادة على البلاد. ترى هل فهم القادة الجدد لثورات الربيع العربى من تونس إلى ليبيا ومصر وغيرها هذه الحقيقة ؟ وهل عملوا على إعادة هذا الحق لأصحابه ؟ إن الحقائق تقول للأسف أن هؤلاء الحكام الجدد ساروا على نفس نهج الحكام القدامى ليس بشأن حق العودة فقط بل بشأن القضية الفلسطينية كلها، لقد وافقوا على كامب ديفيد ورحبوا بالعلاقات مع تل أبيب وواشنطن، وكأننا أمام حسنى مبارك آخر.

***

ثانياً : لقد زفت إلينا، صحف القاهرة، وعلى استحياء، وهى المشغولة بالحرب الأهلية بين ائتلافات وقوى الثورة أنباء عن اجتماعات قادة الفصائل (2011/12/21) لتوقيع ما سمى باتفاق القاهرة للمصالحة والذى سبق وكتب فى 2011/5/4 وهو : [العاشر ربما منذ اختلف الأخوة) الأعداء !!) على طبيعة المسيرة والمسار] وهللت بعض وسائل الإعلام المصرية لمشاركة ممثلين عن حركة الجهاد والـ13 فصيلاً فلسطينياً الآخرين، فى التوقيع على المصالحة بعد أن يكون الكبار) من فتح وحماس قد وقعوا ؛ وقالت مصادر مطلعة: أن جوهر الاتفاق، هو ما سبق وأعلنه خالد مشعل وأبو مازن فى القاهرة أثناء لقائهما الشهر الماضي نوفمبر) وهو [إيقاف المقاومة المسلحة ضد العدو الصهيونى والاكتفاء بالمقاومة السلمية التى لا تستخدم العنف بأى صورة من الصور مع العدو، حتى لو استخدم هو العنف مع الشعب الفلسطينى الأعزل.

بهذا المعنى فإن اتفاق المصالحة هذا وما تلاه من اتفاقات مصالحة، خلال عام 2012، وإن تضمن كلاماً جميلاً وغائماً عن (الاعتقال السياسى) والانتخابات والإدارة المحلية، وغيرها من القضايا التى ستظل هامشية قياساً على الشرط الرئيسى الحاكم للاتفاق، وهو (إيقاف المقاومة

المسلحة) واستبدالها بالمقاومة أو النضال الـ (تيك أواى) نضال بعض ثورات الربيع العربي .. ثورات الـ C.I.A، نضال على مقاس المصلحة والرؤية الإسرائيلية ؛ نضال لا يغير من قواعد (الاحتلال) وأسسه وإن (جمَّل) و(غيّر) فى شكل وأدوات عمل هذا الاحتلال إن مخاوف القوى المقاومة العربية والفلسطينية بشأن المصالحة الجارية وقائعها الآن بمباركة الإخوان المسلمين والمخابرات المصرية ؛ عديدة، فدعونا نسجل أبرزها لعل ما نقوله يفيد :

(1) مما لاشك فيه أن أى قومي أو إسلامي مقاوم، يفرح كثيراً عندما يتصالح أبناء فلسطين، ويتوحدوا، ولكن بشرط أن تكون المصالحة والوحدة على أرضية المقاومة والتخلص من أدران الاتفاقات المذلة، وفى طليعتها اتفاق أوسلو 1993، والذى لم يعطِ للفلسطينيين سوى المهانة، والمزيد من المستوطنات !! فإذا ما جاءت)المصالحة) كما تمت عدة مرات فى القاهرة، وفقاً لأوسلو، فإنها مصالحة زائفة، بل وقاتلة، لأنها مصالحة على دم الشهداء من أبناء حماس وفتح والجهاد والقوى والفصائل الفلسطينية الأخرى وهو ما يجعلنا نشك ليس فى عدم جدوى هذه المصالحة بالنسبة للقضية الفلسطينية، فحسب، بل وفى خطرها على هذه القضية خاصة أنها تأتى برعاية نفس أجهزة (عمر سليمان وحسنى مبارك) المعادية لروح المقاومة وغاياتها ؛ وتأتى بموافقة أمريكية كاملة بل لا نبالغ إذ نقول إنها تأتى بطلب أمريكي صريح عبر الزيارات المتعددة (23 زيارة) لمسؤولي البنتاجون والـ C.I.A والخارجية الأمريكية وبعض السياسيين الأمريكيين الكبار ذوي الهوى والارتباط الصهيونى مثل جون ماكين وجون كيرى وجيمى كارتر وآن باترسون السفيرة الأمريكية فى القاهرة والتى أعلنت فى حوار أخير مع صحيفة اليوم السابع (2012/11/1) أنها التقت د. محمد مرسى ـ على سبيل المثال ـ 7 مرات أكد فيها ـ جميعاً ـ احترامه المطلق لمعاهدة السلام مع الإسرائيليين بأشد مما فعل حسنى مبارك.

(2) تأتى المصالحة فى أجواء تغييرات وثورات عربية ؛ بعضها ـ كما اتضح الآن للجميع بعد أن بح صوتنا ـ (حقيقى) والآخر زائف، ومصطنع، بعضها، يضع (فلسطين) والمقاومة على سلم أولوياته، والبعض الآخر ـ وهو الأغلب للأسف ـ يدير لها ظهره، منذ اليوم الأول لتسلمه البرلمان أو الحكم من الأنظمة التابعة والعميلة، والمصالحة الفلسطينية كما جرت مقدماتها تأتى فى إطار إعادة تشكيل المنطقة ليتكون الهلال (الإسلامي ـ الأمريكي الجديد)، الذي قشرته الخارجية إسلامية)إخوانية وسلفية وهابية) وقلبه أمريكى / إسرائيلى . المصالحة لا تستهدف (القضايا الصغيرة) مع كامل الاحترام للبنود المنشورة : المعتقلون والانتخابات وإدارة شؤون السجن الفلسطينى الكبير فى رام الله وغزة، لكنها تستهدف وضع الجميع داخل قطار التسوية الجديد، قطار أوسلو، ولكن بلحية طويلة مشذبة!.

(3) كان طبيعياً أن تنتهى المصالحات الوهمية القائمة على غياب حقيقى للقضية الفلسطينية إلى تصارع بين الأطراف الفلسطينية ليس على خيار المقاومة بل على من يقدم للإسرائيليين والأمريكيين تنازلات أكثر وشهدنا دور قطر ودول الخليج فى محاولات جر حماس إلى مربع

التسوية والتى كان أبرزها زيارة أمير قطر إلى غزة وطلبه من (حماس) التخلى عن خيار المقاومة المسلحة والاتجاه إلى العمل الاقتصادى من خلال الدعم المالى الخليجى، وفى المقابل وإن بلغة أخرى ولكن بذات المضمون، رأينا دور أبو مازن فى تقديم تنازلات أكثر لترضى عنه واشنطن وكان آخرها تنازله عن حق العودة فى حواره الشهير مع القناة الثانية الإسرائيلية (2012/11/2) الأمر الذى دفع قيادة تحالف القوى الفلسطينية في لبنان وهيئات فلسطينية عديدة لإصدار عدة بيانات تفند وترد على هذا التنازل الاستراتيجى المجانى لإسرائيل، ومن بين ما تضمنه بيان (الفصائل الفلسطينية):

أ ـ نستنكر التنازلات الخطيرة للسيد محمود عباس عن حق العودة وأرض فلسطين التاريخية ورفضه للانتفاضة الثالثة واعتباره المقاومة المسلحة إرهابا. ب ـ ان مواقف عباس الأخيرة لا تعبر إلا عنه شخصيا ولا تمثل شعبنا الفلسطيني وفصائله الوطنية والإسلامية ج ـ نجدد تمسكنا بحق العودة إلى ديارنا الأصلية في فلسطين ونؤكد ان حق العودة هو حق فردي وجماعي لشعبنا، ولا تملك أي جهة أو منظمة أو دولة أو زعيم التنازل عن هذا الحق المقدس. د ـ نؤكد تمسكنا بالمقاومة المسلحة كخيار استراتيجي لشعبنا الفلسطيني ونعتبرها حقاً طبيعياً لمواجهة الاحتلال الصهيوني كفلته الشرائع السماوية والأرضية كلها.

هـ ـ نؤكد على حقنا بتحرير فلسطين كل فلسطين من البحر إلى النهر ومن الجليل إلى النقب، ولا تملك أي جهة في العالم التنازل عن شبر واحد من أرض فلسطين التاريخية فهي ملك الشعب العربي الفلسطيني. وينتهى بيان الفصائل الفلسطينية إلى القول بـ (نحذر فريق التسوية الفلسطيني من التمادي في تقديم التنازلات للعدو الصهيوني فإن هذا الكيان الغاصب لا يفهم لغة المفاوضات والتسويات التي فشلت على مدار 21 سنة، وان اللغة الوحيدة التي يفهمها هي لغة القوة والمقاومة فقط).

ـ وعلى ذات المعنى جاء بيان قوي وشخصيات عربية معروفة تدين تصريحات (أبو مازن)

وتعلن موقفها بوضوح ضدها (ومنهم كاتب هذا البحث) وجاء فى البيان " : لم يُصدم فيما اقترفه محمود عباس (أبو مازن)، في القناة الثانية من تليفزيون العدو الصهيوني، يوم الجمعة (2012/11/2) إلا كل من استمرأ التعامل مع الأوهام. فما اقترفه عباس لم يكن جديداً، حتى يصدمنا، بل كان تأكيداً جديداً على خط عباس، الذي ينفِّذ مشروعاً صهيونياً في مجال القضية الفلسطينية عموماً، وفي الضفة الغربية راهناً. فليس مستهجناً على من يتباهى بأنه يحمي الصهاينة وكيانهم، أن يسم الانتفاضة بالإرهاب، وأن يُنكر حقه في العودة إلى مسقط رأسه، صفد، ويكتفي بالفرجة عليها! وهو الذي دأب على التنسيق الأمني مع العدو الصهيوني، لمطاردة فدائيينا، وسجنهم، ونزع أسلحتهم، وإفقاد بعضهم حياته، تحت أنواع بشعة من التعذيب. ثم، كيف لنا أن نستهجن خطايا عباس الأخيرة، وهو الذي صرح ـ قبل نحو شهر ـ أمام مجموعة من الحاخامات بأن "إسرائيل وُجدت لتبقي." ثم يقول البيان " : للتذكير فحسب، عباس هذا هو من رشحته واشنطن وتل أبيب رئيساً لوزراء سلطة الحكم الذاتي المحدود، وفرضته على المغفور له،

ياسر عرفات، قبل نحو تسع سنوات ونصف، لكن قواعد "فتح" سرعان ما شيَّعت عباس بالهتاف المعروف: "يسقط كرازاي فلسطين"! فخرج ذليلاً من رئاسة الوزراء، مضطراً لتقديم استقالته من كل مناصبه في السلطة، ومنظمة التحرير، و"فتح". لكن الأعداء أعادوه رئيساً لكل هذه المؤسسات، بعد بضعة أشهر، بمجرد أن اغتالوا ياسر عرفات. ثم ينتقل البيان إلى القول : " حتى رد الفعل البارد من فصائل لم تغادر المقاومة علناً بعد، لم يصدم أحداً. أما الفصائل التي فقدت، منذ زمن، مبرر وجودها، وأبقاها عباس من باب سد الخانة وكمالة العدد، فلا أحد يلومها على التزامها الصمت إزاء خطايا عباس؛ إذ لا حياة لمن تنادي. " وانتهى البيان إلى الآتى " : مطلوب منا جميعاً، من اكتشف عباس مبكراً، ومن لم يقتنع إلا بعد أن صُدم بجبهته. مقاطعة هذا الرجل، والاستمرار في تعريته، متجاوزين كل الخُشب المسنَّدة، من الفصائل والأنظمة العربية، المطالبة اليوم بمقاطعة عباس، إلا من كان على شاكلته من تلك الأنظمة. ونعلم أن المهمة صعبة، فإغضاب واشنطن وتل أبيب فوق طاقة النسبة الأكبر من حكام العرب، وثورة شعبنا مستعصية، ما دام البديل لم يجهز بعد، وما دام عمقنا الاستراتيجي العربي على هذا النحو من التبعثر والوهن والحرص على إرضاء الأعداء. لكن معركتنا قد بدأت، وسننتصر . "

***

- إن هذه البيانات والإدانات التى أعلنت والقائمة على تنافس غير طيب بين بعض الفرقاء الفلسطينيين حول أيهم يقدم تنازلات أكبر للإسرائيليين بعد ربيع الثورات العربية، إن هذا فى تقديرنا من أخطر ما أنتجه هذا الربيع من تأثير سلبى على القضية الفلسطينية التى لا نجد أبلغ من كلمات د. رمضان عبد الله شلح أمين عام حركة الجهاد الإسلامي فى فلسطين فى تشخيصه وذلك من خلال خطابه فى الذكرى الـ31 لتأسيس حركته (2012/10/4) حين قال : [أمام ما تشهده المنطقة من ثورات وأحداث تبدو ما يسمى بالربيع العربي وكأنه سلاح ذو حدين تجاه فلسطين: الأول سلبي، ويتمثل في الانشغال عن فلسطين بما يعطي فرصة لإسرائيل أن تفعل ما تريد، وأن تمرر كل مخططاتها العدوانية وتفرض وقائع جديدة على الأرض. أما الحد الثاني والإيجابي فهو نافذة الأمل التي تفتحها ثورات الشعوب لدعم وإسناد قضية فلسطين. ولكن بعد كم من الزمن سيحدث هذا؟ الله أعلم! واضح أن فلسطين في أحسن الأحوال "مؤجلة"، ولا نقول "أسقطت" من جدول أعمال الأنظمة والحكومات الجديدة التي أوصلها الربيع العربي إلى سدة الحكم. لكن إلى متى هذا التأجيل؟! إلى أن تبتلع إسرائيل آخر متر من الأرض وتهود آخر شبر في القدس، فلا يجد العرب والمسلمون شيئاً يدافعون عنه؟! نحن لا نتوقع ولا نطالب أحداً بأن يخوض غداً حرباً ضد إسرائيل من أجل فلسطين، وإن كان هذا واجباً، لكننا نقول: إن بإمكانكم خوض معركة سياسية من أجل القدس والمسجد الأقصى، الذي يوشك على السقوط بسبب الحفريات من تحته

ليبنوا مكانه الهيكل المزعوم!لا يجوز لحاكم عربي أو مسلم ولا للشعوب أن يصمتوا أمام اقتحام الجماعات اليهودية المسجد الأقصى للصلاة فيه، إنهم يخططون لقسمته للصلاة فيه، كما فعلوا بالمسجد الإبراهيمي في الخليل. وهنا نستحضر قصة الفيلم المسيء لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولديننا. لقد قيل الكثير عن هذا الفيلم، لكن من أهم أهداف من أنتجوا هذا العمل الدنيء هو أن يكون بالون اختبار، أو من أجل أن يتعود المسلمون على تقبل إهانة رموزهم الدينية ومقدساتهم دون أن يغضبوا أو يثوروا، وذلك استعداداً لجريمة هدم المسجد الأقصى التي يبيتون النية لها. فإذا مرت جريمة إهانة النبي فمن الطبيعي أن تمر جريمة هدم الأقصى، هنا تحضر الأيدي الخفية والأصابع الصهيونية في فيلم الإساءة للنبي عليه السلام.أما عن استمرار الحصار وإغلاق المعابر ومعاناة الشعب الفلسطيني في غزة، في زمن الثورات العربية، وهذا أمر يتعلق بالشقيقة مصر، فالوضع للأسف، وبكلمة واحدة، ليس أحسن حالاً مما كان قبل الثورة، إن لم يكن في بعض الأمور، أصعب أو أسوأ، كما عبر بعض الأخوة المسؤولين في سلطة غزة!لا نريد أن نحمل أحداً أو بلداً ما لا يطيق، ونعرف أن التركة التي ورثوها من أنظمة الاستبداد ثقيلة وثقيلة جداً، لكننا نذكّر أنظمة الربيع العربي أنهم إن أغفلوا فلسطين أو ناموا عنها، فسيأتي اليوم الذي نرى فيه الجماهير التي انتفضت مطالبة بحريتها، تنتفض فيه مجدداً لتسأل حكامها الجدد أين فلسطين؟ وماذا فعلتم من أجلها؟].

***

ثالثاً : إن الواقع المر الذى تعيشه القضية الفلسطينية بعد ثورات ما سمى بالربيع العربى وبعد المحاولات الأمريكية الدؤوبة لاختراقه ووضع القضية الفلسطينية فى ذيل اهتماماته مع تصعيد التعاون الاستراتيجى مع إسرائيل تمهيداً لضرب إيران بعد التآمر الواضح الذى يتم الآن ضد سوريا باسم الثورة، ويستهدف تفكيكها وإدخالها فى حرب أهلية تحول بينها مستقبلاً وبين أن تكون ـ كما كانت بحق ـ حضناً وداعماً رئيسياً للمقاومة فى لبنان والعراق وفلسطين !! ؛ فى ضوء من هذا الواقع المر يطرح سؤال كبير فى مواجهة حماس وفتح وكل من خضع لابتزاز أمريكا ودول الخليج وفريق المتأسلمين الذي يسيطر على الحكم بعد سرقته للثورات الشعبية : هل تندلع انتفاضة فلسطينية جديدة ؟ إن ثمة دعوات فى فلسطين اليوم انطلقت تطالب بذلك وواكبتها روح عربية عامة داعمة لها في إثر حدثين كبيرين جريا فى المنطقة، الحدث الأول: هو اندلاع ما يُسمى بربيع الثورات العربية، وبخاصة ثورة 25 يناير المصرية، والحدث الثاني: هو المصالحات الوطنية الفلسطينية بين فتح وحماس وباقي القوى الفلسطينية التى تُجرى كل حين وبخاصة فى القاهرة ؛ والتى رافقتها، مظاهرات شعبية واسعة لفلسطيني الداخل من غير المنضوين تحت لواء الفصائل، تطالب بإنهاء الانقسام، والاستعداد لانتفاضة ثالثة. ولكن السؤال الآن، وبعد الاختراقات الأمريكية والإسرائيلية لهذا (الربيع العربى): هل الأجواء السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى فلسطين مهيئة بالفعل

لإحداث هذه الانتفاضة ؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد أماني وأحلام وطنية واسعة سرعان ما ستزول ؟. للإجابة دعونا نسجل ما يلي:

(1) إن تفاقم الأوضاع السياسية والاقتصادية للفلسطينيين في مجمل الأراضي المحتلة، وليس في غزة أو رام الله فحسب، يؤشر إلى احتمالية الانفجار الشعبي الواسع ضد الاحتلال الذي تسبب في هذا التردي المعيشي والسياسي، بخاصة مع انتقال روح الثورة والمظاهرات المليونية التي غيرت وجه المنطقة المحيطة بفلسطين، وإذا ما تأملنا على سبيل المثال أوضاع بقعة جغرافية واحدة من بقاع فلسطين، وكيف حول الحصار والاحتلال، والتواطؤ الرسمي العربي والفلسطيني، الحياة فيها إلى جحيم، ونقصد بها (قطاع غزة) فإنها تكفي للدلالة على احتمالية الثورة والانفجار، ففي تقرير موثق من داخل فلسطين، أصدرته منظمة المؤتمر الإسلامي في فبراير 2012 جاء فيه :[إن القطاع يحتاج إلى إعادة كاملة لبناء كل المرافق والمؤسسات التي دمرها الاحتلال والانقسام الوطني، وعلى سبيل المثال لا الحصر القطاع يحتاج في قطاع التعليم وحده إلى بناء 30 مدرسة بشكل سنوي ولمدة 5 سنوات لمواكبة زيادة أعداد الطلاب وتعويض النقص الحاصل في بناء المدارس. وأوضح أن فرض الحظر على توريد مواد البناء والمعدات العلمية أدى إلى توقف إعادة اعمار المدارس حتى فترة وجيزة، لافتاً إلى أن الاكتظاظ في الغرف المدرسية انعكس سلبًا على قدرة الطالب على الاستيعاب. وأشار التقرير إلى المشاريع المُنفذة من قبل المؤسسات والهيئات العاملة في القطاعات المختلفة لأهالي قطاع غزة، والتي تهدف بمجملها إلى إغاثتهم، ومنها مشروع إعادة تأثيث مختبرات كليات العلوم والهندسة بالجامعات الفلسطينية بقطاع غزة وكيف أنها قد توقفت جميعاً. ولفت إلى افتقار جانب البنية التحتية والقطاع الاقتصادي إلى المشاريع التي توازي حجمه في الأهمية، وضعف التدخل فيه رغم أنه يلامس الحاجات الإنسانية لأهالي قطاع غزة.

- وبيّن ـ التقرير السابق ـ أن هناك حاجة ماسة لتعزيز مشاريع التنمية البشرية وقطاع المرأة حيث لا تتعدى المشاريع المُنفذة لصالحهما أعداداً قليلة. وحول معبر رفح البري مازالت أزمة إغلاقه قائمة رغم الثورة المصرية، وأشار إلى تفاقم أزمة المرضى والطلبة العالقين بقطاع غزة خلال الفترة الماضية، وتفاقم أزمة الآلاف من الفلسطينيين العالقين في دول العالم ولا يُسمح لهم المرور عبر معبر رفح للقدوم إلى غزة. وأشارت دراسات أخرى إلى أن سلطات الاحتلال تتعمد حصار وخنق الشعب الفلسطيني في غزة وغيرها من بقاع فلسطين المحتلة. ووفق هذه الدراسات، تفاقمت أزمة المعابر بعد قرار سلطات الاحتلال إغلاق معبر المنطار وتحويل صلاحياته لمعبر كرم أبو سالم والذي يضاعف من الأزمة الإنسانية في قطاع غزة. وأشارت إلى اعتماد محطة توليد كهرباء غزة على ديزل السيارات المصري بالتشغيل، ولكنه لم يفِ بغرض السكان، واستمرت معاناة المواطنين بانقطاع التيار لفترات تتجاوز 4 -6 ساعات يوميًا. وذكرت أن 10٪ من السكان الذين يعيشون في مدينة غزة ورفح وجباليا لا تصلهم المياه إلا مرة كل أربعة أيام، في حين أن 80٪ لا تصلهم المياه إلا مرة كل ثلاثة أيام والمتبقين تصلهم المياه مرة واحدة يوميًا.

***

(2) هذا على مستوى جانب واحد من جوانب الأزمة الاقتصادية في قطاع غزة فقط، أما على المستوى السياسي وحقوق الإنسان فلقد طالبت وزارة شؤون الأسرى وغيرها من الهيئات الوطنية الفلسطينية عشرات المرات بتشكيل لجان تقصّي حقائق دولية، للإطلاع على حقيقة الأوضاع القاسية والمهينة في السجون الإسرائيلية ..وشددت على ضرورة فضح الممارسات الإسرائيلية وانتهاكها لحقوق الإنسان، ووضع المجتمع الدولي أمام مسؤولياته، إضافة إلى العمل على تنفيذ القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة بحق الأسرى الفلسطينيين. وأضاف أحدث تقرير لها أن إسرائيل تقوم بجرائم حرب ضد الأسرى وتنتهك حقوق الإنسان، 'حيث اعتقلت حوالي 850 ألف مواطن فلسطيني منذ عام 1967، واحتجزتهم ولم تعاملهم كأسرى حرب ولايزال يوجد حوالي عشرة آلاف أسير فلسطيني في سجون الاحتلال، وإذا أضفنا إلى قضية الأسرى (لايزال يوجد حالياً قرابة الـ 6 آلاف أسير وأسيرة داخل السجون الإسرائيلية)، هذه القضية وما تعكسه من أهمية بالغة في الشارع السياسي الفلسطيني لأنها قضية جهاد وفداء، تكتشف بوضوح أن الشعب الفلسطيني لايزال يعاني من القضايا الصحية والتعليمية والغلاء وتدني الدخل وقسوة الاحتلال وحصاره الخانق مما ولد احتقاناً كبيراً في جميع فئاته بسبب الاضطهاد المركب والناجم عن الاحتلال العنصري وإفرازاته ورضوخ السلطة الفلسطينية بقيادة أبو مازن لإسرائيل في كل قراراتها وسياساتها (بما فيها قراره الأخير بإسقاط حق العودة) الأمر الذي سيرجح الانفجار الشعبي. !!

***

(3) من المؤكد أن هذه الأوضاع المعيشية الصعبة ستولد انفجاراً شعبياً واسعاً في مجمل الأراضي الفلسطينية، ولكن هل هو كاف لإحداث الانتفاضة الثالثة، لأن الانتفاضات الكبرى لهذا الشعب المعلم، شعبنا الفلسطيني، دائماً ما ترتبط صعوداً وانفجاراً بأسباب سياسية واستراتيجية وإقليمية مواتية ؟ فحسب أن ما يجرى الآن في فلسطين قد يدفع في هذا الاتجاه، حيث مسار التسوية البائس الذي أوجده اتفاق أوسلو 1993، والذي أضاع 78٪ من أرض فلسطين، وجعل من الـ 22٪ الباقية موضوعاً للتفاوض، فضلاً عن إسقاطه لـ 12 مادة من الميثاق الوطني الفلسطيني في مقدمتها إسقاط حق العودة والكفاح المسلح، مع الاعتراف الكامل بإسرائيل، هذا المسار البائس أوصل القضية إلى طريق مسدود رغم محاولات أبو مازن اليائسة لفتحه ؛ ورغم كل المحاولات التي تقوم بها قطر ودول الخليج عبر المال مع حماس عبر وسائل عدة منها استخدام (إخوان مصر) لجر حماس وبعض الفصائل لطريق التسويات السياسية بعيداً عن المقاومة، رغم كل هذا سيتولد انفجاراً واسعاً، سيتخذ من حيث الشكل والأداء ـ في تقديرنا ـ سلسلة من العمليات المسلحة ضد الاحتلال، الذي لن يكفّ عن استفزاز الفصائل والقوى الفلسطينية التي وقعت على اتفاقات المصالحة في القاهرة والدوحة وغيرها من مدن على علاقة وطيدة ـ وبعد الثورات الجديدة اليوم للأسف ـ بواشنطن، ثم يعقب ذلك اندلاع تحركات ومظاهرات شعبية سلمية، وعصيان مدني، تغذيه المساندة

العربية الشعبية على الحدود، طبعاً تواجه هذه الانتفاضة ـ إن وقعت ـ بمقاومة شرسة على محورين، المحور الأول : هو العدو الصهيونى ومن تبقى عميلاً لواشنطن من الأنظمة العربية (تحديداً الخليجية) والتي ستضرب وتضغط وتحاصر اقتصادياً حتى تسكت هذه الانتفاضة، والمحور الثاني: هو محور الفريق الإسرائيلي داخل السلطة الفلسطينية وداخل بعض الفصائل للأسف (وهو فصيل ظهر بعد ثورات الربيع العربى وصار وجهه مكشوفاً في الدعوة للسلام مع العدو الصهيوني وتأجيل العمل المسلح)، والذي سيحاول إجهاض الانتفاضة بوسائل سياسية ونفسية عديدة، مارسها من قبل أبو مازن ومحمد دحلان ومن لفّ لفّهم ممن أدمن طريق المفاوضات والتسوية البائس، ولم يصل إلى نتيجة تذكر، هذا الفريق سيحاول أن يجهض الانتفاضة القادمة ليحافظ على مكتسباته الصغيرة التى تحققت بفعل الاحتلال، وسيبيع الوهم مجدداً للشعب الفلسطيني حتى لا تنطلق شرارة هذه الانتفاضة التي نحسب أن نُذُرَها تلوح في الأفق الفلسطيني فقط هي تحتاج إلى من يتلقى إشاراتها من القوى والقيادات المناضلة، وهنا تأتى مسؤولية قوى المقاومة الفلسطينية الرئيسية : حماس والجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية وغيرها من قوى المقاومة مع الأسرى المجاهدين في سجون العدو.. إنها مسؤولية التقاط شرارة الثورة أو الانتفاضة الثالثة، وتفعيلها حتى يندلع الحريق المنتظر، لتحرير فلسطين .. كل فلسطين، فهل يفعلون ؟ وهل تُغلب (حماس) باعتبارها الفصيل المقاوم الأكبر، اعتبارات الوطن، والثورة، على اعتبارات السلطة، والحكم والمجلس التشريعي، والانتماء الإخواني الدولي الذي يلعب مع واشنطن الآن في القاهرة دوراً ـ للأسف ـ شبيهاً إلى حد كبير بدور مبارك في القضية الفلسطينية ؟. !

خلاصة القول : إن مستقبل فلسطين (القضية والوطن) في الحراك الواسع الذي أنتجته ثورات ما سمى بالربيع العربي، يحتاج إلى إدراك أن الحرية لن تتحقق سوى بالمقاومة، وليس عبر المفاوضات والاتفاقات القائمة على الإجبار والقهر (مثل كامب ديفيد ووادي عربة وأوسلو) والتي كانت نتيجتها صفراً كبيراً ويأساً وهزيمة أكبر، ونحسب أن أي رهان على غير خيار المقاومة لن يجدي، وسيزيد من تفتيت الوطن والمقاومين . هكذا علمنا الدرس الفلسطيني الطويل منذ أكثر من مائة عام، وهكذا ينبغي أن تقرأه كل الثورات العربية الحقيقي منها والزائف، ففلسطين هي أول سطر في قصة الثورات، وهى منتهاها وبدونها لا ثورات حقيقية . فالخبز لا ينفصل عن الحرية والكرامة . والله أعلم.

❑❑

أسس التحول المجتمعي إلى الديمقراطية ومسألة المشاركة السياسية

□ د. خلف الجراد

أولا: مدارس التحول المجتمعي نحو الديمقراطية

توجد في الأدبيات السياسية والاجتماعية المعاصرة ثلاث مدارس أو مقاربات لتفسير آليات التحول المجتمعي إلى الديمقراطية، وهي: مدرسة التحديث، والمدرسة البنيوية،والمدرسة الانتقالية(1).

تتصف مدرسة التحديث بالتركيز على نشوء ولاء وطني يترافق مع وجود قبول للمؤسسات السياسية القائمة،والتسليم بشرعيتها في اتخاذ القرارات الحاسمة.

وتركز المدرسة التحديثية على مسألة زيادة وتيرة النمو الاقتصادي، الذي يؤدي إلى ارتفاع الدخل الفردي للمواطنين، مفضياً بالتالي إلى توسيع قاعدة الطبقة الوسطى. وتستخدم هذه المدرسة مؤشرات محددة كمتغيرات لا تلبث أن تنتظم في عملية متصاعدة تساعد على ولادة الديمقراطية أو تثبيتها وتعزيزها. وتشمل هذه المؤشرات دخل الفرد، ونسبة الأمية، وانتشار التعليم، وأعداد خريجي الجامعات، والحراك الاجتماعي، وتزايد استخدام المواد الاستهلاكية الحديثة، ووسائل الاتصال، والحريات الإعلامية...إلخ.

وبالمقابل، فإن المدرسة البنيوية تنطلق من مقاربة قائمة على دراسة العلاقة والتفاعل بين ملاك الأرض الكبار والفلاحين والبرجوازية والدولة، وكيفية تبدل هذه العلاقة استجابة لدينامية التطور الاقتصادي الحديث في المجتمع.

وتركز هذه المدرسة، تبعاً لذلك، على التشكيلات الطبقية، والبنى الاجتماعية والاقتصادية والتطور التاريخي لهذه وتلك في إطار علاقات القوى العالمية وتوازناتها، وتتقصى بالتحليل على نحو خاص العلاقات الداخلية المتغيرة والمتبدلة بين البنى الاجتماعية، وسلطة الدولة وبروز علاقات الإنتاج الرأسمالية.

وهكذا يسعى كل الفاعلين الاجتماعيين، ووفقاً لمصالحهم الاقتصادية، واستجابة لمحددات بنيوية إلى رسم استراتيجية تتيح اكتساب السلطة السياسية.

وتفصح الديمقراطية عن بداية ظهورها مع تحقق نوع من توازن القوى كمحصلة لهذه الصراعات الاجتماعية، وانسجاماً مع صعود الطبقة الوسطى التي تفرض سيطرتها وعقيدتها السياسية وإيديولوجيتها الفكرية.

أما إذا غابت الطبقة الوسطى في خضم هذه الصراعات، واستطاع الإقطاعيون وفئة الرأسمالية الطفيلية والبرجوازية الجديدة، أن يحددوا مسار الصراعات الاجتماعية، فإن من شبه المؤكد أن تواظب مؤسسات الدولة على تركيز نظام حكم لا يمت بصلة إلى العدالة الاجتماعية والبناء الديمقراطي.

أما المدرسة الانتقالية (The Transition School)، فهي تولي اهتماماً مركزياً للنخب السياسية، ولعملية نشوء فئات محافظة (أو متشددة) في قلب هذه النخب مقابل فئات أخرى إصلاحية (أو معتدلة)، وكيفية إدارة الصراع الذي تضطلع به فئة ما في حلبة الصراع السياسي. فإذا قررت قوى المعارضة مثلاً التعاون مع الإصلاحيين والمعتدلين داخل السلطة الحاكمة، فإنها ستساهم في الإنتقال المنظم نحو ديمقراطية توافقية هادئة وواقعية.وبالعكس فإذا ما أصرت قوى المعارضة على الأطروحات الأقصوية المتطرفة (وإن كان ذلك باسم الانتقال الديمقراطي)، ورفضت التعاون والتنسيق مع الفئات الإصلاحية والمعتدلة في السلطة والشرائح الاجتماعية والطبقية المتحالفة معها، فإنها لن تنجح في تحقيق أي من أهدافها، وفي مقدمتها نقل المجتمع والدولة إلى الفضاء الديمقراطي المنشود.

وهكذا فإن هذه المدرسة تؤكد على دور الفعل البشري، وكيفية اتخاذ القرارات والتعامل مع الخيارات المتاحة، مشددة في الوقت نفسه على أهمية الثقافة السياسية المشبعة بروح الانفتاح والتسامح وقبول الاختلاف، والاحتكام إلى القانون، والإيمان بالتغيير السلمي، وضرورة الحفاظ على الوحدة الوطنية.

علاوة على ذلك تتميز المدرسة الانتقالية، في تعيين الأسلوب الدقيق الذي يحدد العبور من مرحلة إلى أخرى، فثمة إبراز للتمايز الواضح بين الانتقال الأولي إلى الديمقراطية وبين كيفية تعزيز الديمقراطية.

وفي رأي أنصار هذه المدرسة فإنه بدلاً من دراسة العوامل العامة التي تتيح المجال أو تمهد الطريق أمام نشوء المؤسسات الديمقراطية، لابد من تحديد يقوم على دراسة كيفية خروج الديمقراطية إلى الوجود في المقام الأول، أي دراسة آليات الانتقال الديمقراطي، بدل الشروط التي تسبق هذا الانتقال.

وفي هذا السياق، عمد روستو إلى تبني المقاربة التاريخية، التي تعقد مقارنات بين عدد من البلدان في تطورها الشامل، حيث تبين له، أن الانتقال المنظم إلى دولة المؤسسات الديمقراطية، يمر عبر أربع مراحل أو طرق(2):

- **المرحلة الأولى**: تتركز على نشوء اتفاق عام حول تحديد الهوية الوطنية، وشبه إجماع بقبول الحدود السياسية للبلد المعني.

- **المرحلة الثانية**: بروز صراع عنيف أو سلمي بين شرائح اجتماعية أو طبقات أو فئات داخل الكيان السياسي الجديد، بين الصناعيين مثلاً وملاك الأراضي، أو الطبقة الوسطى والفئة الحاكمة.وقد يؤدي هذا الصراع إلى انتصار كاسح لشريحة معينة، ما يغلق الباب أمام التقدم المنظم والهادئ نحو الديمقراطية أو ينتهي بخلق توازن اجتماعي جديد.

-**المرحلة الثالثة**: إذا انتهى الصراع إلى توازن سياسي اجتماعي سالب بسبب أن ميزان القوى غير محسوم لصالح فئة ضد الأخرى، فعندئذ يرتدي القرار السياسي في هذه اللحظة التاريخية أهمية قصوى. حيث تبدأ أطراف الصراع في ظل ميزان القوى غير المحسوم إلى عقد الصفقات والتسويات، والتوصل إلى حلول وسطى، وتتبنى قواعد اللعبة الديمقراطية، التي تضمن لكل طرف حصة ما في النظام السياسي ومؤسسات الدولة المختلفة، وعادة ما يكون هذا القرار قائماً على حسابات عقلانية وعملية للخسائر والأرباح.

-**في المرحلة الرابعة** يظل مستقبل الانتقال أو التحول إلى الديمقراطية متأرجحاً، إذ أن عقد الصفقات والحلول الوسطى قد يأتي نتيجة ضغوط قسرية ترى بعض الأطراف ضرورة الخضوع لها والتكيف معها مؤقتاً وليس نتيجة قناعة نهائية لتبني الديمقراطية كحل وطني مفضل، ويمكن للقواعد الديمقراطية التي قادت إلى الحل الوسط أو التي تبلورت نتيجة له أن تتحول تدريجياً إلى ممارسة يومية وتصبح عرفاً اجتماعياً.

وإذا ما استمر الخضوع لهذه القواعد إلى أجل يتيح حلول نخبة جديدة محل النخبة القديمة فإن الديمقراطية تعبر تجربتها الأولى وتنتقل إلى تعزيز وجودها في المجتمع.

وبكلمات أخرى فإن العمليات السياسية التاريخية المتميزة بصراع اجتماعي مفتوح حول مسائل أساسية قد تقود في بعض الأحيان إلى تبني الديمقراطية كأداة لإدارة الصراع الاجتماعي سلمياً والإشراف على تطوره المنتظم.

وهكذا تكون الديمقراطية نتاجاً لصراع الإرادات الاجتماعية المتمثلة في نخب سياسية ذات وعي عميق بمصالحها بعيدة المدى.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المقاربة صاغها دانكورت روستو (Dankwart Rustow) عام 1970 و بادر عدد من الباحثين والمفكرين بتطويرها في العقود الأربعة الأخيرة، وفي مقدمتهم أودونول (O,Donnel) وشين (Shain) و لينز (Linz).

وقد ركز هؤلاء على المرحلة الانتقالية، التي لاتقود تلقائياً إلى الدمقرطة (Democratization)، حيث أنها قد تتعرض للإجهاض ويعود الصراع مجدداً. إذ أنه "ما إن ترتخي قبضة النظام حتى تبدأ فئات سياسية متعددة بالانخراط في سياق المواجهة معه ...ويضم النظام عادة متشددين ومتنورين، ونجد في ساحة المعارضة الانتهازيين،والمعتدلين والمتطرفين.وتتوقف المحصلة على نوعية العلاقة التي تنشأ بين فئة وأخرى من هذه الفئات.فإذا حدث تحالف بين متنوري السلطة والمعتدلين من قوى المعارضة، فإن الانتقال إلى الديمقراطية يصبح أكثر سهولة"(3).

ويشير الباحث يوسف شويري في هذا السياق إلى أن انقسام النخبة الحاكمة بين فئة تدعو إلى الإصلاح والانفتاح، كأداة قادرة على تأمين الانتقال السلمي والاحتفاظ بموقعها في السلطة، وفئة أخرى ترى أن التشدد في رفض أي مطلب، والتصلب في وجه المعارضة، أصبح ظاهرة بارزة في عدد من الدول العربية في الوقت الراهن، حيث أن الفئة الإصلاحية تطمح في الغالب الأعم إلى عقد تحالف مؤقت أو ثابت مع القوى الاجتماعية الجديدة ذات التطلعات الديمقراطية، في حين تتوخى الفئة المتصلبة، واعتقاداً منها بإمكانية تلافي سقوط النظام ككل، المضي في الصدام إلى حدّه الأقصى (4).

ثانياً ـ العوامل المعهدة لعملية الانتقال الديمقراطي

تشير مؤلفات ودراسات غابرييل ألموند (Gabriel Almond) وسيدني فيربا (Sidney Verba) وأليكس إنكيليس (Alex Inkeles) وديفيد سميث(David H.Smith) إلى ضرورة توفير القيم والثقافة السياسية كعامل رئيس يجب أن يسبق عملية الانتقال الديمقراطي، ويمهد لها، مشيرين بصفة خاصة إلى أهمية تعميم ثقافة الاعتدال والتسامح وحق الاختلاف والمشاركة السياسية، بينما يضع آخرون، مثل سايمور مارتن ليبسيت (Seymour Martin Lipset) ورونالد انجلهارت (Roland Ingelhart) وغيرهما، مستوى الرخاء الاقتصادي كشرط آخر يصاحب عملية الانتقال.وفي الوقت نفسه يؤكد كثير من الباحثين،مثل

روبرت داهل (Robert Dahel)، ودانكورت روستو (Dankwart Rustow)، وأرند ليبهارت(Arend Liphart)، على أهمية وضرورة وجود نخبة سياسية مناضلة من أجل الديمقراطية، كعامل حاسم في عملية الانتقال الديمقراطي(5).

من ناحيته، يرى الباحث اسماعيل الشطي أن الديمقراطية التي نناقش الانتقال إليها ليست نهجاً تمارسه مجموعة لإدارة الخلاف بينها، إنما هي نظام حكم (Governance System) يقوم على أسس العدالة والمساواة والحرية، ويحقق مبادئ مثل فصل السلطات، واستقلال القضاء، والحريات السياسية، ويدعم مؤسسات المجتمع المدني، ويضمن حقوقاً سياسية لكافة المواطنين البالغين،ويوفر التعددية السياسية وتداول السلطة. وهذا النظام بهذا التحديد هو أحد إفرازات الدولة القطرية المعاصرة ونتاج الرأسمالية السائدة، وليس بالضرورة صالحاً لنموذج آخر من الدول(6).

ولكن إذا كانت الثقافة السياسية كما يقول لاري دايموند(Larry Diamond) "ليست مجرد إرث من الماضي لشعب ما، بل بنية جيولوجية ذات ترسبات من عدة مراحل وأحداث تاريخية"(7)، فإن الحديث عن الانتقال إلى الديمقراطية يبدو شائكاً في ظل مزيج من ثقافتين إحداهما (الثقافة الإسلامية)عميقة الجذور تنتمي إلى العصر الوسيط، والأخرى حديثة وافدة (الثقافة الغربية)تشكل قشرة رقيقة في العقل المسلم وتواجه تحديات الإحلال والاستبدال.

ولا يقتصر الأمر في الوطن العربي على تحديات الثقافة السياسية، بل إن بعض مناطقه مازالت تواجه تحديات التكوين الحضري، كما يؤكد الباحث محمد جابر الأنصاري(8)، إذ أن نسبة سكان البوادي والأرياف تشكل الرقم الأكبر في البلدان العربية، الأمر الذي يضع تحديات محو الأمية الأبجدية وثقافة التحضر في مرتبة قبل الحديث عن الدولة ومؤسساتها العصرية وطرق الانتقال إلى الديمقراطية.

ويؤكد الباحث سليمان الشطي أنه قلما تتم عملية الانتقال إلى الديمقراطية دون مقدمات ودون وجود عوامل تمهد للتحول إلى الديمقراطية، وهي كالتالي (9):

أ- الثقافة السياسية

يرى معظم الباحثين أن الثقافة السياسية شرط أساسي يسبق الدعوة للديمقراطية، وإذا كان صعباً تحقيق هذا الشرط على المستوى الجماهيري فليس صعباً تحقيقه على مستوى النخب.وهذه الثقافة يصفها دايموند بأنها ذرائعية (براغماتية)، حيث تعزز الانفتاح الفكري وتسهل المساومة والتسوية وتكبح دور الإيديولوجيا في العمل السياسي، وخطر الاستقطاب النزاعي. وهي كذلك مدنية، حيث تكرس الثقة الاجتماعية والحس التعاوني والالتزامات الرئيسة بالنظام والأمة والمجتمع، وتشكل روابط عمودية من النخب وجماهيرها ،وهي كذلك متغيرة، حيث تتأثر بالتطور الاقتصادي والحراك الاجتماعي والمدني، والممارسة المؤسساتية، والتجربة التاريخية، والانتشار الدولتي.

كما تصنف عناصر هذه الثقافة إلى أنماط ثلاثة: توجيه معرفي يشتمل على معرفة النظام

السياسي والمعتقدات الخاصة به، وتوجيه عاطفي يتضمن إثارة العواطف حول النظام السياسي،وتوجيه قيمي يتضمن التزامات بالقيم والأحكام السياسية المتعلقة بأداء النظام السياسي،ومدى صلته بهذه القيم، ورغم أن كثيرين من جيل الباحثين في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي قلل من أهمية هذا العامل في عملية الانتقال الديمقراطي، إلا أن الأجيال اللاحقة من الباحثين في هذا المجال وجدت في موضوع الثقافة السياسية عنصراً جوهرياً، وبخاصة بعد تجارب الدول النامية والمعسكر الاشتراكي.

ب ـ نخبة مناضلة: يرى دانكورت روستو أن الديمقراطية تبدأ عندما تقرر فئة صغيرة نسبياً (من النخبويين) في فترات زمنية أو مراحل تاريخية، شهدت تغيراً أساسياً، بقبول التعدد داخل الوحدة، وخوض صراعاتها سلمياً، في إطار قوانين وآليات ديمقراطية. ويأتي هذا الاختيار ذرائعياً (براغماتياً) لأن أعضاء النخبة المعنية يدركون أن ثمن محاولة إخضاع منافسيهم السياسيين يفوق كلفة التسامح معهم.

ويرى باحثون كثيرون أن بروز تلك النخبة ذات الثقافة السياسية المشار إليها آنفاً، يغني عن عملية نقل هذه الثقافة إلى أوساط الجماهير.فهي قادرة على صناعة الرأي العام والتأثير على الجماهير لصالح مطالبهم الديمقراطية. غير أن بعض الباحثين يفترض وجود ثلاثة أنماط من النخب:نخب غير موحدة، ونخب موحدة أيديولوجياً،ونخب موحدة بالتراضي والتوافق. فمايكل بيرتون(Michal Burton) وجون.هيغلي (J.Higley)

يؤكدان أن النخب الموحدة بالتراضي والتوافق هي وحدها القادرة على أن تنشئ نظاماً مستقراً قابلاً للتطور نحو ديمقراطية حديثة.

ج ـ كما يرى إسماعيل الشطي مثل لورنس هوايتيهيد ()وبرهان غليون، أن دعم الدول الغربية ذات التجربة الديمقراطية الطويلة، أمر مطلوب في عملية الانتقال الديمقراطي "كدعم الولايات المتحدة الأمريكية لدول أمريكا اللاتينية أو كدعم الاتحاد الأوروبي لدول المجموعة السوفياتية السابقة، واحتضانها اقتصادياً وسياسياً"(10).

ويشير الشطي في معرض تأكيده على أهمية عامل "الدعم الخارجي" إلى ما حصل إبان تحول كثير من دول أوروبا الشرقية إلى الديمقراطية، إذ قام الإعلام الخارجي -من فضائيات وصحافة وإنترنت ودراما سينمائية - بدور أساسي "في زعزعة الحكم التسلطي، وتعزيز الثقة بالحركة المطالبة بالديمقراطية"، كما أدى الدعم الاقتصادي، الذي تلقته تلك الدول من العالم الغربي دوراً حاسماً في تجاوز أعباء الانتقال من الاشتراكية إلى الرأسمالية.ولم يقتصر هذا الدعم على مساعدة الانتقال إلى الديمقراطية، بل ساهم في تقرير مصير بعض الشعوب أو إنقاذها من استبداد شعوب أخرى، مثلما حصل في تيمور الشرقية والبوسنة والهرسك وكوسوفو ومقدونيا وغيرها.

ومع ذلك فإن إسماعيل الشطي يعترف بأنه " رغم الدور الناجح الذي لعبه هذا الدعم في مناطق

كثيرة من العالم إلا أنه لم يكتب له النجاح في كل مرة، فقد أخفق هذا العامل في دعم الحركة المطالبة بالديمقراطية في الصين في العقد الماضي"(11).

وبالمقابل، فإننا نرى مع الغالبية العظمى من الباحثين والمفكرين والمحللين السياسيين أن الاعتماد على "الدعم الخارجي"لإرساء أسس الانتقال الناجح إلى الديمقراطية، إنما يشكل ذريعة أو مسوغاً مفضوحاً للتبعية والارتماء في أحضان القوى الأجنبية والاستعمارية. فالثمن المباشر لهذه العلاقة غير الشرعية وغير الوطنية مع الدول الأجنبية الطامعة، يتمثل في فقدان وتلاشي صدقية قوى المعارضة اللاهثة وراء هذا "الدعم الخارجي"بأشكاله المختلفة، وانكشاف ذيليتها ومحدودية أفقها وسقوطها الحتمي فكرياً وقيمياً وسياسياً ووطنياً.

وفي هذا الشأن، المتصل بالتعاون مع الأجنبي يقول المفكر العربي عبدالإله بلقزيز:إن الإستتباع لنظام أجنبي معاد بات يشكل –اليوم - ظاهرة جديدة خطيرة تسم بعضاً من هذه المعارضة. والمثال الأصرح لتعاون بعض أحزاب المعارضة مع الأجنبي هو مثال قسم من المعارضة العراقية، ونظير لها في المعارضتين السودانية والليبية (والسورية اليوم/خ.ج)، وارتباطها المفضوح مع المخابرات الأمريكية والبريطانية (والفرنسية والألمانية والإسرائيلية والتركية والسعودية والقطرية/خ.ج).ويكفي أن هذه "المعارضة" لم تقتصر على التسويغ للتعامل مع الشيطان -المخابرات الأجنبية والمعادية - ولاتقديم الخدمات"والسخرة" السياسية للعدوان الخارجي على بلدانها وحسب، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك إلى حيث طالبت الدول المعادية ودول الجوار الإقليمي والعالم كله بتشديد خناق الحصار على شعوبها وبتدمير البنى التحتية والخدمية والنقل الجوي والاتصالات والطاقة والدواء والغذاء "لإسقاط النظام"، الذي تختلف معه سياسياً، أي أنها عملت وتعمل على تدمير كيان الدولة الوطنية القائمة وبنية المجتمع بأكملها،بذريعة "التعجيل بخنق النظام واسقاطه"(12).

ويؤكد بلقزيز أن هذه "الاستراتيجية" (الاستتباعية -التدميرية) تشكل مثالاً نادراً –وربما غير مسبوق في التاريخ - لمعارضة لا تضع نفسها في مواجهة نظامها السياسي فحسب، بل في مواجهة شعب"ها" ايضاً. وإذ تدعي هذه المعارضة أن قضيتها هي مواجهة الاستبداد السياسي، وإقامة النظام الديمقراطي، وأنها لا تجد -في سبيل ذلك - حرجاً في أمر "التعاون"مع الأجنبي مادام يمكن لهذا التعاون أن يوفر لها وسائل فعالة لتحقيق أهدافها، ومنها التمويل من الكونغرس الأمريكي، والدعم الاستخباراتي والأمني من أجهزة العدوان على بلدانها.وبقطع النظر عن "الوظيفة" الموكولة إليها من قبل المخابرات الدولية والإقليمية وبعض فروعها المحسوبة زوراً وبهتاناً على هذه الأمة، فإن أزعومتها عن"نضالها الديمقراطي"، وعن حاجتها إلى التحالف مع الشيطان من أجل الوصول إلى السلطة، إنما تفضحهما الحقائق الأربع التالية (13):

الحقيقة الأولى: أن التحالف مع الأجنبي تحت أي عنوان، هو خيانة للشعب والأمة والوطن، وإقرار صريح بأن الولاء للعدو وليس للأمة أو الوطن. وهذا ما ينفي أكذوبة هذه "المعارضة" بأن

أولويتها السياسية هي الديمقراطية، ذلك أن صراع أية معارضة تحترم نفسها مع نظامها الحاكم ليس أقدس من صراعها الواجب مع العدو الخارجي، وبخاصة حينما يكون هذا العدو معتدياً بالحصار والتجويع الجماعي وبالقتل اليومي المسلح للأبرياء من أبناء شعبها.

الحقيقة الثانية: هي أن النضال الديمقراطي الوحيد، الذي يحمل هذا الإسم هو النضال الذي يكتنه مضموناً وطنياً، بل الذي ينطلق من خلفية وطنية لا غبار عليها.

الحقيقة الثالثة: هي أن رهان هذه المعارضة على مساهمة العدو الخارجي في إسقاط النظام، من خلال العدوان العسكري وتشديد خناق الحصار على الشعب، إنما يسبغ الشرعية على تينك الجريمتين (العدوان والحصار)، ويسوغ لأعداء الوطن الحق في تقرير مصيره ومستقبله، بدلاً من حق شعبه وحده في تقرير مصيره بحرية واستقلال، استناداً إلى عقد وطني -اجتماعي داخلي بحت.

أما الحقيقة الرابعة، فهي أن هذه "الفصائل" المشار إليها من "المعارضة" تجافي في الطبيعة سائر أصناف المعارضات والأحزاب في التاريخ فإنها لا تأخذ شرعيتها من شعبها، وإنما من العلاقة مع الأعداء الخارجيين. وعليه، فهي في مقياس السياسة ليست معارضة، بل لها تسمية أخرى معروفة على مدى التاريخ، لدى شعوب العالم قاطبة.

ثالثاً- المشاركة السياسية

ثمة إجماع بين علماء السياسة والباحثين المتخصصين في قضايا ومشكلات التحول الاجتماعي والسياسي، على الأهمية القصوى للمشاركة السياسية في عملية التمهيد والانتقال التدريجي من بنية معينة في الحكم وإدارة شؤون السلطة والبلاد إلى بنية أخرى، تقوم على التعددية الشاملة سياسياً وحزبياً وإدارياً وثقافياً وإعلامياً، في سياق توافق وطني عام.

والواقع أن أزمة المشاركة السياسية تعد من أبرز الأزمات التي تواجه الأنظمة السياسية للدول النامية.فقد كانت ومازالت تشكل المصدر المباشر لتفشي حالة عدم الاستقرار السياسي بانعكاساتها السلبية على الحياة السياسية بشكل عام.

وإذا كانت هذه الأزمة ناجمة عن تزايد أعداد القوى السياسية الساعية للحكم، واتساع مجال تأثيرها في الحياة السياسية لهذه الدول، فإن العوامل النابعة من طبيعة العملية السياسية الجارية في أنظمتها السياسية تعد العامل الرئيس في نشوء هذه الأزمة أيضاً(14).

1-مفهوم المشاركة السياسية

المشاركة السياسية هي نشاط سياسي يرمز إلى مساهمة المواطنين ودورهم في إطار النظام السياسي.وتبعاً لتعريف صموئيل هنتغتون وجون نيلسون، فإن المشاركة السياسية تعني تحديداً ذلك النشاط الذي يقوم به المواطنون العاديون بقصد التأثير في عملية صنع القرار الحكومي، سواء أكان هذا النشاط فردياً أم جماعياً، منظماً أو عفوياً، متواصلاً أم منقطعاً، سلمياً أم عنيفاً، شرعياً أم غير شرعي، فعالاً أم غير فعال(15).

أما مايرون واينر، فإنه يرى أن المشاركة السياسية، تعني أي فعل طوعي، ناجحاً كان أم فاشلاً، منظماً أم غير منظم، عرضياً أم متواصلاً القصد منه التأثير في انتقاء السياسات العامة، وإدارة الشؤون العامة، واختيار القادة السياسيين على أي مستوى حكومي، محلياً كان أم على نطاق وطني(16).

وبدوره يؤكد الباحث عبد المنعم المشاط أن المشاركة السياسية شكل من أشكال الممارسة السياسية، تتعلق ببنية النظام السياسي وآليات عملياته المختلفة، حيث يكمن موقعها داخل النظام السياسي في المدخلات، سواء كانت لتقديم المساندة للسلطة القائمة أم للمعارضة، ولكنها تستهدف تغيير مخرجات النظام السياسي، بالصورة التي تلائم مطالب الأفراد والجماعات الذين يقدمون عليها (17).لكنه يشير في الوقت نفسه إلى أن المشاركة السياسية لا تقف في كثير من الأحيان عند حد مدخلات النظام السياسي، وإنما تتعدى ذلك إلى مرحلة تحويل المطالب، وبخاصة إذا وجد أفراد أو جماعات قريبة من تكوين المؤسسات ومن نطاق عملها(18).

وهكذا تتمحور المشاركة السياسية حول مساهمة المواطنين –دوراً أو تأثيراً - في العملية السياسية الجارية، في إطار النظام السياسي القائم.وفي الوقت الذي تتوقف فيه على إرادة المواطنين من حيث الإقدام عليها أو الإحجام عنها، فإنها تعتمد أيضاً على طبيعة النظام السياسي من حيث انفتاحه أو انغلاقه على مساهمة المواطنين والجماعات والقوى السياسية والاجتماعية المختلفة في المجتمع، ومدى توفير القنوات والآليات، التي يمكن من خلالها ممارسة عملية المشاركة السياسية بصورة واقعية ومؤثرة.

ولا تبتعد رؤية جلال عبد الله معوض عن مقاربة حسين علوان البيج في أن المشاركة السياسية تعني في أوسع معانيها حق المواطن في أن يؤدي دوراً معيناً في عملية صنع القرارات السياسية، لكنها في أضيق معانيها تعني حق ذلك المواطن في أن يراقب "هذه القرارات بالتقويم والضبط عقب صدورها من جانب الحاكم"(19).

ويفرق معوض بين المشاركة بهذا المعنى وبين الاهتمام من ناحية والتفاعل أو التجاوب من ناحية ثانية.فالاهتمام يعني عدم السلبية، بحيث يشعر المواطن العادي أن الدولة والشؤون العامة والقرارات السياسية ترتبط بحياته ووجوده الذاتي تأثيراً وتأثراً.

وسواء أدى ذلك إلى استخدام حق معين في عملية اتخاذ القرار السياسي أم لا، فإن الاهتمام يظل مفهوماً مستقلاً عن المشاركة .أما التفاعل فإنه يعني التجاوب، بحيث ينسى المواطن ذاته في نطاق الوجود السياسي.هذا التفاعل يشكل حلقة تتوسط الاهتمام والمشاركة.فالاهتمام قد يؤدي إلى التفاعل، وكذلك المشاركة تفرضه(20).

من هذا المنطلق يمكن تحديد العلاقة بين المفاهيم الثلاثة السابقة على النحو التالي:الاهتمام حقيقة ذاتية تنبع من شخصية المواطن، أما المشاركة فإنها إجراء نظامي يسمح بها الهيكل

السياسي، في حين أن التفاعل يأتي نتيجة لأي منهما من حيث علاقة الفرد بالدولة(21).

وتختلف أشكال المشاركة السياسية من جانب المواطنين في الدولة، تبعاً لاختلاف الأنظمة السياسية، حيث تتوقف مستوياتها على طبيعة النسق السياسي وتتخذ أشكالها وفقاً لنمطه، لأن كل نسق يتضمن العديد من الأدوار، التي يؤديها الأفراد داخله، كالمواطن الذي يتوقف دوره على الإدلاء بصوته في الانتخابات العامة، والسياسي المحترف وأعضاء الحزب النشيطين، حيث تنتظم العلاقة بينهم على أساس الترتيب الهرمي في شغل الأدوار، فهي علاقة تنظيمية تتحدد وفقاً لشكل المشاركة ومداها، أي الدور الذي يقوم به المشارك(22).

مما تقدم يتبين أن المشاركة السياسية في الدولة، تعني أن المجتمع بتكويناته المختلفة، يمتلك القدرة على التأثير في اتخاذ القرارات ذات العلاقة المباشرة، بحياته ومصيره.

ويتراوح تأثير المجتمع المدني على الدولة من حالة إلى أخرى.ففي حده الأقصى يصل تأثير هذا المجتمع إلى عملية صياغة الدولة نفسها، واختيار النظام السياسي، وانتخاب الحكومة ومحاسبتها وتغييرها بصورة دورية مقننة.أما في حده الأدنى، فيكون تأثير المجتمع المدني شبه معدوم، ويقتصر الأمر على السخط الصامت، أو لجوء بعض المجموعات المناهضة للنظام إلى العنف والتدمير والاغتيالات، والخروج على قوانين الدولة، وعدم الالتزام بكل ما يصدر عنها، وصولاً إلى الخروج على المجتمع نفسه.

ولكن حينما نتحدث بشأن المجتمع المدني، فنحن لا نتحدث بخصوص كيان واحد متجانس ومتسق، يعبر عن نفسه بصوت واحد تجاه الدولة، فالمجتمع المدني هو تكوينات مختلفة، ومتنافسة، وفي بعض الأحيان متناقضة في رؤاها ومصالحها ومواقفها، بقدر ماهي متفاوتة أيضاً في مستويات وعيها وتنظيمها وحجمها ومواردها المادية والمعنوية، وهي في هذا المعنى نادراً ما تكون كلها وفي الوقت نفسه، في موقف رضا كامل أو موقف رفض كامل للدولة وسياساتها.ففي الغالب الأعم يكون هناك تكوين اجتماعي واحد، على الأقل، من تكوينات المجتمع المدني الرئيسة على وفاق كامل وتحالف وثيق مع مؤسسة الدولة، بل وقد يكون هذا التكوين الأساسي هو المهيمن على مؤسسات الدولة.ولكن الذي يفرق ويميز بين مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع المدني في النهاية، هو أن هذه الأخيرة تنشأ طوعية، أهلية، اختيارية، لتحقيق أهداف عامة أو مصالح خاصة للمنخرطين فيها. وتتراوح مؤسسات المجتمع المدني في درجات ومستويات "تنظيمها"و"رسميتها"، ولكنها تظل في كل الأحوال مستقلة عن الحكومة.وتشمل مؤسسات المجتمع المدني، الأحزاب السياسية، والنقابات المهنية، والاتحادات، والروابط والجمعيات المهنية والثقافية والفكرية (23).

وتؤثر مؤسسات المجتمع المدني في الدولة عادة من خلال المجالس النيابية أو مجالس الشورى، أو الصحافة ووسائل الإعلام، وجماعات الضغط والمصالح المنظمة (Lobbies)، كما من خلال شبكات الاتصال غير الرسمية وغير المعلنة، كالجماعات القرابية وجماعات الزملاء والأصدقاء.

وقد تمارس مؤسسات المجتمع المدني تأثيرها على الدولة من خلال اللجوء إلى القضاء أو التظاهر والاعتصام والمقاطعة، أو أخيراً -وهو الأسوأ - باللجوء إلى العنف المنظم أو غير المنظم.ولكن المعنى الأكثر شيوعاً لمفهوم المشاركة السياسية، هو قدرة المواطنين على التعبير والتأثير العلني الحرّ في اتخاذ القرارات، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، أم من خلال اختيار ممثلين لهم يقومون بهذه المهمة. ولا شك أن العلاقة السوية بين المجتمع والدولة، تنطوي على قدر كبير من المشاركة السياسية للمواطنين وتنظيماتهم(غير الحكومية)في اتخاذ القرار. أي أن المشاركة السياسية هي مؤشر تفاعلي لصحة العلاقة بين المجتمع والدولة.فبقدر ما تكون الدولة تعبيراً أمنياً عن مجتمعها، بقدر ما تزداد المشاركة السياسية السلمية المنظمة لأفراد المجتمع في الشؤون العامة، سواء بصفتهم الفردية أم الجماعية، من خلال مؤسساتهم الطوعية(24).

وتعد المشاركة السياسية من سمات المجتمعات والأنظمة السياسية الحديثة والمتطورة.وتتمثل أهميتها وضرورتها من أجل احتواء التشنجات التي تتولد من عملية التعبئة والتحولات الاجتماعية المرافقة لإجراءات التحديث السياسي والتنمية السياسية والاقتصادية.وهو ما يجعل منها عملية شاملة، بمعنى أنها عملية متعددة الأبعاد.فلا تنحصر أبعادها في حجم الضغط السياسي عن رغبة القوى الاجتماعية المتعددة الساعية إليها وإنما في مدى استجابة النخب السياسية الحاكمة لمشاركة هذه القوى ونطاق مشاركتها، ومن ثم في القدرات المؤسسية للنظم اللازمة لاستيعاب هذه القوى وحفظ الاستقرار السياسي وإدامته أيضاً.

وفي هذا السياق يؤكد الباحث كمال المنوفي أن المشاركة السياسية كنشاط سياسي يعبرعن إرادة المواطنين الذاتية ورغبتهم الشخصية في دخول ميدان العمل السياسي والمساهمة في الحياة السياسية لبلدانهم، فهي أنشطة وفعاليات طوعية وإرادية(25).

وبرأي عدد كبير من الباحثين في الشؤون السياسية، فإن المشاركة السياسية تشكل المظهر الرئيس للنظام الديمقراطي، غير أن توسيع نطاقها دون التوسع بعملية المأسسة السياسية يحمل معه تهديداً خطيراً للاستقرار السياسي.ولاشك بأن عملية التعبئة الاجتماعية تعمل على رفع درجات الميل نحو المشاركة السياسية لدى القوى الاجتماعية، وتدفع بها باتجاه النظام السياسي من أجل التأثير فيه والحصول على مكانة أكبر في تطوره، ومن ثم على دور أوسع في الحياة السياسية، ما قد يؤدي إلى زعزعة الاستقرار السياسي، إذا ما عجز النظام عن استيعاب هذه القوى من خلال المؤسسات السياسية القائمة، أو تباطأ في بناء المؤسسات الجديدة.

فالاستقرار السياسي يرتكز على التناسب بين عمليتي المشاركة السياسية من جهة، والمأسسة السياسية من جهة ثانية.فلا يمكن ضمان الاستقرار السياسي إلا إذا تطورت المؤسسات السياسية بصورة تواكب التوسع السريع في المشاركة السياسية من أجل استيعاب القوى الاجتماعية، التي باتت

تهتم بالحياة السياسية وتشارك فيها، كي يستمر الاستقرار السياسي، الذي كان سائداً قبل قدوم هذه القوى إلى ساحة العمل السياسي ودخولها في إطار النظام السياسي(26).

وبالتالي، فإن عملية التعبئة للقوى الاجتماعية باتجاه المشاركة السياسية والانخراط بالنظام السياسي بكثافة متزايدة، تقتضي ضرورة بناء المؤسسات السياسية اللازمة لاستيعابها، ومن ثم استبعاد إمكانية لجوئها إلى العنف لفرض مشاركتها على النظام السياسي الحاكم، عن طريق القوة وتقويض الاستقرار السياسي.

فالتحديث السياسي، إذاً، يستلزم بالضرورة إجراء تحولات مهمة في مركز، أو مراكز السلطة في المجتمع، ما يعكس درجة المشاركة السياسية والاستيعاب الإيجابي الفعال للقوى السياسية والاجتماعية المنخرطة حديثاً في إدارة شؤون البلاد.

إن هذه المشاركة يمكن أن تتم في أطر ومستويات مختلفة، تقوم بدور الآليات المناسبة لرعاية المشاركة الشعبية في العملية السياسية.وهي مشاركة لابد من أن يسبقها بالضرورة زيادة فاعلية المؤسسات والأجهزة السياسية وتخصصها.

2ـ العلاقة التفاعلية بين المشاركة والعملية السياسية

عندما يجري الحديث حول المشاركة السياسية، فإنه يعني بالدرجة الأولى مساهمة المواطنين في العملية السياسية التي تجري في إطار النظام السياسي. وتنطلق هذه المقاربة من الربط الجدلي بين المشاركة السياسية والعملية السياسية، ولا سيما عملية صنع واتخاذ القرارات السياسية، كون القرارات السياسية تمثل المحور والناتج النهائي لأية عملية سياسية، سواء كان موضوعها يتعلق بقانون أو بإجراء أو بسياسة ما(27).

وبهذا المعنى تصبح العملية السياسية بمثابة القاعدة التي تنطلق منها كافة ممارسات النظام السياسي، فضلاً عن كونها القاعدة التي تعتمد عليها درجة نجاح النظام السياسي في إنجازه لوظائفه المختلفة(28).ولهذا تختلف العملية السياسية من ناحية تعقيدها ورشدها ودرجة شموليتها وسرعة تواترها وتحركها، من نظام سياسي إلى آخر، وذلك تبعاً لطبيعة النظام وطبيعة وظائفه وحجم العناصر الأساسية الداخلة في دائرة التفاعل لإنجاح العملية السياسية والتأثير في تشكيل نتائجها(29)، الأمر الذي ينعكس تلقائياً على طبيعة القرارات السياسية التي تصدر عنها.ويتأتى هذا الاختلاف من كون العملية السياسية تتطلب توافر عناصر معينة وتتباين الأنظمة السياسية في قدرتها على امتلاكها، حيث ينبغي أن تستكمل في العملية السياسية الشروط الآتية(30):

أ- وجود المؤسسات السياسية الرئيسة وخلق التكامل المؤسسي.

ب- رسوخ التقاليد العملية للعمل السياسي.

ج - تطور أساليب وأدوات العمل المستخدمة.

وتتمايز الأنظمة السياسية بعضها عن بعضها الآخر بطبيعة العملية السياسية الجارية ضمنها.وتعد الشروط المؤسسية للعملية السياسية ذات أهمية قصوى، كونها معيار التمييز بينها، فعلى قدر امتلاك المؤسسات والتكامل بينها تتوقف درجة ومستوى المشاركة السياسية.فهناك نمطان من العملية السياسية،هما العملية السياسية التي تتم عن طريق التفاعل المؤسسي، والعملية السياسية التي تتم عن طريق المؤسسات السلطوية.

وبحساب المحصلة النهائية،فإن النمط الأول يكون ذا طبيعة ديمقراطية باعتبار أن وجود المؤسسات الديمقراطية يوفر إمكانية المشاركة السياسية للمواطنين.أما النمط الثاني فيكون ذا طبيعة غير ديمقراطية (أو محافظة) باعتبار أن سيطرة المؤسسات السلطوية، تمنع أو تكبح إمكانية المشاركة السياسية للمواطنين.حيث أن ازدياد قبضة ونفوذ هذه المؤسسات يأتي بالنتيجة على حساب المؤسسات التمثيلية،فيترك أثره البالغ في مشاركة المواطنين في مجمل العملية السياسية.

وإذا كانت المشاركة السياسية تنطلق من إرادة المواطنين ووعيهم السياسي ورغبتهم القوية في المساهمة في العمل السياسي والحياة السياسية لبلدانهم،بوصفها أنشطة وفعاليات طوعية إرادية، فإن هذه المشاركة كممارسة سياسية ترتبط برؤية النخب السياسية الحاكمة لدور المواطنين.فالنخب الحاكمة تتباين في تعاملها مع مطالب المشاركة السياسية من جانب القوى الاجتماعية الساعية إليها، فبعضها تتقبلها وتهيئ لها كل المستلزمات الضرورية لممارستها، وبعضها الآخر تقرّ بهذه المطالب على نطاق محدود أو جزئي، بينما تميل نخب أخرى إلى معارضتها وقمعها ومصادرتها بشكل كامل.

وترتبط درجات المشاركة السياسية من ناحية أخرى بطبيعة البنى السياسية للأنظمة المعينة، ومدى ملاءمتها للنشاطات السياسية للمواطنين، ومدى انفتاحها على مساهمتهم الفعلية في العملية السياسية، أو بتعبير آخر بمدى توفر المؤسسات السياسية القادرة على استيعاب النشاطات السياسية للمواطنين.وفي المحصلة، فإن المشاركة السياسية إجراء نظامي يسمح به الهيكل السياسي للنظام القائم(31).

3ـ أزمة المشاركة السياسية في الوطن العربي وأبعادها

لقد أظهرت التجربة التي مرت بها الأقطار العربية المختلفة منذ قدر لها الاستقلال السياسي إلى وقتنا الراهن، أن المشاركة السياسية فيها انتهت من حيث الواقع إلى الإخفاق بدرجات متفاوتة،حيث فشلت النظم العربية المعاصرة في توسيع قاعدة المشاركة السياسية وتحقيق الديمقراطية الراسخة(32).

فالمعروف أن الأنظمة السياسية العربية، تعاني من عدة أزمات، من أبرزها أزمة المشاركة السياسية،التي يمكن تحديد أهم تجلياتها وأبعادها، وفق التالي (33):

1 - الاختلال في شرائح المجتمع السياسي:تقلص واضح في شرائح المشاركين والمهتمين، وتضخم ملحوظ في شرائح غير المهتمين(اللامبالين)والمتطرفين.

2 - مشاركة شكلية موسمية غير فعالة، تتجلى في الانتخابات غير النظيفة، وغياب المعارضة الحقيقية.

3 - مشاركة إجبارية متحكم فيها تأخذ شكل التعبئة، بغرض المساندة الشكلية للنظم الحاكمة، دون أن تعبر عن مشاركة حقيقية نابعة من اهتمام المواطنين بما يجري حولهم في المجتمع السياسي وإرادته، وقدرته على التأثير في ما يتخذ من قرارات.

وقد قسّم جلال عبد الله معوض شرائح المجتمع الغربي من حيث المشاركة السياسية، وما قد يرتبط بها من اهتمام وتفاعل، كالتالي(34):

-شريحة أولى تضم المشاركين، أي الأفراد الذين يمارسون حقوقهم السياسية، ويتصفون بالاهتمام بما يجري حولهم من أحداث ووقائع، ولديهم الشعور بالثقة بالذات والقدرة على التأثير في العملية السياسية.ويتسمون بالتفاعل والتجاوب.وهم أعضاء نشيطون في التنظيمات السياسية الوسيطة من أحزاب سياسية وجماعات مصالح (جماعات ضاغطة).

- شريحة ثانية تضم المهتمين، أو من يمكن وصفهم بالمتابعين.وهم مشاركون بالمعنى الضيق:التصويت في العملية الانتخابية، مناقشة الأحداث العامة والاهتمام بالتطورات السياسية.

- شريحة ثالثة تضم غيرالسياسيين وغير المهتمين، وهم من لاوعي لهم ولا اهتمام لديهم بما يجري حولهم من وقائع سياسية، إنهم من تعتصرهم مشكلات الحياة اليومية، وتتركز حياتهم حول الوقائع والأحداث غير السياسية.وعادة ما توصف هذه الشريحة من الأفراد بـ"اللاسياسيين"، وقد تتسع تلك الشريحة لتحتضن أيضاً أولئك الذين يسقطون فريسة للتغرب والضياع بأشكاله المختلفة.

- شريحة رابعة تضم المتطرفين السياسيين، أو من يعبر عنهم أحياناً بـ"الحركيين"أو "النشطاء".وهم تلك الشريحة من الأفراد الذين يقومون بالمظاهرات والإضرابات، وأعمال الشغب والتخريب والاغتيالات السياسية، واختطاف الشخصيات السياسية والعامة.

ويرجع معوض تضخم شريحة المتطرفين إلى طغيان عنصر الشباب على التكوين السكاني العربي، وما يتصف به الشباب عموماً من عاطفية وحركية وسرعة اندفاع وسهولة اشتعال، ورفض أي قيود تحد من حرية الحركة، وتزايد حدة التفاوت الاجتماعي –الاقتصادي أو ما يسمى بالحرمان النسبي، وضعف التنظيمات الوسيطة، التي كان يمكنها تأمين القنوات اللازمة لاستيعاب مطالب الجماعات والقوى الجديدة، بما فيها مطلب المشاركة، من دون أن تضطر هذه القوى والجماعات للالتجاء إلى العنف والخروج على أطر الشرعية القائمة.

أما تضخم الشريحة اللامبالية، فإنه يرجع إلى انتشار الأمية وانخفاض الوعي السياسي، وميل المواطن العادي في الوطن العربي لتحاشي السلطة وتجنبها، بالإضافة إلى عدم توافر الحد الأدنى للكفاف الاقتصادي.

في حين أن تقلص شريحتي المهتمين والمشاركين، يرجع ليس فقط إلى غياب المستلزمات المادية للمشاركة السياسية، ولكن أيضاً إلى عدم توافر حرية الرأي والتعبير، وحق تشكيل التنظيمات السياسية وحرية الانضمام إليها، وعدم ضمان حق المواطن في الحصول على المعلومات من مصادرها المختلفة(35).

وتتصف المشاركة السياسية في غالبية البلدان العربية بالشكلية وعدم الفاعلية.فالقرارات السياسية تتخذ بالفعل من قبل القيادات السياسية العليا، ثم تكون دعوة الجماهير للمشاركة –من خلال التصويت - في انتخابات واستفتاءات تخضع لصور كثيرة من التلاعب والتزوير من جانب السلطات الحاكمة.ومن هنا لايقوم المواطن العربي بدور حقيقي في عملية صنع القرارات، بما في ذلك اختيار حاكم الدولة وأعضاء المجالس النيابية والمحلية، بل عادة ما يجد ذلك المواطن نفسه خاضعاً لقرارات وسياسيات لم يسهم حقيقة في صنعها، ولا تعبرعن آماله ومطالبه. والملاحظ أن المشاركة السياسية في البلدان العربية ليست شكلية وغير فعالة فقط،ولكنها أيضاً "موسمية"، بمعنى أنها تقتصر على مستوى وطني عام أو محلي، أو استفتاء بخصوص مسألة وطنية أو قومية مهمة(36).

أما البعد الآخر لأزمة المشاركة السياسية في النظم العربية، فيتمثل بكون المشاركة فيها أقرب إلى التعبئة منها إلى المشاركة بالمعنى المحدد المتفق عليه، أي المشاركة كمبدأ سياسي وإجراء نظامي يشكلان جوهر الممارسة السياسية الديمقراطية.

إن إخفاق النظم السياسية العربية في توسيع قاعدة المشاركة السياسية وتحقيق الديمقراطية يرجع إلى شبكة معقدة من العوامل الاجتماعية -الاقتصادية والسياسية، ويمكن إبراز هذه العوامل على النحو التالي (37):

1 -التفاوت الاجتماعي –الاقتصادي الحاد، وعدم ضمان الحد الأدنى للكفاف الاقتصادي.
2 - انخفاض درجة الوعي السياسي نتيجة لانتشار الأمية،ونقص الخبرة،وغياب الحرية الإعلامية.
3 -ضعف المشاركة في المجالات الأخرى غير السياسية للحياة الاجتماعية.
4 -غياب، أو على الأقل ضعف الفئات والقوى الاجتماعية الوسطى.
5 -طغيان العنصر الشخصي على العملية السياسية،ومايرتبط بذلك من انعدام المؤسسية.
6 -ضعف التنظيمات الوسيطة (بين السلطة والمجتمع)من أحزاب سياسية وجماعات مصالح (جماعات الضغط).

4ـ الترابط بين المشاركة ووجود المؤسسات السياسية

يجمع الباحثون في الفكر السياسي على الترابط العضوي والجدلي بين حجم ومدى المشاركة السياسية ونطاقها وفعاليتها العملية والواقعية، ووجود المؤسسات السياسية، القادرة على استيعاب حركية المشاركة السياسية.وبناء على ذلك يلاحظ تباين الأنظمة السياسية، من حيث نطاق المشاركة السياسية المسموح به، تبعاً لتوافر المؤسسات وتنوعها، فضلاً عن قدراتها على استيعاب مطالب المشاركة السياسية للقوى الاجتماعية.ومن الطبيعي أن تكون الأنظمة السياسية التي تتميز بدرجة عالية من المأسسة السياسية قادرة على ضمان أعلى مستوى من المشاركة السياسية من جانب القوى الاجتماعية الساعية إليها، من الأنظمة التي تتميز بدرجة منخفضة من المأسسة السياسية.ومن هنا تأتي ضرورة التناسب بين درجتي المأسسة السياسية والمشاركة السياسية، فتوسع نطاق المشاركة السياسية يتوقف بدرجة كبيرة على نطاق المأسسة السياسية التي يتمتع بها المجتمع.

وإذا كانت مأسسة العملية السياسية تعني احتواء عملية صنع واتخاذ القرارات السياسية ضمن إطار المؤسسات السياسية،ما يسهل على النظام اكتساب قدر يعتد به من الشرعية السياسية، فإن التنظيم المؤسسي للعملية السياسية بقدر ما يعكس المبادئ والقيم الديمقراطية للممارسة السياسية يفيد في تحقيق خصائص عديدة منها (38):

- قانونية العملية السياسية، إذ تحكم المؤسسات وتنظم عملها شبكة معقدة ومحكمة من الضوابط والتوازنات، وتعمل وفقاً لأحكام محددة وأسس للتوظيف والتمويل وتقويم الأداء، وتخضع لمقاييس معروفة وعلنية للنجاح والفشل،وضوابط دقيقة للمراقبة والمحاسبة،وقواعد للتنسيق بينها.
- عقلانية العملية السياسية، حيث يلغي العمل المؤسسي الاعتبارات الشخصية ويعتمد اعتبارات المواطنة ويركز عليها.
- استقرار العملية السياسية، فالعمل المنظم في المؤسسات وبينها لا يتزعزع أو يتعطل نتيجة لتغيير شاغلي المناصب.

ومن جانب آخر، تخدم المؤسسات السياسية العملية السياسية في نواح مهمة، حيث تؤدي هذه المؤسسات وظائف عديدة،لاغنى للعملية السياسية عنها،ومن أهمها(39):

أ- إطار للعملية السياسية، حيث تقدم المؤسسات السياسية، سواء في جانبها السلطوي أو غير السلطوي إطاراً للعملية السياسية في النظام السياسي.فالمؤسسات تتولى القيام بالدور الرئيس في عملية التحويل من جانب المدخلات(مطالب وتأييد)إلى جانب المخرجات (قرارات وسياسات وإجراءات).ففي إطار المؤسسات تنظم المطالب والحاجات، وينسق في ما بينها وتحدد أولوياتها، ومن ثم فإنها تمثل حلقات لتنظيم التباينات الإيديولوجية والحزبية والصراع السياسي بشكل عام، حيث

يمر من خلالها ويقنن ويؤدي إلى إصدار القرارات السياسية (40).وفي سياق ذلك يمكن إنضاج القرارات الحكومية،والعمل على تنفيذها إذا ما تمتعت بالدعم الذي تقدمه المؤسسات المركبة والقوية في النظام.

ويربط عدد من الباحثين في هذا المجال، بين وجود المؤسسات والعمل على تقوية الدولة، من خلال علاقة تبادلية تفاعلية.إذ أن الدول عديمة المؤسسات تكون على العكس دولاً ضعيفة وهشة، لأنها عاجزة ولا تستطيع السيطرة على الآليات التي تضمن المصالح العامة والخاصة.

وفي الواقع فإن الطابع المؤسسي للعملية السياسية في الوقت الذي يوفر فيه أمام المواطنين فرص المشاركة السياسية الواسعة، فإن امتلاك مؤسسات النظام السياسي يتطلب منها توفير قدرات تنظيمية وبشرية وعملية، تمكنها من مباشرة عملية التحويل والتبديل بين المدخلات والمخرجات، حيث تفترض عملية التحويل مزيداً من التخصص والتمايز في الوظائف والأدوار بين المؤسسات السياسية للنظام،أي تقسيم العمل بين مؤسسات النظام بأن يكون لها وظائف وأدوار متباينة.فالتخصص والتمايز لايعني عزل المؤسسات عن بعضها أو الانفصال الوظيفي،وإنما التخصص في إطار التكامل الوظيفي للنظام،وافتراض العلاقة الوثيقة بين مؤسساته المختلفة(41).

ب – قنوات المشاركة السياسية، حيث تمثل المؤسسات السياسية القنوات، التي تمكن المواطنين من المشاركة في عملية صنع السياسات العامة والقرارات السياسية أو التأثير فيها.وتعود أهميتها إلى أن الديمقراطية السليمة تعتمد بدرجة كبيرة على قوة وفاعلية المؤسسات التي تربط بين الحكومة والمواطنين وعددها وآليات عملها، ومدى دفاعها عن حقوق هؤلاء المواطنين، في إطار عملية الدفاع عن المصالح المؤسسية(42).

ولهذا يرى بعض علماء السياسة (مثل هنتنغتون وفيربا)أن المسألة الحاسمة بالنسبة لأزمة المشاركة السياسية، ليست مجرد التساؤل كيف تستجيب النخبة الحاكمة لمطالب المشاركة السياسية؟! بل التساؤل عن المؤسسات الجديدة، التي تنشأ من الأزمة.فقد أصبح وضع إجراءات معينة جديدة ومؤسسات معنية بالأمر، وإنشاء تنظيمات حزبية جديدة وجماعات مصالح، من الطرق التي يجري بموجبها مأسسة المشاركة السياسية في كل حين للدخول إلى النظام السياسي من دون خلق أزمة سياسية بالضرورة.

وضمن السياق نفسه يرى مايرون وانير (M.Weiner) أن أزمة المشاركة السياسية يمكن حلها أو تسويتها عندما يكون هناك اتفاق جديد بين النخب الحاكمة والنخب المتنافسة والمشاركين السياسيين،بشأن شرعية المطالب وبشأن قيمة الإجراءات المؤسساتية الموضوعة للإيفاء بهذه المطالب (43).

ومن دون المؤسسات ينعدم أو يتضاءل وجود أي مستوى من المشاركة السياسية، فغياب المؤسسات عن العملية السياسية يلغي إمكانية وصول المواطنين إلى جهاز صنع القرارات للإسهام أو

التأثير فيه. ويتم الإسهام الفعلي للمواطنين في العملية السياسية عبر قنوات المؤسسات السياسية.ومن هنا يجب الإقرار بأن غياب الطابع المؤسسي عن العملية السياسية، لا يؤثر في نطاق المشاركة السياسية فحسب، وإنما ينال حتى من جوهرها ومضمونها، فلا وجود لمشاركة سياسية حقيقية من دون مؤسسات قوية(44).

ج- ضمانة للاستقرار السياسي، حيث أن بناء المؤسسات السياسية لا يمثل استجابة لمطالب المشاركة السياسية وحدها، بل هي أداة للمحافظة على الاستقرار السياسي، جراء التهديد الذي يتعرض له بفعل اتساع حجم الضغط الموجه نحو النخب الحاكمة من جانب القوى الاجتماعية الساعية للمشاركة السياسية أيضاً.

ويشير بعض علماء السياسة إلى أهمية ممارسة أعداد كبيرة من اللاصفوة(من غير النخب الثقافية والسياسية والتكنوقراط) العمل السياسي والاندماج النفسي والثقافي في العملية السياسية.ولكن من المؤكد أن المؤسسات التقليدية والشرائح المثقفة والمسيسة الناهضة والمندفعة للمشاركة السياسية، تعمل على اجتذاب أعداد كبيرة من شرائح اللاصفوة، الأمر الذي قد ينتج عنه زعزعة في الاستقرار السياسي، إن لم يترافق هذا الحراك المتصاعد بعملية بناء مؤسسات سياسية وقانونية جديدة، لاستيعاب القوى السياسية والاجتماعية هذه، داخل أطر الدولة والاستفادة من اندفاعها لصالح عملية التنمية السياسية بشكل عام.وهكذا فإن الحفاظ على الاستقرار السياسي يقتضي أن تتواءم درجة المشاركة السياسية مع درجة المأسسة السياسية. ولذلك فإن عملية بناء المؤسسات السياسية تشكل شرطاً ضرورياً لضمان الاستقرار السياسي،وتفادي مخاطر الانزلاق نحو العنف بأشكاله المختلفة.

- خاتمة

الانتقال الديمقراطي لا يتم لمجرد الرغبة السياسية بذلك،ولا يكفي لبلوغه صدور القوانين والتشريعات والقرارات البيروقراطية العصرية و المنقولة من الدول المتقدمة، وإنما هو عملية ممنهجة وموجهة وهادفة في إطار استراتيجية للتحديث السياسي الشامل، عن طريق المشاركة السياسية الواسعة والجارية عبر القنوات والمؤسسات السياسية الملائمة لهذه العملية.

ولا شك بأن الانتقال الديمقراطي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية الشاملة، وبمختلف التحولات والإجراءات الدستورية والقانونية والمؤسساتية الناظمة لهذه الاستراتيجية.فالمشاركة السياسية لاتقتصر فقط على الانتخابات و"مواسمها"المحددة،أو على التعبئة الإعلامية والحشود الجماهيرية في المناسبات، وإنما تشمل تنظيم الجهود والأنشطة والحراك الاجتماعي والسياسي، وتأطيرها ومأسستها لتقوم بدور فاعل في نطاق العملية السياسية التطويرية المستمرة، والتحديث السياسي المتكامل في الدولة والمجتمع على حد سواء.

الهوامش:

(1) انظر: يوسف الشويري، "الشورى والليبرالية والديمقراطية في الوطن العربي: آليات الانتقال" في علي خليفة الكواري(محرر)، **مداخل الانتقال إلى الديمقراطية في البلدان العربية** (بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2003)ص 54 -62.

(2) نقلاً عن المصدر نفسه،ص 56.

(3) المصدر نفسه ص 58.

(4) المصدر نفسه، ص 58.

(5) انظر: اسماعيل الشطي،"الكويت وتجربة الانتقال إلى الديمقراطية"، في علي خليفة الكواري (محرر)،**مداخل الانتقال إلى الديمقراطية في البلدان العربية** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 2003)، ص 132 -133.

(6) المصدر نفسه، ص 134.

(7) لاري دايموند، معد، **مصادر الديمقراطية:ثقافة المجموع أم دور النخبة**، ترجمة سمية فلو عبود(بيروت:دار الساقي، 1994)،ص36.

(8)محمد جابر الأنصاري، **العرب والسياسة:أين الخلل؟جذر العطل العميق**(بيروت:دار الساقي، 1998) ص 53.

(9) اسماعيل الشطي،"الكويت وتجربة الانتقال إلى الديمقراطية"، في علي خليفة الكواري (محرر)،**مداخل الانتقال إلى الديمقراطية في البلدان العربية**، ص137 -139.

(10) المصدر نفسه،ص 133.

(11) المصدر نفسه، ص 138.

(12)انظر: عبد الإله بلقزيز،" أزمة المعارضة السياسية في الوطن العربي" في عبد الإله بلقزيز(محرر) **المعارضة والسلطة في الوطن العربي :أزمة المعارضة السياسية العربية**(بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2001)ص 43 -45.

(13) المصدر نفسه،ص 44 -45.

(14) حسين علوان البيج،"المشاركة السياسية والعملية السياسية"،**المستقبل العربي**، السنة 20،العدد 223 (أيلول /سبتمبر 1997)،ص 64.

(15) المصدر نفسه.

(16) نقلاً عن المصدر نفسه،ص65.

(17)انظر:عبد المنعم المشاط،التنمية **السياسية في العالم الثالث:نظريات وقضايا** (العين:مؤسسة العين للنشر والتوزيع، 1988)،ص 306.

(18)المصدر نفسه،ص 306.

(19)جلال عبد الله معوض،"أزمة المشاركة السياسية في الوطن العربي،" **المستقبل العربي**، السنة 6،العدد 55(أيلول/ سبتمبر1983)،ص108.

(20) المصدر نفسه،ص 108.

(21) حامد عبدالله ربيع، **أبحاث في النظرية السياسية** (القاهرة:مكتبة القاهرة الحديثة، 1971)، ص 217 -218.

(22) انظر:اسماعيل علي سعد، **مقدمة في علم الاجتماع السياسي** (الاسكندرية:دار المعرفة الجامعية، 1987)، ص 363.

(23) انظر:د.سعد الدين ابراهيم (منسق الدراسة ومحرر الكتاب)، **المجتمع والدولة في الوطن العربي**، مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي(بيروت :مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1988)، ص185.

(24) المصدر نفسه، ص 186.

(25) انظر كمال المنوفي، **أصول النظم السياسية المقارنة** (الكويت:شركة الربيعان للنشر والتوزيع، 1987، ص 240

(26) عبد المنعم المشاط، **التنمية السياسية في العالم الثالث:نظريات وقضايا**، ص 333 -334.

(27) انظر:عبد المعطي محمد عساف، **مقدمة إلى علم السياسة** (عمّان:دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط2، 1987)، ص 279.

(28) المصدر نفسه، ص 279.

(29) المصدر نفسه، ص 279.

(30) المصدر نفسه، ص 291 -292.

(31) انظر: حامد عبد الله ربيع، **أبحاث في النظرية السياسية** (القاهرة:مكتبة القاهرة الحديثة، 1971)، ص 217 -218.

(32) حول تعثر التجارب الديمقراطية في البلدان العربية، انظر:محمد عبد الرحيم عنبر، **محنة الديمقراطية العربية**(القاهرة:مطبعة عابدين، 1980)، ص 50 -100.

(33) جلال عبد الله معوّض، "أزمة المشاركة في الوطن العربي"، ص 109 -112.

(34) المصدر نفسه، ص 110.

(35) المصدر نفسه، ص 110 -111.

(36) المصدر نفسه، ص 111.

(37) المصدر نفسه، ص 112 -117.

(38) انظر:سعيد زيداني، "إطلالة على الديمقراطية الليبرالية " **المستقبل العربي**، السنة 13، العدد 135 (أيار/مايو 1990)، ص 19 -20

(39) انظر:علي الدين هلال، "نحو إطار نظري لتحليل عملية التنمية السياسية في الوطن العربي، " **قضايا عربية**، السنة 8، العدد 1 (كانون الثاني/يناير 1981)، ص 45 -60.

(40) المصدر نفسه، ص 54.

(41) المصدر نفسه، ص 55 -60.

(42) انظر:محمد أحمد اسماعيل علي، **دور المثقفين في التنمية السياسية**:دراسة نظرية مع تطبيق على مصر(القاهرة (د.ن)، 1986)، ج2، ص 405.

(43) انظر:حسين علوان البيج، "المشاركة السياسية والعملية السياسية في الدول النامية، "ص 69.

(44) المصدر نفسه، ص 70.

❑❑

هل ولى النظام الدولي متعدد الأقطاب؟

□ أ. حميدي العبد الله

أولا: المراحل التاريخية للنظام الدولي:

منذ أفول عصر الإمبراطوريات الكبرى التي أقامت دولاً إمبراطورية عابرة للقوميات، صعدت إمبراطوريات جديدة استعمارية، استناداً إلى الدولة القومية، وكانت الدول الأوروبية أول من قاد تأسيس هذه الإمبراطوريات الاستعمارية قبل أكثر من مئتي عام. وقد هيأ لهذا الصعود عصر الأنوار، والنهضة الصناعية، التي كانت الدول الأوروبية مركزها. ويمكن تقسيم التاريخ الحضاري لسكان الكرة الأرضية إلى مراحل عديدة:

- **مرحلة الامبراطورات الكبرى التي تضم عدداً كبيراً من الأثنيات والقوميات**، وقد استمر عصر هذه الامبراطوريات حتى سقوط السلطنة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، واتسم طابع هذه الامبراطوريات بسمات بارزة من أهمها: إن الامبراطورية تشمل مساحات جغرافية واسعة، غالباً ما تغطي القارات القديمة وتشمل أكثر من قارة، ولاسيما في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي مناطق آسيا الوسطى، كما أن تلك الإمبراطوريات تضم عدداً غير قليل من الأقوام، حتى وإن كانت المناصب الرفيعة في هذه الإمبراطورية أو تلك يطغى عليها عناصر من قوم أو عرق أكثر من الأقوام والأعراق الأخرى التي تشكل رعايا هذه الإمبراطورية.

• مرحلة الامبراطوريات الاستعمارية المستندة إلى الدولة القومية،

وهذه المرحلة امتدت على مساحة ثلاثة قرون، وتحديداً القرن الثامن عشر والتاسع عشر والقرن العشرين. وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هناك تنازع على الهيمنة بين الإمبراطوريات القديمة متخطية القوميات وبين الإمبراطوريات الاستعمارية المستندة إلى الدولة القومية، ويشار في هذا السياق إلى وجود الإمبراطورية العثمانية التي تنتمي إلى عصر الإمبراطوريات القديمة والإمبراطوريات الاستعمارية المستندة إلى الدولة القومية والتي وقفت على رأسها الإمبراطوريتان البريطانية والفرنسية، حيث استمر هذا التجاور حتى الحرب العالمية الأولى في مطلع القرن العشرين وانتهى بسقوط الإمبراطورية العثمانية، وتميزت هذه المرحلة بأن الإمبراطوريات الاستعمارية المستندة إلى الدولة القومية قامت باحتلال عدد واسع من بلدان العالم في القارات الخمس، وتوزعت البلدان المحتلة بين الدول الأوروبية الاستعمارية تبعاً لتوازن القوى بين هذه الدول وحجم وقدرات كل دولة منها، واختلف شكل وأسلوب حكم هذه الإمبراطوريات عن شكل وأسلوب حكم الإمبراطوريات القديمة كونَ الإمبراطوريات الاستعمارية الجديدة قامت بنهب ثروات وخيرات البلدان التي أخضعت لسيطرة الدول القومية صاحبة الإمبراطورية ولهذا لم يمتد عمر هذه الإمبراطوريات لسيطرة طويلاً على عكس الإمبراطوريات القديمة التي استمر عمرها مئات السنين، في حين أن عمر الإمبراطوريات الاستعمارية لم يتجاوز ثلاثمائة عام وهو أقصر عمر لآخر الإمبراطوريات القديمة، أي الإمبراطورية العثمانية التي استمرت حوالي خمسمائة عام. وأسلوب الحكم الذي اعتمدته الإمبراطوريات الاستعمارية القائمة على نهب ثروات الشعوب المحتلة وإخضاعها بالقوة لصالح قومية محددة هي قومية الدولة الاستعمارية، وهذا الأسلوب عجل بسقوط هذا الشكل من أشكال الإمبراطوريات الاستعمارية، وعلى عكس حال المرحلة الأولى من الإمبراطوريات القديمة التي على الرغم من مكانة القوم في إداراتها العليا إلا أنها كانت تُعدّ إمبراطورية لكل الشعوب الخاضعة لها، ولم تلجأ إلى عملية النهب عينها التي اعتمدتها الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية في العقود الثلاثة التي سادت فيها مصالح القومية التي تنتمي إليها الإمبراطورية، وقد امتد عمر هذه الحقبة ثلاثة قرون على الرغم من طابعها الاستعماري، وعلى الرغم من حركات المقاومة التي ووجهت بها هذه الإمبراطوريات الاستعمارية، لأسباب في غالبيتها اقتصادية، إذ أن فلسفة الأنوار وما صحبها من اختراعات في عالم الصناعة وتركز كل ذلك في الدول الغربية، وتحديداً الدول الأوروبية، أدى إلى حدوث تحول كبير في موازين القوى الاقتصادية بين الشرق الذي كان يتربع على عرش التجارة العالمية، حيث ذاع صيت طريق الحرير، لمصلحة الدول الأوروبية التي بدأت شيئاً فشيئاً بالاستناد إلى نهضتها الصناعية، الإخلال بتوازن القوى لمصلحتها، وكان لذلك الدور الكبير أولاً في تفوقها العسكري، وثانياً في التأثير على حركة الشعوب التي خضعت لهيمنتها، ولولا تفوقها الاقتصادي لما استطاعت الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية الاستمرار في حكم الدول الأخرى طيلة هذه الفترة الطويلة، إذ من غير المعقول لدول بحجم

بريطانيا أن تحكم الهند لمدة مائتي عام لولا هذا العامل الاقتصادي، فالتقدم والتخلف يخلقان فجوة يمكن توظيفها في صناعة واقع قد يكون شاذاً من ناحية المنطق والعدالة.

• مرحلة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية

اللتين وقعتا في القرن العشرين، هذه المرحلة ساد فيها نظام دولي متعدد الأقطاب، ولكن الأقطاب جميعهم يمثلون دولاً استعمارية، وبسبب الصراع بين الدول الاستعمارية على الثروة والمواد الأولية والنفوذ لم يعمر هذا النظام طويلاً، إذ كانت الحرب العالمية الثانية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى بأقل من عقدين نتيجة وثمرة للصراعات الدائرة بين أطرافه، وساهمت هذه الصراعات في سقوط هذا النظام بسرعة قياسية إذا ما وضع بالمقارنة مع الحقب السابقة، أي أن عمر هذه المرحلة لم يتجاوز العقدين.

• المرحلة الرابعة في حقب النظام الدولي،

هي المرحلة الممتدة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى مطلع عقد التسعينيات من القرن العشرين، وهي المرحلة التي عرفت بالنظام الدولي ثنائي القطبية، حيث انقسم العالم إلى ثلاث كتل كبرى، الكتلة الأولى، وهي الكتلة الغربية أو الكتلة الرأسمالية وتضم الدول الغربية الاستعمارية، وبعض الدول التي تهمين على الحكم فيها جماعات مرتبطة بالغرب. الكتلة الشرقية التي يتزعمها الاتحاد السوفيتي، وتضم «المنظومة الاشتراكية» أو «حلف وارسو» من الناحية العسكرية في مواجهة حلف الناتو الذي يجمع الدول الغربية ودول تابعة للغرب مثل تركيا. الكتلة الثالثة، وهي كتلة عدم الانحياز التي تضم دولاً رفضت الانخراط في أي من الكتلتين الرئيسيتين، أي الكتلة الغربية الرأسمالية والكتلة الشرقية الاشتراكية. وتميزت هذه الحقبة بسمات عديدة أبرزها تقهقر مكانة الدول الاستعمارية وتفكك الإمبراطوريات التي سادت في القرون الثلاثة الماضية، ونهوض حركات الاستقلال الوطني ونجاحها في بناء دول وطنية مستقلة، وغالبية دول عدم الانحياز كانت ثمرة لهذه الحركة التحررية، وانتشار قيم العدالة والمساواة وحضور دولة الرعايا الاجتماعية بقوة في ممارسات الكتل الثلاث. وامتد عمر هذه الحقبة من النظام الدولي حوالي سبعين عاماً.

• الحقبة الخامسة التي تبدأ مع انهيار وتفكك الاتحاد السوفييتي

وسقوط الكتلة الشرقية، وتفكك كتلة عدم الانحياز وإفراغها من مضمونها، وتحولها إلى هياكل لا ينسجم مضمونها مع حقيقة ممارسات الدول المنضوية تحت لواء هذه الكتلة. في هذه الحقبة ساد نظام دولي **أحادي القطبية** تقوده الولايات المتحدة واستمر هذا النظام منذ مطلع عقد التسعينيات وحتى وقتنا الحاضر، وعمر هذه الحقبة

قصير يشبه الحقبة التي سادت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية في النصف الأول من القرن العشرين، والسقوط السريع لهذه الحقبة يعود إلى أسباب مشابهة من الناحية الواقعية للأسباب التي أدت إلى سقوط النظام الدولي متعدد القطبية ذي الطابع الاستعماري الذي ساد ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، أي أن أسلوب وطابع الممارسات الاستعمارية للدول المهيمنة في هذه الحقبة، ومقاومة الشعوب للسيطرة الاستعمارية هي التي سرّعت سقوط هذه الحقبة بما يتجاوز توقعات القيمين على هذا النظام وتحديداً ساسة وزعماء الولايات المتحدة والدول الغربية التي ساندتهم.

وثمة اعترافات صريحة لأعضاء بارزين في النخبة الأميركية بهذه الحقيقة، ففي سياق تأريخه للحقب الأساسية في منطقة الشرق الأوسط تحدث مسؤول قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأميركية في ولاية بوش الابن «ريتشارد هاس» والذي يشغل الآن منصب رئيس مجلس العلاقات الخارجية في تعليقه على صعود وأفول الهيمنة الأميركية وبالتالي النظام أحادي القطبية في دراسة ذاع صيتها على نطاق واسع في عام (2010) أن منطقة الشرق الأوسط مرت بحقب عديدة أبرزها الحقبة العثمانية، وحقبة الهيمنة الأوروبية، وحقبة النظام الدولي ثنائي القطبية، أما المرحلة الأخيرة فهي مرحلة الحقبة الأميركية التي بدأت في عام (1990) وانتهت في النصف الثاني من العقد الأول من القرن الواحد والعشرين. ويفسر هاس سبب هذا الانهيار، أو على الأقل الانحسار في هيمنة النظام أحادي القطبية بأن حقبة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط والتي بدأت في مطلع عقد التسعينات بإزاحة سيطرة نظام صدام حسين عن الكويت والتي أسماها «حرب الضرورة» عندما جردت الولايات المتحدة حملة دولية لتحرير الكويت من سيطرة الجيش العراقي، انتهت بغزو الولايات المتحدة للعراق، والتي عدّها **حرباً غير مبررة**، أي أنه كان للسياسة الاستعمارية ورد الفعل المقاوم ضدها الدور الكبير في إسقاط حقبة الهيمنة الأميركية في الشرق الأوسط، أو بداية النهاية للنظام الدولي أحادي القطبية الذي تربعت على عرشه الولايات المتحدة حوالي عقدين تقريباً.

ثانياً ـ النظام الدولي متعدد القطبية الجديد:

بعد فشل إحياء سياسة الإمبراطوريات الاستعمارية في ضوء فشل الحملة الغربية في كل من العراق وأفغانستان، بدأت تتشكل ملامح حقبة جديدة تؤشر لولادة نظام دولي جديد.

ولم يعد احتمال ولادة هذا النظام الدولي الجديد يتردد على لسان المحللين والخبراء وحدهم، بل إن قادة دول كبرى، مثل روسيا والصين، يجاهرون اليوم بالدعوة إلى هذا النظام. فالرئيس الروسي فلاديمير بوتين جعل حجر الزاوية في حملته الانتخابية فيما يتعلق بالسياسة الخارجية لروسيا العمل من أجل تسريع ولادة نظام دولي متعدد الأقطاب يضع حداً للهيمنة الأحادية للولايات المتحدة، أو هيمنة الدول الغربية على النظام الدولي تبعاً لما كان عليه الحال في القرون الثلاثة الماضية. كما أن قادة الصين يصرحون بذلك ويعملون بكل طاقتهم لتسريع ولادة هذا النظام، وتحظى الدولتان

صاحبتا المقعد الدائم في مجلس الأمن والعاملتان بقوة لمصلحة النظام الدولي الجديد، بدعم قوي إقليمية كبيرة ومؤثرة، مثل البرازيل والهند وجنوب إفريقيا وإيران، ولم يعد التبشير بولادة نظام دولي متعدد الأقطاب وقفاً على الدول المناهضة للهيمنة الغربية مثل روسيا الصين ومجموعة «البريكس» بل إن شخصيات مؤثرة ولامعة في النخب السياسية الغربية، وتحديداً الأميركية باتت من المؤمنين بأن ولادة هذا النظام الدولي الذي سيضع حداً للهيمنة الأميركية والغربية على العالم، باتت وشيكة، ويشار في هذا السياق إلى كتاب فريد زكريا « ما بعد الإمبراطورية الأميركية»، وكتاب مستشار الأمن القومي الأميركي الأسبق «زبغنيو برجنسكي» الذي يحمل عنوان «رؤية استراتيجية أزمة القيادة الأميركية»، ودراسة ريتشارد هس حول نهاية القطبية الأحادية الأميركية.

وإذا كانت ولادة النظام الدولي متعدد الأقطاب ومؤشرات هذه الولادة قد ظهرت بقوة في تصريحات الزعماء والقادة، وفي أبحاث المفكرين والخبراء في السنوات الأربع الأخيرة، إلا أن المقدمات تعود إلى عوامل أكثر جذرية يمتد بعضها إلى سنوات طويلة، وفي سياق رصد هذه العوامل يمكن الإشارة إلى الآتي:

أولاً، التحولات الاقتصادية. تعود جذور هذه التحولات إلى حوالي أكثر من نصف قرن، ففي الستينات من القرن العشرين، على سبيل المثال، كانت حصة الولايات المتحدة من أجمالي الناتج العالمي حوالي (60٪)، اليوم أصبحت حصة الولايات المتحدة من إجمالي الناتج العالمي أقل من عشرين، وتراجع حصة الولايات المتحدة من إجمالي الناتج العالمي جاء لحساب تعاظم حصة دول مجموعة البريكس ولاسيما الصين والهند والبرازيل.

كما أن حصة الدول الغربية، سواء الدول الأوروبية أو اليابان أو كندا، تراجعت هي الأخرى لمصلحة دول البريكس. وهيمنة الغرب على النظام الدولي طيلة ثلاثة قرون كانت تعبيراً عن هيمنة الغرب الاقتصادية على العالم نظراً للتفوق الاقتصادي، ومع تراجع هذه الهيمنة في ضوء هذه التحولات الهامة التي تحدث للمرة الأولى بهذه القوة منذ أكثر من ثلاثمئة عام لا بد أن تتأثر مكانة الغرب السياسية ودوره القائد للنظام الدولي.

ثانياً، أزمات الغرب الاقتصادية. تضرب الغرب منذ عام (2008) موجات متلاحقة من الأزمات الاقتصادية، وثمة تحليلات وتقديرات جاءت على لسان كبار الخبراء والمحللين والاقتصاديين في الغرب تؤكد أن هذه الأزمات في طريقها إلى التصاعد بعد فشل جميع محاولات احتوائها من قبل الحكومات، وتساهم في صنع وتفاقم هذه الأزمات ثلاثة عوامل أساسية يمكن اعتبارها عوامل مكونة للأزمة:

العامل الأول، تراجع حصة الدول الغربية من إجمالي الناتج العالمي وانعكاس ذلك على قدرات الحكومات الغربية، وعلى موازناتها وعلى الاستقرار الاجتماعي والسياسي فيها. فعندما تتراجع حصة هذه الدول في إجمالي الناتج العالمي تتراجع معها حصة كل دولة من هذا الناتج، ويؤدي ذلك إلى أن عائدات الضرائب التي تغذي الخزينة تتراجع هي الأخرى، ومع تراجع تغذية الخزينة تنشأ ظواهر مرضية اقتصادية واجتماعية عديدة، كما أن قدرة هذه الدولة على إقراض دول أخرى يتأثر وينعكس ذلك على مدى تأثير الدول المعنية سياسياً، سيما وأن كثير من الدول الغربية عززت نفوذها السياسي عالمياً عن طريق القروض، كما أن عجز الموازنة الناجم عن تراجع الموارد يؤدي إلى تنامي المديونية، وتلتهم خدمة الديون بدورها جزءاً من الإنفاق العام وتتراجع حصة الإنفاق على التنمية في مخصصات الموازنة ويؤدي ذلك إلى انتشار البطالة وتدني مستوى معيشة الغالبية، وذلك يقود بدوره إلى حدوث توترات اجتماعية سرعان ما تتحول إلى توترات سياسية، وهذا ما تشهده الآن الكثير من الدول الغربية بوتائر متباينة تعكس مستوى وعمق الأزمة التي تعاني منها هذه الدولة أو تلك.

العامل الثاني طبيعة النظام الرأسمالي وأسلوبه في إدارة الاقتصاد، إذ أنه على الرغم من الكثير من النجاحات المشهودة التي حققها هذا الأسلوب في إدارة الاقتصاد إلا أنه لا يمكن إغفال جانب سلبي آخر في هذا الأسلوب هو المسؤول عن إنتاج الأزمات دورياً على امتداد أكثر من ثلاثة قرون، وكانت هذه الأزمات سبباً في تغير مكانة الكثير من الدول والسبب وراء المتغيرات التي شهدها النظام الدولي في القرون الثلاثة الماضية. وقد رصد ثغرات هذا النظام وعيوبه المسؤولة عن الأزمات في الماضي والأزمات التي تعصف الآن بالدول الغربية، اثنان من أهم الخبراء وعلماء الاقتصاد في الولايات المتحدة هما«ليسترثارو» في كتابه «مستقبل الرأسمالية» الذي صدر قبل اندلاع أزمة عام (2008) بحوالي أربع سنوات، و«جوزيف سنيلجيتز» رئيس أعضاء الفريق الاقتصادي في إدارة الرئيس كلينتون، والحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد في كتابه الشهير «خيبات العولمة».

العامل الثالث، إنفاق الدول الغربية على دولها وشعوبها بأكثر من قدرات إنتاجها، إذ من المعروف أن ظاهرة الاستدانة، التي تشكل الآن العنوان والسبب الأساسي للأزمة الاقتصادية الحالية التي تعاني منها الولايات المتحدة وأوروبا هي ناتجة عن أن الدول الغربية أنفقت على دولها وعلى شعوبها أكثر من قدرات اقتصادها واعتمدت بذلك على الاستدانة، ووصلت إلى مرحلة لم تعد قادرة فيها على الاستمرار في هذا النهج. فالولايات المتحدة منذ نهاية عام (2010) تجاوزت مديونيتها حجم أجمالي ناتجها القومي، واضطرت إدارة أوباما إلى تعديل القوانين التي كانت تحرم على الإدارة الأميركية الاستدانة أعلى من مستوى إنتاجها القومي ورفعت هذا المستوى حتى تجاوز (2) تريليون دولار. وغالبية الدول الأوروبية باتت الآن دولاً مفلسة، وإذا كانت اليونان وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا وبعض الدول الأوروبية الصغيرة هي التي تستحوذ حالياً على الاهتمام الإعلامي، إلا أن أزمة فرنسا وبريطانيا لا تقل خطورة عن أزمات تلك الدول، ولن يتأخر الوقت الذي ستكون فيه أزمة المديونية لدى هذه الدول مطروحة بالقوة ذاتها في اهتمامات المسؤولين ووسائل الإعلام المختلفة.

ومعروف أن الصين ودولاً أخرى من مجموعة البريكس هي التي تقوم بتمويل عجز موازنات الولايات المتحدة ودول غربية أخرى، وبديهي أن هذه العملية سيكون لها تداعيات على توازن القوى السياسية والعسكرية بين الدول الغربية المستقرضة والدول الممولة لعجز الموازنات وعلى رأسها الصين وروسيا وحتى الهند والبرازيل، ويسسهم هذا العامل في تسريع ولادة النظام الدولي متعدد الأقطاب.

ثالثاً، مقدمات ولادة النظام الدولي متعدد الأقطاب بدأت بالتشكل بعد اندلاع أزمة عام (2008)، وتجسدت بعاملين أساسيين:

العامل الأول، تشكيل مجموعة العشرين الاقتصادية لتحل محل مجموعة السبع التي قادت العالم اقتصادياً بعد عام (1990) عام انهيار الاتحاد السوفيتي، واستمرت حتى تشكيل مجموعة العشرين بعد الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالاقتصادات الغربية. ومثلما لعبت مجموعة السبع دروراً سياسياً هاماً في قيادة العالم تحت زعامة الولايات المتحدة لمدة حوالي عقدين، فإن مجموعة العشرين مرشحة لأن تلعب دوراً مماثلاً على صعيد قيادة العالم. لكن التوازنات داخل مجموعة العشرين لا تعمل في مصلحة استمرار هيمنة الدول الغربية بزعامة الولايات المتحدة على النظام الدولي، لأن الدول الفاعلة في هذه المجموعة، والتي يؤهلها اقتصادها للإسهام في احتواء أزمات الدول الغربية الاقتصادية هي مجموعة البريكس بزعامة كل من الصين والهند والبرازيل وجنوب إفريقيا، ويسهم وجود هذه المجموعة في تسريع ولادة النظام الدولي متعدد الأقطاب، ويشكل وجودها الأساس الاقتصادي المتين لهذا لنظام، مثلما كان دور مجموعة السبع في تكريس النظام الأحادي القطبية الذي ساد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

العامل الثاني، انتقال ثقل التجارة الدولية من الغرب إلى الشرق، فالميزان التجاري بين مجموعة البريكس وبين الدول الغربية يميل لمصلحة البريكس، ومن شأن هذا التحول التاريخي الذي يحدث للمرة الأولى منذ أكثر من ثلاثة قرون أن يحدث تحولاً سياسياً موازياً، سيما وأن الدول الغربية، وتحديداً الولايات المتحدة التي لا تزال تمتلك أكبر اقتصاد على المستوى العالمي، تحتاج إلى دعم مجموعة البريكس وتحديداً دعم الصين لكي لا ينهار اقتصادها، ولسد العجز في موازنتها السنوية. وهذا الواقع ستكون له انعكاسات على قدرات الولايات المتحدة العسكرية ومكانتها السياسية، وقد لخص هذه الانعكاسات كاتب العمود المعروف في صحيفة «نيويورك تايمز» الصحافي الشهير «توماس فريدمان» في مقولة معبرة جاء فيها «إن الولايات المتحدة إذا قررت الحرب ضد الصين لدعم حكومة تايوان الحليفة للولايات المتحدة فإنها بحاجة إلى طلب تمويل هذه الحرب من الحكومة الصينية»، وفي هذه المقولة الساخرة يلخص فريدمان حقيقة التحول الحاصل في توازن القوى الدولي، بما يعزز الاستنتاج بولادة نظام دولي جديد متعدد الأقطاب يختلف عن الأنظمة التي سادت في القرون الثلاثة الماضية، ولاسيما في القرن العشرين والعقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

رابعاً، الحروب الاستعمارية المتجددة ودورها في ولادة النظام الدولي الجديد.

ثمة ما يشبه الإجماع لدى المسؤولين في الولايات المتحدة، باستثناء أولئك الذين ينتمون إلى فريق المحافظين الجدد، ولدى المحللين الغربيين وعلى رأسهم المحللين البارزين في الولايات المتحدة، على أن الحروب الغربية ذات الطابع الاستعماري في كل من أفغانستان والعراق كان لها دور كبير في نشوء الأزمة الاقتصادية واستنزاف قدرات الغرب العسكرية والسياسية ومنح الأفضلية لدول مجموعة البريكس وبالتالي تعديل توازن القوى على المستوى الدولي. فالإنفاق على هاتين الحربين تجاوز حتى عام (2010) الـ (3) تريلون دولار، وكان من شأن هذا الاستنزاف تسريع اندلاع الأزمة الاقتصادية في الدول الغربية وخروجها على السيطرة ، كما أن حرب المقاومة التي شنها الشعب العراقي، والشعب الأفغاني، والتي أدت إلى فشل الاحتلال في تحقيق الأهداف التي سعى إليها، وهي السيطرة على منابع النفط الرئيسية والتحكم بها، وتوظيفها لإخضاع الدول الناشئة اقتصادياً وفي مقدمتها الصين والهند، وإرغام الجيوش الأجنبية المحتلة على الانسحاب من دون قيد أو شرط أدى ـ ليس فقط ـ إلى توضيح حدود القوة العسكرية للغرب، بل أثر سلباً على مكانة الدول الغربية سياسياً، وهذه التداعيات هي التي أنشأت الأساس السياسي وحتى العسكري لولادة نظام دولي متعدد الأقطاب، بعد أن باتت واضحة استحالة أحياء الإمبراطوريات الاستعمارية في القرن الواحد والعشرين.

خامساً، دور منظومة المقاومة والممانعة في المنطقة في تسريع ولادة النظام الدولي متعدد الأقطاب،

إذ كان للدور الريادي الذي لعبته منظومة المقاومة والممانعة في المنطقة، ولاسيما دور سورية وإيران والمقاومة في العراق ولبنان وفلسطين، دور كبير في ولادة النظام الدولي متعدد الأقطاب. فعند اندفاع الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة للهيمنة على المنطقة تصدت لها هذه المنظومة عندما كانت دول مثل الصين وروسيا في وضع لا يؤهلها للقيام بهذا الدور لأسباب اقتصادية وسياسية، وخاضت هذه المنظومة معارك هامة، في غضون عقد كامل ضد الهجوم الاستعماري على المنطقة، وتسببت هذه المقاومة الباسلة في نشوء أزمات الدول الغربية الاقتصادية، وتقهقر قوتها العسكرية وتراجع مكانتها السياسية بما أسهم ببروز مؤشرات عملية على ولادة النظام الدولي متعدد الأقطاب، ولعب صمود سورية في مواجهة الهجوم الذي استهدفها خلال عامي (2011) و(2012) دوراً في تسريع ولادة النظام الدولي متعدد الأقطاب ولاسيما بعد استخدام روسيا والصين ثلاث مرات حق الفيتو في مجلس الأمن وتعطيل قدرة الدول الغربية على فرض إملاءاتها واستمرار النهج القديم الذي ساد في العقدين الماضيين.

ثالثاً ـ خلاصات واستنتاجات:

هذه هي العوامل والمؤشرات التي تؤكد حقيقة ولادة نظام دولي جديد، نظام دولي قائم على التعددية، وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى الخلاصات والاستنتاجات الآتية في ضوء التحولات الاقتصادية والعسكرية والسياسية والتي شهدها ويشهدها العالم الآن:

1 - النظام الدولي متعدد الأقطاب الذي تحدث عنه زعماء روسيا والصين والذي تعمل من أجله دول عديدة، وتحديداً مجموعة البريكس، **لا يزال في بداياته**، وهو أقرب إلى أن يكون **موجوداً بالقوة وليس بالفعل**، أي أن شروطه الموضوعية باتت قائمة، وسيولد هذا النظام عاجلاً أم آجلاً كتعبير عن هذه الشروط **ولكنه لم يصبح أمراً واقعاً بالفعل**، وإذا كانت الدول الغربية لم تعد قادرة على الانفراد في تقرير وجهة السياسيات الدولية في ضوء ما أبرزته الأزمة السورية، ولكن في المقابل لا تزال الهيئات الأممية، وتحديداً مجلس الأمن والأمانة العامة للأمم المتحدة، تعاني من هيمنة الدول الغربية على هذه الهيئات وأحدث دليل على حدود التغيير في النظام الدولي هو تعيين مساعد وزيرة الخارجية الأميركية جيفري فيلتمان معاوناً للأمين العام للأمم المتحدة، الأمر الذي لا يزال يعكس شكلاً من أشكال هيمنة الولايات المتحدة على الأمانة العامة للأمم المتحدة مثل هيمنة الدول الغربية على الوكالة الدولية للطاقة الذرية وعلى مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة.

2 - النظام الدولي متعدد الأقطاب الذي يشهد العالم ولادته سيكون **مختلفاً بالضرورة عن الأنظمة الدولية التي سبقته** سواء في عصر الإمبراطوريات أم في عصر النظام الدولي ثنائي القطبية، أو النظام الدولي أحادي القطبية الذي ساد في العقدين الماضيين. فالنظام الدولي متعدد الأقطاب الجديد عند اكتمال ولادته سيكون **أكثر توازناً وأكثر عدالة** نظراً لتوزع أقطابه على جميع قارات الكرة الأرضية ولأنه لا يعبر عن اقتسام العالم بين دول كبرى على حساب الدول الصغرى.

3 - لا يمكن أن تكرس الصورة النهائية للنظام الدولي الجديد قبل **إجراء إصلاحات عميقة في هيئات الأمم المتحدة**، فمثلما كانت عصبة الأمم المتحدة هي صورة النظام الدولي الذي ساد بين الحربيين العالميتين الأولى والثانية، والأمم المتحدة تعبير عن توازنات النظام الدولي في حقبة النظام الدولي ثنائي القطبية، وهيمنة الولايات المتحدة على الأمم المتحدة، ومؤسساتها المختلفة وإعادة تشكيلها بما يلائم النظام الأحادي القطبية، فإن النظام الدولي متعدد الأقطاب بصورته الجديدة لا بد أن يعيد صياغة المؤسسات الأممية

بما يعكس التوازن الجديد، والتعددية الحقيقية داخل هذه المؤسسات، وهذا ما لم يحدث حتى الآن وإن كانت هناك دراسات ومقاربات عديدة للوصول إلى هذه الغاية.

4 - النظام التعددي الذي سيولد ستكون الأرجحية فيه للدول الصاعدة اقتصادياً، لأن صعودها اقتصادياً سينعكس أيضاً بقدرات عسكرية ومكانة سياسية موازية، وأزمة الغرب الاقتصادية ستقود إلى تراجع قدرات الغرب العسكرية وتقهقر مكانته السياسية، وهذا سينعكس على توازن القوى داخل مؤسسات النظام الدولي الجديد عند ولادته باعتبار ذلك معطى طبيعياً وحتمياً.

❑❑

الرجعية سلاح على رقاب الشعوب يحبط تقدمها ويعيق ازدهارها

□ محمد إسماعيل حديد

تعريف :

الرجعية حسب موسوعة السياسة هي: "تيارات تعارض مفاهيم تحديثية وتقدمية أو يسارية جديدة، وذلك عن طريق التمسك بالتقاليد الموروثة. وهي تنظر إلى الماضي كعصر ذهبي وتطالب بالرجوع إليه.. ويرتبط هذا المفهوم عادة بالاتجاه اليميني المتعصب المعارض للتطورات الاجتماعية والاقتصادية، إما من مواقع طبقية كأن يخشى أصحابها تطور التفاعلات بما يدعم ضرب مصالحهم أو الحد من سيطرتهم وامتيازاتهم، أو من مواقع محافظة ومتخلفة اجتماعياً تعارض التقدم والتغيير لتحجر ذهني أو لتمسك موهوم بأهداب التقاليد.. وهكذا فإن الرجعية كمفهوم وكاعتناق لا تقتصر على طبقة من طبقات المجتمع، ولو أن المستفيدين سياسياً واقتصادياً منها هم الطبقات المسيطرة والمستغلة وبعض الشرائح الطفيلية في المجتمع"[1].

[1] موسوعة السياسة ـ د. عبد الوهاب الكيالي ـ المؤسسة العربية للنشر والد مادة رجعية ـ صفحة 814.

. جذور الرجعية

لم يكن مصطلح الرجعية معروفاً في التاريخ القديم، لكن ذلك لا يعني أن جذورها لم تكن ممتدة إلى عمق التاريخ. إن رفض الجديد في المفاهيم، ومحاربة الأفكار التي تهدف تطوير الواقع المعاش في المجتمعات، وإنزال عقوبة الإعدام بحق من يتبنى مثل هذه الآراء الإصلاحية. إن هذه الممارسات الرجعية كانت سائدة في المجتمعات الوثنية، التي تحكّم فيها طبقة الكهنة والمشعوذين، فقد كرّس هؤلاء بعض المفاهيم التي رسخت الاعتقاد بأن رغبة الكاهن والملك رغبة إلهية، لا يقوى أحد على مخالفتها. وفي بعض الأماكن الأكثر تخلفاً، كان الملك يوهم شعبه بأنه الإله. إن طبقةً حازت على هذه الامتيازات، ستستميت دفاعاً عن امتيازاتها. لذا حورب جميع الأنبياء الذين أُرسلوا لهداية الناس إلى الحق، ومُنعوا من نشر أفكارهم السماوية الجديدة التي لم يألفها العامة، ورأى بها الكون والملوك ــ آنذاك ــ تهديداً لامتيازاتهم، فنسبوا تهمة تحقير الآلهة للأنبياء كلّهم، وأقدموا على اضطهادهم ورفض دعواتهم، فمنهم ــ على سبيل المثال ــ من أُلقي في النار كالنبي إبراهيم، ومنهم من قُطع رأسه كالنبي يحيى، ومنهم من حكم عليه بالموت صلباً كالسيد المسيح، ومنهم من تعرض لمحاولات القتل مرات عديدة كالنبي محمد، صلوات الله وسلامه على جميع الأنبياء والمرسلين والصديقين.

. الرجعية قبل الميلاد :

إذا كان هذا ما لاقاه الأنبياء من ملوك وكهنة دفاعاً عن مكاسبهم، ومن شعوب وأقوام متخلفة، رفضت التخلي عن جهلها وتخلفها، فقاوموا التغيير الذي جاء به الرسل، للانتقال نحو الأفضل، فإن الفلاسفة والعلماء والمفكرين لم يكونوا أحسن حالاً، فقد أُعدم واضطهد وسجن ونُفيَ الكثير منهم، لا لشيء إلا لأنهم جاؤوا بحقائق تتعارض مع ما هو سائد، وتصرّح بخطأ معتقدات الحاكم أو الكاهن. وندرج فيما يلي ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ بعضاً من هؤلاء العلماء الذين دفعوا أرواحهم أو حريتهم ثمناً للحقيقة التي جاؤوا بها، والتي اعتبرها الرجعيون الوثنيون إهانة للمعتقدات الدينية وتطاول عليها، فكان من الكهنة ما كان.

وفي عام 399 ق.م أُعدم الفيلسوف اليوناني الشهير "سقراط"، بتجرع كوبٍ من سم الشوكران، إثر إدانته بتهمة "إفساد الشباب والإساءة إلى التقاليد الدينية"[1].

وفي عام 387 ق.م أمر أحد طغاة أثينا أن يباع "أفلاطون" (أشهر علماء اليونان ومعلم "أرسطو") بيع العبيد لأنه اجترأ على أن يكون معلماً للطاغية، لكن حسن حظه أنجاه من هذا المصير، فقد تعرف عليه أحد أصدقائه ويدعى "أمنيقاريس" فاشتراه وأعتقه[2].

---

[1] الموسوعة العربية العالمية ـ النسخة الضوئية ـ مادة سقراط.

[2] معجم الفلاسفة ـ جورج طرابيشي ـ دار الطليعة للطباعة والنشر ـ لبنان/بيروت ـ الطبعة الثالث ـ تموز 2006 ـ صفحة رقم 71.

كما اضطر "أرسطو" أحد عظماء الفلسفة اليونانية عام 323 ق.م للهرب من أثينا إلى مدينة "كلسيس" بعد أن وُجهت إليه تهمة "عدم احترام الآلهة" التي تعني الإحالة إلى المحكمة، ومواجهة المصير الذي حل بسابقيه[1].

• الرجعية في القرون الوسطى:

في القرن الرابع ميلادي كانت تعاليم الكنيسة في الدول الأوروبية تُعد أساساً للقانون والنظام. ولذلك كان الخروج على تعاليم الكنيسة يعتبر جريمة ضد الدولة، تستحق الموت حرقاً بتهمة الهرطقة، ومع تشكيل محاكم التفتيش في فرنسا عام 1233، وفي عموم أوروبا فيما بعد، استمر التنكيل بكل داعٍ للإصلاح أو مطالب بالتجديد، واتسع ليشمل كل مكتشف وعالم يأتي بما يناقض قناعات الكنيسة[2].

كانت الكنيسة قد قررت أن بداية العالم هو يوم الأحد 23 تشرين الأول سنة 4004 قبل الميلاد، وبما أن "وايكليف" كان يقول قبل وفاته عام 1384 أن عمر الأرض يزيد على مئات الألوف من السنين. لذا أُخرجت رفاته من لحدها عام 1415 وأمرت الكنيسة بطحن عظام "العالم الكافر"، ونثرها في الهواء حتى لا يُعرف له لحد[3].

وفي عام 1594م ألقي القبض على "جيوردانو برونو"، أشهر الفلاسفة الغربيين في عصر النهضة الأوروبية، التي أوصلته فلسفته للشك في تعاليم الكنيسة، وسُجن لمدة 6 أعوام حتى يُنظر في أمره. وفي عام 1600م، تمت محاكمته وإدانته بتهمة الهرطقة. وحُكم عليه بأقصى عقوبة تتخذ بحق مذنب، فقد رُبط لسانه وجُرد من ملابسه، وقُيدت يداه ورجلاه في عمود من الحديد في ميدان الزهور بروما، ثم بدأ حرقه حياً وسط جمع غير من "المؤمنين الأبرار"، الذين ظلوا يهتفون بالموت للكفار[4].

أما "جاليلو جاليلي" العالم الفلكي الإيطالي، فعقب اختراعه التلسكوب عام 1609، الذي كان بإمكانه رؤية الفضاء الخارجي، وجد أن سطح القمر يتكون من جبال وهضاب، وأن المجرة تتألف من عدد هائل من النجوم مزروعة معاً في تكتلات، وأن كوكبة الجبار أو الصياد تشمل ما يزيد على خمسمئة نجم لا سبعة حسبما كان شائعاً، واكتشف سنة 1610 أقمار المشتري الأربعة الكبيرة، ولاحظ أنها تدور حوله، وخلال السنة نفسها اكتشف حلقة زحل ووجوه الزهرة وكلف

---

[1] مصدر سابق ـ الموسوعة العربية العالمية.
[2] مرجع سابق ـ الموسوعة العربية العالمية.
[3] مصدر سابق ـ معجم الفلاسفة صفحة 733 ـ للتوسع ينظر الموقع www.diwanalarab.com
[4] مصدر سابق ـ معجم الفلاسفة صفحة 174.

الشمس. وبدلاً من أن يصفق له علماء عصره، اتهموا تليسكوبه بأنه يُري أشياء لا وجود لها.

وكتب أحد منتقديه وقتها: "من السخف حقاً أن يقال: للمشتري أربعة أقمار يتبع بعضها البعض الآخر، تدور حول كوكب كبير، إن الملائكة هي التي تجعل زحل والمشتري والشمس إلخ تدور، ولو أن الأرض كانت تدور لكانت بحاجة إلى ملاك في المركز ليحركها. استدعي "جاليلو" للمحاكمة وأرغمته الكنيسة على نبذ أفكاره الفلكية التي جاء بها، وإلا وجهت إليه تهمة الهرطقة التي تعني الموت حرقاً، فاضطر لنفي أن الأرض تدور حول الشمس، وقال: إن الشمس تدور حول الأرض كما طلبت الكنيسة[1].

ومع نهايات القرن الثامن عشر ظهر العالم الفرنسي "أنطوان لافوازييه" الذي يُعتبر مؤسس علم الكيمياء الحديثة، وطرح نظريته حول مصونية المادة، حيث أثبت أن وزن المواد الداخلة في التفاعل الكيميائي يساوي وزن المواد الناتجة عنه، واختصر نظريته بعبارة: "لا شيء يبيد ولا شيء يخلق من جديد". وفي عام 1793 تم اعتقال "لافوازييه" من زعماء الثورة الفرنسية، وحُكم عليه بالإعدام، وفي عام 1794 أعدم في باريس بقطع رأسه بالمقصلة[2].

هذا غيض من فيض للجرائم المرتكبة باسم الدين وتعاليم الرب وأوامر الرسل.. وهي برمتها لمحاربة التطور والانفتاح والتجديد والإصلاح، الذي يعتبره الحكام والكهنة الفاسدين تهديداً لامتيازاتهم التي حازوا عليها من شعوبهم. إن جميع هذه الجرائم ارتكبت من جهات جاهلة متخلفة، ترفض كل فكر تنويري، وتعاقب جالبيه بقسوة. إن إطلاق الأسماء الدينية المخادعة على هذه الممارسات كـ"محاربة الهرطقة" لا تبرر ارتكاب جرائم القتل والتنكيل بحق العلماء والمفكرين.

• الرجعية في صدر الإسلام:

إن الصراع بين العلم والفهم الخاطئ للدين لا ينتهي. وهو ليس مقصوراً على دين معين، أو زمان ومكان محددَيْن. لأن العالم الإسلامي لم يخلُ من مثل هذه القصص في الماضي والحاضر. فقصص تعذيب العلماء والمفكرين وإعدامهم لا ينكرها التاريخ. وما كان يسمى في أوروبا بالهرطقة عُرف في عالمنا الإسلامي بالزندقة. وإذا أوردنا في سياق المتن أمثلة عن قتل عالم أو فقيه، فتجدر الإشارة أننا لسنا مع الحاكم ضد الفقيه ولا مع الفقيه ضد الحاكم، ولا مع طرف دون طرف، وإن ما ندرجه من أمثلة لا يعدو كونه شواهد تدعّم موضوع البحث.

---

[1] الموسوعة العربية الميسرة ـ المطبعة العصرية ـ لبنان/بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ تاريخ 2009 ـ المجلد الثالث ـ صفحة 1125.

[2] مصدر سابق ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ المجلد السادس ـ صفحة 2837.

فابن المقفع، الذي كان يجمع بين لغة العرب وصنعة الفرس وحكمة اليونانيين، ومؤلف كتاب كليلة ودمنة، وكتب أخرى كثيرة توضح ما ينبغي أن يكون عليه الحاكم إزاء الرعية، وما يجب أن تكون عليه الرعية إزاء الحاكم، أغضب هذا الخليفة المنصور في صدر العصر العباسي. فاتهم ابن المقفع بالكفر والزندقة، وقُطعت أطرافه وفُصلت رأسه، وألقي باقي جسده في النار[1].

والحلاج المتصوف الإسلامي المشهور، اتهمه الخليفة المقتدر بالله بالكفر وحُكم عليه بالموت. فضُرب بالسياط نحواً من ألف سوط، ثم قُطعت يداه ورجلاه، وضربت عنقه، وأحرقت جثته بالنار ثم ألقي ما تبقى من تراب جثته في نهر دجلة[2].

وشيخ الاستشراق المتصوف السهروردي، الذي قضى أهم مراحل حياته في حلب، حيث اجتمع بعظمائها وعلمائها في عهد الملك الظاهر بن الناصر صلاح الدين، وجادلهم وتفوق عليهم، فقربه الظاهر وصار مكيناً عنده، فوشى به الفقهاء وطعنوا في عقيدته، ما تسبب بإعدامه في قلعة حلب، سنة 586هـ، 1191م[3].

والإمام الجليل أحمد ابن حنبل، عاش في عصر المأمون، وعاصر الفتنة التي آمن بها الليفة المأمون حول خلق القرآن، وقد عارضه ابن حنبل في رأيه فأمر بسجنه وتعذيبه، وبعد وفاة المأمون خلفه أخوه المعتصم الذي سار على نهج المأمون بوصية منه، وأمر باستمرار سجن وتعذيب ابن حنبل، واستمر على هذا الحال أكثر من عامين، وبسبب إصراره على موقفه أطلقه سراحه المعتصم وعاد ابن حنبل للتدريس. وبعد وفاة المعتصم تولى الخلافة الواثق بالله الذي أعاد المعاناة لابن حنبل، فمنعه من التدريس ومخالطة الناس لأكثر من خمس سنوات، حتى توفي الواثق عام 232هـ، 847م وتولى الخلافة بعده المتوكل فأبطل بدعة خلق القرآن، وترك للناس حرية الاعتقاد، وكرّم ابن حنبل، وظل على هذه الحال حتى وفاته عام 241هـ[4] 855م.

أما الكندي، فيلسوف العرب، فقد كان محظياً في عهد المأمون والمعتصم والواثق، لكنه في عهد المتوكل جُرد من ملابسه وهو في الستين، وجُلد ستين جلدة في ميدان عام وسط هتاف وتهليل العامة، لاتهامه بالكفر والزندقة[5].

وأبو بكر الرازي، ضرب على رأسه بكتبه حتى فقد البصر، وعندما طلب أحد تلاميذه علاجه، رفض وقال: "لقد نظرت إلى الدنيا حتى مللت". وابن رشد، حُرقت داره وكتبه وأتهم في

---

[1] ينظر الموقع www.diwanalarab.com
[2] مرجع سابق رقم 10 ـ الموقع www.diwanalarab.com
[3] مرجع سابق رقم 10.
[4] مرجع سابق رقم 10.
[5] مرجع سابق الموسوعة العربية العالمية ـ مادة الكندي.

إيمانه. ولم ينج ابن سينا أو ابن خلدون من الاتهام بالكفر[1] الذي كان سلاح المتخلفين الرجعيين.

بعد هذا السرد، يجدر التنويه إلى أننا عندما أوردنا هذه الأمثلة، لم تقصد أن نبخس الخلفاء، فننكر إنجازاتهم العظيمة، وفتوحاتهم الواسعة، أو أن نسيء لأحد منهم، لكننا أردنا فقط إظهار العقليات المتخلفة الرافضة للجديد، والمانعة للتطور، والمنغلقة عن فهم حقائق التاريخ والمجتمع والعالم والكون، تلك العقليات المتحجرة الفاسدة التي كانت تحيط ببعض الخلفاء الذين كانوا يشوهون صور الفقهاء والعلماء والأطباء والفلاسفة، لدرجةٍ كانت تدفع الخليفة للأخذ بآراء الكثرة، والوقوع بمثل هذه الأخطاء الفاحشة والسقطات المريعة. فالخليفة لا يملك دستوراً يضبط أفعاله وينظم تصرفاته، ويحدد مهام العامة والخاصة، بل كان الأمر متروكاً لقناعته وما يضعه المقربون أمامه. والمستهجن أن ما كان يراه هذا الخليفة صواباً، ربما رآه غيره خطأً، وما حادثتاي الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، الذي عُذّب في عهد المأمون والمعتصم والواثق، وكُرّم وأُحسنت معاملته في عهد المتوكل. وعلى النقيض من ذلك أبو يوسف الكندي، الذي كان مقرّباً في عهد المأمون والمعتصم والواثق، بينما في عهد المتوكل أُهين وجُلد أمام العامة. إن هاتين الحادثتين هما دليلٌ بيّنٌ على تباين الآراء والأحكام بين خليفة وآخر، وهذا مرده لتباين البطانة والحاشية التي تحيط بكل منهم.

• الرجعية في العصر الحديث:

أولاً، في أوروبا:

ظهر أول استخدام لمصطلح "الرجعية" في فرنسا بعد الثورة الفرنسية 1789 ـ 1799، مع أنها (أي الرجعية) كانت متأصلةً في الفكر والممارسة للسلطات المتنفذة، منذ أكثر من ألفي عام. وقد أُطلق المصطلح على التيار المعارض للثورة والتقدم والحداثة، الرافض لمبدأ تقليص سلطة الكنيسة. وكان نضال معارضي الثورة منصبّاً على استعادة سلطة الكنيسة. ومع انبثاق عصر الثورات في الدول الأوروبية وعلى رأسها الثورة الصناعية والثورة البورجوازية[2] والثورة الليبرالية[3] ونشوء الفكر القومي، الذي أصبح أيديولوجيةً وحركة اجتماعية سياسية، أفضت لظهور مفهوم الأمة، "فقد اندثرت بعض النظريات

---

[1] مرجع سابق رقم 10.

[2] البرجوازية (bourgeoisie): كلمة فرنسية الأصل تدل على الطبقة الوسطى القائمة بين طبقة النبلاء والطبقة العاملة.

[3] الليبرالية، مشتقة من كلمة الحرية الإنجليزية "liberty" وهي مذهب يرى حرية الأفراد والجماعات في اعتناق ما يشاءون من أفكار والتعبير عنها بشكل مطلق.

السياسية التي كانت سائدة في العصور الوسطى، ومن ذلك النظرية القائلة بأن الكنيسة لها الهيمنة على الحياة الروحية الدينية، في حين يحكم الإمبراطور في الأرض بتفويض من الله، وليس لأحد أن يحاسب الإمبراطور... وظهرت نظريات جديدة تناسب العصر"[1].

لقد ترافق التقدم العلمي والحرية الفكرية والانعتاق من هيمنة الكنيسة في المجتمع الأوروبي، إلى بروز العديد من السلبيات، فـ"من الآثار السيئة التي لا يمكن إغفالها لعصر النهضة، تلك السلبيات التي بدأت تظهر كنتيجة طبيعية لهذا التقدم والتطور في شكل الحياة... بعد ظهور هذه النهضة انحلت الأخلاق، وتداعت القيم وسقطت المبادئ"[2]. والمستهجن في الأمر أن يصل الانحلال الخلقي إلى رجال الدين الذين كانوا يحرقون كل من ينادي بالحداثة أو التطور في الخطاب الديني، فبعد عصر الثورات انغمس هؤلاء في ملذات الحياة متناسين ما كان ينادي به أسلافهم، "وإذا كنا نعلم أن البابا كان يعيش في العصور الوسطى في القصر كما لو كان ملكاً متوجاً، فإنه من السهل علينا أن نعرف الصورة التي أصبح عليها في عصر النهضة هذا، خاصة بعد أن انحلت القيم على الشكل الذي أوضحناه. فبالإضافة إلى الملذات والمحرمات التي انغمس بها رجال الدين، نجدهم يبحثون عن الأموال، فلكل شيء ثمنه... ومن ثم كانوا يتبعون كل الوسائل الشريفة وغير الشريفة، المشروعة وغير المشروعة لجمع الأموال، فإلى جانب جمع التبرعات والهبات كانوا يبيعون صكوك الغفران ويشتركون في أعمال السلب والنهب، والأكثر من ذلك هو الاعتداء على النساء كما لو كانوا أمراء في العصور الوسطى، ومن ثم ظهر تطور طبيعي متوقع، لتجاوز كل هذه السلبيات فيما بعد، في العصر الذي اصطلح على تسميته بعصر الإصلاح الديني، الذي أراد رواده القضاء على هذه المهازل"[3].

إزاء هذا التطور الذي أدار للكنيسة ظهر المجن، وتحوّل إلى نقيضها، وشرع في ممارسة الحرية غير المقيدة التي دفعت بالمجتمع نحو الفساد، الذي لم ينجُ من أدرانه حتى رجال الدين الذين حاربوا الحداثة والتطور والإصلاح، حين شنوا حرباً شعواء على الإصلاحيين والعلماء والمشككين بآراء الكنيسة في أمور ليست من اختصاص الكنيسة، وهي خارج إطار اللاهوت.

إزاء هذا التطور برزت الرجعية بوجه جديد فانتقل المفهوم ليشمل طبقة الإقطاعيين والرأسماليين وكبار البورجوازيين، الذين كانوا حريصين على حماية امتيازاتهم ومصالحهم، بمحاربة كل جديد قد يسلبهم جزءاً أو كل منجزاتهم المادية والمعنوية، ولو أدى هذا الحرص لإنزال الظلم والقهر على

---

[1] التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى الحرب العالمية الأولى ـ د. عبد العزيز سليمان نوار ود. محمود محمد جمال الدين ـ 1999 ـ دار الفكر العربي ـ جهورية مصر العربية ـ مدينة نصر ـ صفحة 10.

[2] المصدر السابق (التاريخ الأوروبي الحديث..) ص 13.

[3] نفس المصدر السابق (تاريخ أوروبا الحديث..) ص 13.

جمعٍ غفير من أبناء الشعب.

"في مطلع القرن العشرين، وعقب الثورة الاشتراكية عام 1917، حمل مفهوم الرجعية مدلولاً يشير إلى معارضي الاشتراكية والشيوعية، كأنصار الجيش الأبيض، الذين قاتلوا في أثناء الحرب الأهلية الروسية ضد البلاشفة. وتنظر الماركسية لاصطلاح الرجعية على أن صفة تحقير تدل على الذين يحملون أفكاراً قد تبدو في ظاهرها اشتراكية، وفي جوهرها، تحتوي على عناصر من الإقطاع والرأسمالية والفاشية أو غيرها... كما يدل المصطلح أيضاً على أنصار الاستبداد ومناوئي الشيوعية"[1].

وبعد الحرب العالمية الثانية استعرت الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، واستمرت حتى انهيار الاتحاد السوفييتي واستئثار الغرب الاستعماري وعلى رأسه الولايات المتحدة، بالهيمنة على مقدرات العالم.

ثانياً، في الوسط العربي:

كانت الرجعيات العربية في بلاد الحجاز والخليج العربي استمراراً للرجعية التي كانت سائدة لعدة قرون خلت. فعندما احتل نابليون مصر 1798 وزحف شرقاً لفتح طريق بري إلى الهند، خشي مشايخ ورؤساء العشائر من هذا الزحف، وتوقعوا أن يحتل نابليون إماراتهم ليكمل طريقه إلى الهند، كي يحارب البريطانيين هناك بعد أن يكون قد ضمن خطوط إمداد برية من مصر إلى الهند. إزاء هذا الوضع ارتأى رؤساء العشائر أن يعقدوا اتفاقاً مع بريطانيا لحمايتهم من احتلال نابليون لبلدانهم، لقاء السماح لها بإقامة قواعد بحرية في الخليج وتقديمهم المساعدات المطلوبة، وتم استعمار الجزيرة العربية ومشيخات الخليج تحت شعار الحماية، وأُطلق على تلك المشيخات اسم "المحميات".

بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى 1918 وتقاسم بريطانيا وفرنسا تركة الرجل المريض، بدأ الإنكليز في البحث عن رجل في الجزيرة العربية يخلف الشريف حسين عقب تنصل بريطانيا لوعودها التي قطعتها له بمنح العرب استقلالهم وتوحيدهم إذا ساعدوها على هزيمة تركيا، وبعد أن فقد الشريف حسين ولاء العرب بسبب عجزه عن انتزاع الوعود البريطانية المأمولة، كان البحث عن تلك الشخصية الأكثر ارتماءً في الحضن البريطاني حاجةً ملحة.

وجدت بريطانيا ضالتها في عبد الرحمن آل سعود الذي يعتنق المذهب الوهابي الرجعي، الطامح لتوريث أبنائه مملكة وهابية مترامية الأطراف في الجزيرة العربية، فعرضت عليه بريطانيا توسيع

---

[1] موسوعة ويكيبيديا على شبكة الإنترنت ـ مادة reactionary.

سلطانه وتنصيبه ملكاً، لكنه اعتذر بسبب كبر سنه، وقدّم ولده الشاب عبد العزيز آل سعود للعب هذا الدور. وعندما تحسست بريطانيا في هذا الشاب رجعيته المبكرة، المتمثلة بتحجر العقل وقسوة القلب ونبذ كل جديد يؤدي إلى الإصلاح والتطور، ولمست في الوهابية التي يعتنقها حجة بالغة تحول بينه وبين الانفتاح على العالم والتأثر بعجلة التقدم المتسارعة، شرعت بريطانيا في دعم الجيش الوهابي لاحتلال إمارات شبه الجزيرة العربية واحدة تلو الأخرى، فسحقت جيوش الشريف حسين في الحجاز، ودخل آل سعود مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتوسعوا شرقاً فاحتلوا نجد وسط الجزيرة العربية التي كان يحكمها آل رشيد، واستمروا في تقدمهم شرقاً واحتلوا الإحساء على ساحل الخليج العربي، ثم اتجهوا جنوباً ليحتلوا نجران وعسير، وهكذا احتل آل سعود بمساعدة البريطانيين أربعة أخماس الجزيرة العربية، تم ضمها جميعاً تحت اسم "المملكة العربية السعودية". لتكون نظاماً رجعياً عربياً، مرتبطاً بالرأسمالية والاستعمار الأوروبي.

وجدت الرجعية العربية في الجزيرة والخليج نفسها بحاجة لحماية دولة كبرى من الأخطار التي تتهددها. لذا كانت "بريطانيا العظمى" هي الضامن لاستمرار بقائها، وفي الوقت نفسه وجدت بريطانيا أن مصلحتها تقتضي تعزيز وجودها في الجزيرة العربية، وحماية ذاك النظام الرجعي الوليد، لاسيما بعد اكتشاف النفط في الإحساء، فكانت المنفعة بين بريطانيا وآل سعود متبادلة، يؤمِّن كل طرفٍ فيهما مصالح الطرف الآخر.

بعد الحرب العالمية الثانية تراجع دور "بريطانيا العظمى" وبرزت الولايات المتحدة كقوة عظمى يُحسب لها ألف حساب، خاصة بعد ضرب اليابان بقنبلتين نوويتين أدتا لاستسلامها غير المشروط. على إثر ذلك انتقلت تبعية الرجعية العربية في الجزيرة والخليج من بريطانيا العجوز إلى الولايات المتحدة، الدولة الإمبريالية الفتية، لتكون جزءاً من برنامجها الاستعماري في المنطقة العربية. وإذا أردنا خلال هذا البحث أن نستعرض جرائم ومؤامرات الرجعية العربية على الأمة العربية بداية من العهد السعودي حتى الآن، نكاد أن نقف عاجزين عن إحصائها، لذا اخترنا بعضها لاستعراضه في عجالة، لإظهار الدور التخريبي المشبوه، الذي قامت وتقوم به الرجعية العربية خدمة للاستعمار وأهدافه في المنطقة العربية.

• محطات من التاريخ الأسود للرجعية العربية:

الكفاءة السياسية لأي حاكم لا يستمدها من نسبه الذي ينحدر منه، ولا من سطوته التي فرضها على غيره، ولا برأسماله الذي يملك، ولا بارتمائه في أحضان اللاعبين الكبار، ولا بكبر حاشيته وعشيرته، ولا بأي شأن يتجاوز المؤهل والكفاءة والخبرة. وهذا ما كان من أمر الشريف حسين أمير مكة، الذي يعود بنسبه (حسب المصادر) إلى الرسول الكريم ﷺ. إن انتماءه لهذا النسب الشريف ليس كافياً لجعل صاحب هذا النسب، رجل سياسة وقائداً عسكرياً وأمنياً وخبيراً اقتصادياً ومصلحاً اجتماعياً ودينياً. والدليل على ذلك سذاجة الشريف حسين التي أوصلت ضابط المخابرات البريطاني "لورانس" إلى مواقع القرار في بلاد الحجاز، ليرسم ويشرّع ويخطط نيابة عن أولي الأمر وأصحاب الشأن[1]. هذا من جانب، ومن جانب آخر تجسد الجهل بدهاليز السياسة وأصول العلاقات بين الدول، في ثقته العمياء بالبريطانيين، ما ساهم في إنجاح الخديعة الكبرى، حين أنكرت بريطانيا عهودها، ليعقب ذلك تقسيم وتقاسم الوطن العربي بين بريطانيا وفرنسا بدلاً من توحيده ومنحه الاستقلال المأمول.

وعقب استيلاء آل سعود على مقاليد الأمور في الجزيرة العربية، وتأسيس المملكة الوهابية السعودية، جسّدت هذه المملكة مثالب الرجعية العربية بأقبح صورها، وقد تجلت هذه المثالب بموافقة الملك عبد العزيز آل سعود على التنازل عن فلسطين ومنحها لليهود "المساكين"، حيث جاء في وثيقة التنازل: "أنا السلطان عبد العزيز آل سعود، أقر وأعترف ألف مرة للسير برسي كوكس مندوب بريطانيا العظمى، لا مانع عندي من أن أعطي فلسطين للمساكين اليهود أو غيرهم، وكما تراه بريطانيا التي لا أخرج عن رأيها حتى تصبح الساعة"[2].

وعلى صعيد "اليهود المساكين" فقد ازداد تدفقهم إلى فلسطين، بعد منحها إليهم من بلفور الأول وبلفور الثاني وسط تجاهل بريطاني وعربي رسمي للأعداد الكبيرة للوافدين منهم إلى فلسطين بطريق مشروعة وغير مشروعة، هذا فضلاً عن قيام بريطانيا بمنحهم الأراضي الأميرية التابعة للدولة. ونتيجة لذلك، وفي عام 1936 "في العشرين من نيسان ـ إبريل شُكّلت في نابلس لجنة قومية عربية قررت إعلان الإضراب العام في البلاد كلها، على أن يستمر الإضراب إلى أن تعلن الحكومة موافقتها على المطالب التي قدمت إليها في شهر تشرين الأول ـ أكتوبر السابق"[3]. وكما هو منطق الاستعمار دائماً الذي يعتقد أن القوة كفيلة بكسر إرادة الشعوب فقد "بدأت التعزيزات العسكرية

---

[1] مرجع سابق ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ المجلد السادس ـ صفحة 2894.

[2] للإطلاع على نص وثيقة التنازل عن فلسطين ينظر الموقع: http://www.cham-post.com/news/763.html

[3] مرجع سابق (موسوعة السياسة ـ ج1) صفحة رقم 915.

البريطانية بالتدفق على فلسطين من مصر ومالطا. وفي اليوم الثالث والعشرين من أيار ـ مايو أُلقي القبض على 61 عربياً من المشرفين على تنظيم الإضراب"[1].

بعد ستة أشهر من الإضراب الكبير الذي شل جميع مناحي الحياة في فلسطين، وبعد أن استنفدت بريطانيا كل الوسائل لكسر الإضراب ووقف المقاومة المسلحة، أدركت أن لا سبيل لإنهاء الإضراب إلا اللجوء إلى الرجعيات العربية في أرض الحجاز والعراق وإمارة شرق الأردن، فبدأت اتصالاتها بهم للضغط على الفلسطينيين، "ونتيجة لهذه الاتصالات... وجه الملك ابن سعود والملك غازي والأمير عبد الله في العاشر من تشرين الأول ـ أكتوبر نداءً مشتركاً، دعوا فيه إلى حل الإضراب ووقف الثورة، والاعتماد على النيات الطيبة لصديقتنا بريطانيا العظمى التي أعلنت أنها ستحقق العدالة"[2]. واستناداً لهذه الوعود أوقف الفلسطينيون إضرابهم وأعمالهم المسلحة، وعندما طلبوا من بريطانيا الوفاء بوعودها، قالت: "نحن لم نطلب الوساطة من أحد". وهكذا تتكرر الخديعة، وتنطلي على الحكام الرجعيين الذين ربما كانوا جزءاً من لعبة الخداع والتآمر. مما حدا بالفلسطينيين أن يعودوا للكفاح المسلح من جديد.

لقد ازدادت أعداد اليهود في فلسطين إلى حد أصبح معادلاً تقريباً لأعداد السكان الأصليين، وكثرت المغتصبات الصهيونية، وانتشر السلاح في أيديهم، وأنشؤوا معسكرات التدريب تحت مرأى ومسمع الجميع. وفي عام 1946 صدر قرار التقسيم المشؤوم، الذي أعطى اليهود نصف فلسطين اعترافاً وتكريساً لوجودهم غير المشروع فيها. كل هذا يتم في وضح النهار، والرجعية العربية تهلل لنجاح مشروعها الذي أعطى فلسطين لليهود. وهكذا قام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين عام 1948.

في عام 1952 قامت ثورة تموز ـ يوليو في مصر، وتزعم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر هذه الثورة، وبدأ يُلهب مشاعر الشعوب العربية في أرجاء الوطن العربي بخطاباته الثورية النارية، ودعوته الصريحة لوحدة العرب وتماسكهم، وتكريس قوميتهم العربية، وطرد الاحتلال الصهيوني من فلسطين، والفرنسي من الجزائر، والبريطاني من محميات الخليج. وبطبيعة الحال لم تُرق هذه المواقف للدول الاستعمارية، فأوعزت لعملائها الرجعيين بوأد ثورة تموز باغتيال قائدها. وفي عام 1954 وفي أثناء إلقاء الرئيس الراحل جمال عبد الناصر إحدى خطبه أمام حشد كبير من المواطنين في ميدان المنشية بالإسكندرية، أطلق عليه النار أحد أعضاء الإخوان المسلمين فأخطأ هدفه، وفشلت عملية الاغتيال.

---

[1] مرجع سابق (موسوعة السياسة ـ ج1) صفحة رقم 915.
[2] مرجع سابق (موسوعة السياسة ج1) صفحة رقم 916.

في العام 1958 قامت أول وحدة عربية اندماجية بتاريخ العرب الحديث، بين سورية ومصر، فأحاطت بالكيان الصهيوني في شماله وجنوبه، الأمر الذي عرض وجوده للخطر، فأوعزت الإمبريالية الغربية لعملائها في المنطقة، بالتفاني لإسقاط المشروع الوحدي بين مصر وسورية، حتى لا نكون نواةً لوحدة عربية شاملة. فقامت الرجعية العربية بتمويل مشروع الانفصال الذي وقع عام 1961 لتجهض أول خطوة وحدوية عربية.

وفي عام 1962 قام العقيد عبد الله السلال بثورة على النظام الرجعي للإمام البدر في اليمن، بمباركة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وعندما اندلعت مواجهات بين الثوار وبعض القبائل، عجزت قيادة الثورة عن مواجهة القبائل المتمردة، ما استدعى طلب المساعدة من الرئيس جمال عبد الناصر، الذي هب لمساعدته بإرسال كتيبة صاعقة مصرية إلى ميناء الحديدة وصلت في 10/5/ 1962، للقتال إلى جانب قوات السلال. على إثر ذلك قامت الرجعية السعودية بإرسال أربع طائرات شحن محملة بالأسلحة لتسليح القبائل الموالية للإمام البدر، وكان موقف مصر عبد الناصر من هذا الإجراء أن رفعت تعداد جنودها تدريجياً في اليمن حتى وصل عام 1965 إلى خمسة وخمسين ألف جندي[1]، الأمر الذي ترك خللاً واضحاً في ميزان القوى بين مصر والكيان الصهيوني، ما حفّز هذا الكيان على شن عدوان حزيران 1967 على دول ثلاث بعد تدمير سلاح الجو المصري، واحتلال قطاع غزة وسيناء، وصولاً إلى قناة السويس، وتوقف الملاحة فيها. أما على الجبهة السورية فقد أدى العدوان إلى احتلال هضبة الجولان. وعلى الجبهة الأردنية تم احتلال الضفة الغربية بما فيها القدس العربية التي ما زالت محتلة حتى اليوم.

في حرب تشرين المجيدة عام 1973، قامت الأنظمة الرجعية العميلة بعدة إجراءات إرضاءً لأسيادها الغربيين. فالملك حسين لدى علمه بنوايا مصر وسورية في شن حرب على الكيان الصهيوني خلال "عيد الغفران" اليهودي، قام بإعلام الولايات المتحدة عن هذه النوايا، لكن الولايات المتحدة لم تفاجأ بهذا التسريب، لأن أنور السادات كان قد سبقه في إعلام أمريكا عنها، وأكد للرئيس الأمريكي "ريتشارد نيكسون" أن مصر لا تنوي تدمير "إسرائيل" بقدر ما تنوي تحريك العملية السلمية في الشرق الأوسط.

وعلى جانب آخر قام الملك فيصل، ملك العربية السعودية بقطع النفط عن الدول المؤيدة لـ"إسرائيل" خلال حرب تشرين المجيدة، في موقف مستهجن وغير مألوف عربياً ودولياً، لكن الإمبريالية الغربية لم تغفر له هذا الموقف فأرسلت ابن شقيقه ليغتاله في قصره صبيحة يوم الثلاثاء 25 آذار 1975 ليكون عبرة لغيره بأن هذا المصير سيلقاه كل من يحاول أن يخرج عن ولاء وطاعة العم سام من الرجعيين العرب.

---

[1] للتوسع ينظر الموقع www.addthis.com

وبسبب تنامي العمليات الفدائية، وشيوع نمط العمليات الاستشهادية في فلسطين المحتلة، كعملية الهجوم على مطار اللد عام 1972، وعمليات الخالصة وأم العقارب وبيسان عام 1974 وغيرها الكثير من العمليات الاستشهادية، أشعل اليمين اللبناني ممثلاً عن الرجعية العربية فتيل الحرب الأهلية في لبنان، فشغلت المقاومة الفلسطينية عن عملياتها الفدائية لأكثر من خمسة عشر عاماً (نيسان/1975 ـ تشرين الأول/1990)، فضلاً عن استنزاف طاقاتها البشرية والمادية بلا طائل. وبعد سبع سنوات من بداية هذه الحرب المجنونة، أُنهك الفلسطينيون ومعهم المقاومة الوطنية اللبنانية، دخلت قوات الغزو الصهيوني من جنوب لبنان للقضاء على آخر معاقل المقاومة، وزحف الجيش الصهيوني حتى وصل إلى بيروت، وسط رضا وتهليل ومباركة الأنظمة العربية العميلة. ولم تتوقف الحرب الأهلية إلا عقب خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان، وتشرذمها ما بين تونس واليمن والسودان.

وعندما اعتلى الرئيس الأحمق "بوش" الابن كرسي الرئاسة في الولايات المتحدة، وحدثت عملية تدمير برجي التجارة العالمية في نيويورك، والتي لم يستطع أحدٌ ــ حتى يومنا هذا ــ الإجابة عن السؤال: لماذا تغيّب يوم 11 أيلول/سبتمبر 2011 ثلاثة آلاف موظف يهودي عن الدوام في البرجين؟!!. وعلى الرغم من هذا اتخذ "بوش" الابن ذلك الهجوم ذريعة لاحتلال أفغانستان عام 2001، انطلاقاً من باكستان الدولة الرجعية المجاورة لها. ومن بعدها احتل العراق عام 2003 انطلاقاً من أراضي الدول الرجعية المجاورة له، وبقي الاحتلال ثماني سنوات، خرج بعدها المحتلون عام 2011، بعد أن قتلوا شعبه وسرقوا نفطه وتركوه يسبح في برك الدماء حتى يومنا هذا.

في عام 2006 غزا العدو الصهيوني جنوب لبنان، بعد أن أعد قادة الكيان الصهيوني العدة جيداً لتحرير الأسيرين اللذين أسرهما مقاتلو حزب الله، وفي الوقت عينه لتغطية الهزيمة التي مني بها عام 2000 عندما أُرغم على الانسحاب من جنوب لبنان، وتركه لأصحابه اللبنانيين. لقد دك العدو الصهيوني معاقل المقاومين والمدنيين على حد سواء، هذا فضلاً عن تدمير البنى التحتية لعموم لبنان. واستمرت الحرب ثلاثة وثلاثين يوماً، ولم يبدر عن رؤوس الرجعية العربية أية ردود أفعال، ولو كانت استنكاراً خجولاً أو شجباً شكلياً للعدوان، بل على العكس حمّلوا حزب الله المسؤولية عما يحدث، وأصدر شيوخ الفتنة آنذاك فتوى تحرم نصرته، مطالبين قادة الاحتلال بسرعة القضاء على المقاومة الإسلامية في لبنان. لكن الله خيّب آمالهم حين خرجت القوات الصهيونية من الجنوب تجر ذيول الخيبة والخذلان.

وفي إثر نجاح حماس في الانتخابات التشريعية الفلسطينية عام 2006 فرض قادة الكيان الصهيوني حصاراً خانقاً على قطاع غزة الذي كان تديره حركة حماس. وشارك الجانب الرجعي

المصري بهذا الحصار عن طريق إغلاق معبر رفح الحدودي، وهو المعبر الوحيد الذي يربط قطاع غزة بالعالم الخارجي. والقصد من ذلك واضح وجلي، وهو إحكام الحصار وزيادة معاناة الشعب الفلسطيني في القطاع خدمة للعدو الصهيوني الغاشم. لقد عانى سكان القطاع قبل عدوان عام 2008 وفي أثنائه وبعده كل أشكال الضنك التي يمكن أن تخطر على البال، من نقص الغذاء والدواء والماء، وانقطاع الكهرباء عن المساكن والمشافي، ونقص المحروقات ومصادر الطاقة، بينما كان الغاز المصري يتدفق على الكيان الصهيوني بأسعار زهيدة تشبه المجّان. واليوم ورغم سقوط نظام "كامب ديفيد" الرجعي العميل، وانتصار ثورة 25 يناير، فإن معبر رفح ما زال مغلقاً، بل على العكس من ذلك فبدل فتح المعبر، اتخذت الحكومة المصرية قراراً بردم الأنفاق التي تربط رفح الفلسطينية مع رفح المصرية، وصب الإسمنت بداخلها لمنع حفرها مرة أخرى، ولإحكام الحصار على القطاع.

وفي النصف الأول من عام 2011 رعت قطر مباحثات سلام بين ممثلي الخرطوم وجوبا في الدوحة، وقد أسفرت هذه الرعاية المشبوهة عن تكريس انفصال جنوب السودان عن شماله، وقيام دولة جنوب السودان بمباركة رجعية عربية، وعلى رأسها الجامعة العربية. فمنذ اليوم الأول لقيام هذه الدولة، التي سلبت جزءاً غالياً من دولة عربية، لتقوم عليه دولة ناطقة بالإنجليزية، سارعت كل من مصر والسودان وقطر وليبيا والأردن إلى الاعتراف بهذه الدولة. "وقال السفير صلاح حليمة مبعوث الجامعة العربية إلى السودان: لا شك أن إعلان استقلال جنوب السودان حدث تاريخي له أبعاد كثيرة، مشيراً إلى أن الجنوب بات حالياً دولة من دول الجوار للسودان، ويهمنا أن يسود الأمن والاستقرار والسلام ليس فقط في السودان لكن في المنطقة كلها"[1].

وبطبيعة الحال "لم تنس دول الخليج العربي أن تشارك في عرس انفصال الجنوب فدفعت ببعض أموالها لزراعة الأراضي وشق الطرق وإقامة بعض المشروعات المشتركة بينهما"[2].

وتسعى قطر حالياً للعب نفس الدور في ملف إقليم دارفور، فهي تحشر أموالها قبل أنفها لاستلام هذا الملف والتوجه إلى النتائج عينها التي توصلت إليها في رعايتها المباحثات السلام بين جوبا والخرطوم.

وفي بداية عام 2011 تلبدت سماء الوطن العربي بسحابات "الربيع العربي" السوداء، ولم تنأ الرجعية العربية بنفسها عن هذه الأحداث، بل دعمتها ومولتها، وركبت موجتها ووجهت بوصلتها، وتدخلت على نحو سافر في الشؤون الداخلية للدول العربية. وكانت سورية أكثر المتضررين بهذه

---

[1] صحيفة الشعب اليومية الصينية على شبكة الإنترنت بتاريخ 2011/7/11.

[2] مصدر سابق ـ صحيفة الشعب اليومية الصينية.

الأحداث المدعومة رجعياً وصهيونياً وغربياً، والمستمرة منذ أكثر من عام ونصف. نعم، لقد دفعت سورية ثمناً باهظاً يفوق ما دفعته في كل حروبها مع العدو الصهيوني، ليس لمواقفها السياسية فحسب، بل لأن تطوراً ملحوظاً طرأ على مكانة سورية في العقد الأخير، فقد اتجهت نحو بناء الذات، واستكمال عوامل النهضة وموجبات التقدم، وخطت خطوات إيجابية على طريق التنمية. ويكفيها فخراً أنها الدولة العربية الوحيدة التي لم تثقل اقتصادها بالديون الداخلية أو الخارجية، رغم أنها دولة ليست نفطية. كما أن الأعداء شهدوا لجيشها الباسل الذي ارتقى بخبرته وكفاءته ليحتل مراتب متقدمة في سلم التصنيف الدولي، وشرعت الصناعة بما فيها الصناعات الثقيلة تشق طريقها نحو الأمام، هذا فضلاً عن الموقع السياحي الأثري والتاريخي الممتاز لسورية، والمستوى الخدمي الجيد المتاح للجميع، ورخص الإقامة فيها بالقياس لباقي الدول، يتوج كل ذلك الأمن والأمان الذي شهد به وفد كنسي أمريكي حين زار سورية العام الفائت، إذ قال أحد أعضائه: "أشعر بالأمان وأنا أسير في شوارع دمشق، أكثر مما أشعر به وأنا أسير في شوارع شيكاغو". فهل يعقل أن يرى الأعداء كل هذا ويقفوا مكتوفي الأيدي؟، بالطبع لا. لذا دفعت الإمبرياليةُ الغربيةُ والصهيونيةُ الرجعيةَ العربية لتكريس أموالها وإعلامها وشيوخ الفتنة فيها، للعمل بالطاقة القصوى لدعم التغيير السلبي في سورية، وهو المطلوب صهيونياً وغربياً.

• الخاتمة :

إن الرجعيات على مدى التاريخ، وخاصة الرجعيات التي أضفت على نفسها نفحات من القداسة، متظاهرة بالورع والتقوى، واستثمرت مهارتها في داع الناس، والزعم بامتلاك طاقات خفية منحتها لهم الآلهة في العصر الوثني، وكرامات منحها الله لهم في عصر الأديان. إن هذه الرجعيات لم تكن إلا عوامل كبح ولجم لتقدم وازدهار الشعوب. وقد تحمّل الأنبياء أذى الوثنيين وأشباههم حتى آمن معظمهم، وتبين لهم أنه الحق. كما تحمّل العلماء من رجال الفكر والعلم والاختراع في الدول الأوروبية ويلات الفكر الرجعي، وسطوة محاكم التفتيش، اللذيْن سادا لعدة قرون، فقُتل بعضهم حرقاً وبعضهم بالمقصلة وبعضهم بتقطيع الأطراف إلى آخر ما هنالك من ابتكارات سادية بربرية أودت بحياة الكثيرين. ولم يكن العالم الإسلامي في منأى عن أعمال كهذه، فهذا ابن المقفع تُقَّطع أوصاله، وهذا الحلاج تُضرب عنقه، والسهروردي يُعدم في القلعة، وأحمد ابن حنبل يُسجن ويُعذب، إلى آخر ما هنالك من جرائم ارتكبت باسم الدين والغيرة على الإسلام، والإسلام من هذه الأفعال براءٌ براء.

أما في العصر الحديث، فحدّث ولا حرج، فقد ضربت الرجعية العربية جذورها في بلاد الحجاز ومشيخات الخليج، و مارست أبشع وأقذر الجرائم وأفظعها. فإذا كانت الانتهاكات في صدر

الإسلام طالت أفراداً، فهي في عصرنا الحالي تطال دولاً وشعوباً وأفراد. لقد وظفت الرجعية العربية لهذه المعركة، كل ما تملك من إمكانات مادية وإعلامية، فضلاً عن فتاوى شيوخ التضليل والفتنة، الذين أباحوا الحرام وحرّموا الحلال. فما تفسير كهنوت الرجعية لتناقض فتاويهم بين ما يحصل في سورية وما يحصل في القطيف، فأعمال العنف والقتل الجماعي ــ في عرفهم ــ مباحة مسموحة في سورية، والمسيرات السلمية في القطيف محرمة وممنوعة شرعاً وقانوناً.

إن أزمة الرجعية العربية برمتها، في كونها تعاني الخواء الفكري، والتبلد الذهني اللذيْن يحولان دون أي تغيير ولو كان نحو الأفضل، لأن الأفضل في رأيهم هو الواقع الراهن، فهم وقوف جامدون، والوقوف حينما يسير الكل إلى الأمام، هو تراجع نحو الخلف، تماماً كراكب القطار السائر الذي يرى كل ما يقف على الأرض يتراجع. أما مفكرو ومنظرو الفضائيات العربية، فهم إلى حد بعيد مفكرو بلاط وأبواق سلاطين. وإن تأييد تلك الدول الرجعية العميلة، والفضائيات المشبوهة والمفكرين الموتورين للـ"فورات العربية "، "هي وصمة عار في جبينها، وهي دلالة قاطعة على أن طينة الجميع واحدة، أُخذت من نفسه الملاط.

❑❑

إشكاليَّات التحول الديمقراطي في الوطن العربي

"الربيع العربي" أنموذجاً

□ حمزة محمد أبو حسن*

مقدمة:

ما تزال المنطقة العربيَّة تشهد تحولاً استراتيجياً في بنية نظامها السياسي على الصعيد الوطني والإقليمي، ومنذ انطلاق الحراك الشعبي على شكل ثورات أو توجهات إصلاحية ظهرت القدرة الكامنة لديناميكيات المجتمع العربي وحركاته السياسيَّة التقليديَّة وبمشاركة فاعلة وأساسيَّة من قطاعات الشباب (الذي سخَّر وسائل التواصل الإعلامي والاجتماعي الحديثة لخدمة برامج هذا الحِراك).

إنَّ الرغبة في المطالبة بالديمقراطيَّة أو بالتحول الديمقراطي أمر مختلف في جوهره عن العمل من أجله أو من أجلها كحاجة؛ فالحاجة ضغط نفسي وبيولوجي لا يمكن تأجيله عندما تحين ساعته، بينما الرغبة حاجة مؤجَّلة أو يمكن تأجيلها وليست ضاغطة.

وبرغم التفاوت في تقدير ونهج تعامل النخب السياسيَّة الحاكمة مع هذا الحِراك بمطالبها الوطنية المشروعة، غير أنَّ الخوف من المجهول يُعدُّ القاسم المشترك بينها. ومن المهم في هذه المرحلة أن ندرك أنَّ لهذا التحول الديمقراطي الجاري والمتوقع دلالات سياسيَّة واجتماعيَّة أساسيَّة سوف تؤثِّر في تشكيل المشهد السياسي في مختلف الدول العربيَّة على المستويين المحلي والإقليمي، بل ستؤثِّر في طبيعة العلاقات الإقليميِّة والدوليَّة للعرب.

---

* باحث في شؤون العلاقات الدوليَّة.

كما إنَّه ليس بالضرورة أن تؤدِّي الثورة إلى واقع أفضل، فأحياناً يترتَّب على التغيُّرات السريعة والمفاجئة نتائج سلبية مثل الحرب الأهليَّة، وزعزعة الاستقرار السياسي، أو تردِّي الأوضاع الاقتصاديَّة كما حدث في السودان بعد "ثورة الإنقاذ" (1989) أو في إيران بعد ثورة عام 1979. فمن حيث الأصل فإنَّ عمليَّة "التحوُّل الديمقراطي مرحلة انتقاليَّة بين النُظم التسلُّطيَّة والنُظم الانتخابيَّة، وهذا يمكن أن يحدث بسرعة أو بخطوات بطيئة، بحيث تؤدِّي هذه العمليَّة إلى حدوث تضارب بين الفاعلين السياسيين"[1].

ولتجنُّب مثل هذه النتائج فقد رأى الكثير من الساسة والمفكرين أنَّ التغييرات التدريجيَّة البطيئة التي تُنفَّذ على مراحل وبخطوات محدودة ومتوازنة ومدروسة بأسلوب انتقالي ومرحلي، هي الإصلاحات المطلوبة لأنَّها تؤدِّي إلى النتائج المطلوبة من دون أن تعرِّض الأمن والاستقرار لأية مخاطر(2)، فعلى سبيل المثال أدَّى التحول المفاجئ نحو الديمقراطيَّة في الجزائر إلى حرب أهليَّة، وبالتالي فإنَّ الإصلاح الذي يحرق المراحل قد لا يكتب له النجاح لذا فإنَّه لا ينصح بالتشديد على الإصلاح والتغيير بأي ثمن.

أولاً- مفهوم الديمقراطيَّة والتحول الديمقراطي:

إنَّ أهم صيغة حديثة لمفهوم الديمقراطيَّة قدمها "جوزيف شومبيتر" في دراسته "الرأسماليَّة والاشتراكيَّة والديمقراطيَّة" حيث قام بتحديد أوجه الضعف في النظريَّة الكلاسيكيَّة للديمقراطيَّة وقدَّم نظريَّة جديدة في هذا الشأن توصَّل من خلالها إلى أنَّ النهج الديمقراطي هو اتخاذ التدابير المؤسَّساتيَّة من أجل التوصُّل إلى القراءات السياسيَّة والتي يكتسب من خلالها الأفراد اتخاذ القرار عن طريق التنافس على الأصوات، وباتباع النهج الذي رسمه "شومبيتر" يصل "صموئيل هنتنغتون" إلى أنَّ تحديد مدى ديمقراطيَّة أي نظام سياسي يتمُّ من خلال مدى اختيار أقوى صُنَّاع القرار الجماعي في انتخابات عادلة ونزيهة ودوريَّة يتنافس المرشحون فيها على أصوات الناخبين، التي يحق لكلٍّ بالغ من أبناء الشعب أن يشارك فيها بصوته. ويرى أنَّه بهذا التعريف فإنَّ الديمقراطيَّة تشمل بعدين هما التنافس والمشاركة؛ مشيراً إلى أنَّ "روبرت دال" كان يرى أنَّهما حيويان للديمقراطيَّة والحُكم الجماعي، كما إنَّها تتضمَّن وجود الحريَّات المدنيَّة والسياسيَّة كحريَّة الكلام والنشر والاجتماع والتنظيم والتي ينبغي توافرها للنقاش السياسي وإدارة الحملات الانتخابيَّة. ويضيف "هنتنغتون" أنَّه من خلال هذا التعريف الإجرائي للديمقراطيَّة يمكن تطبيق الشروط الإجرائيَّة للديمقراطيَّة على النظم السياسيَّة المختلفة، بحيث يمكن الخروج بقائمة من الدول التي تُطبِّق الديمقراطيَّة والدول التي لا تطبقها، والدول التي تتبع سبيلاً وسطاً بينهما.

---

(1) Jeffery Haynes. Democracy in the Developing World: Africa, Asia, Latin America, and the Middle East (Great Britain: Wiley Blackwell, 2001), p.19

(2) Samuel Huntington, Political Order in Changing Societies New Haven, Conn. 1968.

وفي الحالات التي شهدت تحولاً سياسياً نحو الديمقراطيَّة يتمُّ التمييز عادة بين عدد من المفاهيم[1]، أهمها:

1 ـ الانتقال الديمقراطي:

يشير الانتقال الديمقراطي (Democratic Transition) إلى تحويل السلطة من يد الحكام المطلقين إلى حكومة ديمقراطيَّة منتخبة، أي اجتياز المسافة الفاصلة بين أنظمة الحكم غير الديمقراطي وأنظمة الحكم الديمقراطي. وعادة ما يتحقَّق الانتقال بعد انهيار النظام القديم، وتوافق القوى السياسيَّة على اختيار النظام الديمقراطي الجديد بمؤسَّساته وإجراءاته وضماناته المتعارف عليها.

في هذه الحالة لا يتخلَّص النظام الديمقراطي الوليد من كل المشكلات التي كانت قائمة قبل الانتقال مثل تجاوزات العمليَّة الانتخابيَّة، أو انخفاض الوعي السياسي، أو تخلُّف الوسائل الإعلاميَّة، أو بالطبع نفوذ المؤسَّسة العسكريَّة والأجهزة الأمنيَّة.

2 ـ التحول الديمقراطي:

إذا كان الانتخاب الشعبي لقمَّة صنَّاع القرار هو جوهر العمليَّة الديمقراطيَّة فإنَّ النقطة ذات الأهمية الكبرى في عمليَّة التحول إلى الديمقراطيَّة هي تغيير حكومة لم يتم اختيارها بطريقة ديمقراطيَّة واستبدالها بأخرى يتمُّ في انتخابات حرَّة وعلنيَّة ونزيهة، وفي كل الأحوال فإنَّ عمليَّة التحول إلى الديمقراطيَّة قبل الانتخابات وبعدها هي عمليَّة معقدة وتستغرق وقتاً. فهي تشتمل على إسقاط النظام غير الديمقراطي وإقامة بديل ديمقراطي ثم تدعيم أسس البنية الديمقراطيَّة.[2]

فالتحول الديمقراطي (Democratic Transformation) عمليَّة معقَّدة وممتدَّة بمراحل متعدِّدة تختلف أبعادها ومستوياتها من دولة إلى أخرى، وقد تشتمل على عمليات مرتدَّة تعمل في الاتجاه المعاكس، وتنتهي (في حالة النجاح) إلى مستويات جديدة بحيث يتمُّ فيها ترسيخ قواعد النظام الديمقراطي (Democratic Consolidation)، بمعنى الحالة التي يمكن معها القول: إنَّه لا خطر على النظام الديمقراطي من الجيش أو من الأحزاب أو من الجماهير ولا من الخارج. إنَّها الحالة التي توصف معها النظم الديمقراطيَّة بأنَّها نظم راسخة (Consolidated or Established Democracy). وتتصل هذه الحالة الأخيرة بمؤشرات متعدِّدة تختلف من حالة إلى أخرى، أبرزها وجود إجماع معقول بين النخب والجماهير على الديمقراطيَّة وقواعد اللعبة الديمقراطيَّة كمبدأ وليس كإجراء، وكذلك المشاركة الواسعة للمواطنين في الانتخابات، واقتناع جميع القوى السياسيَّة الرئيسة بأنَّه لا

---

[1] للمزيد من التفاصيل انظر: عبد المعطي زكي إبراهيم. "العود الحميد للثكنات... خريطة طريق لمسار التحول الديمقراطي في مصر"، 2012/7/3، على الرابط: www.alamatonline.net

[2] المصدر السابق.

بديل عن العمليَّة الديمقراطيَّة لتسوية الصراعات السياسيَّة، وعدم وجود مؤسَّسة ما أو جهة قادرة على أن تدَّعي لنفسها حق الاعتراض على قرارات وسياسات صنَّاع القرار المنتخبين، كالمؤسَّسة العسكريَّة، وشيوع الثقافة الديمقراطيَّة وسط الشعب، وغير ذلك.

وتختلف عمليَّة ترسيخ الديمقراطيَّة عن استقرار النظام، فقد يستقر النظام من دون أن يتمَّ ترسيخ الديمقراطيَّة كما هي الحال في روسيا وأوكرانيا وفنزويلا، وقد لا يقترن ترسيخ الديمقراطيَّة بالاستقرار أصلاً، فقد يقوم نظام ديمقراطي من نوع ما لكن مع استبعاد الأقليات كما في جنوب أفريقيا تحت الحكم العنصري والكيان الإسرائيلي منذ نشأته وحتى اليوم.

ضمن هذا السياق، يرى "آدم بروزورسكي" أنَّه لا مبرّر للعنف لإرساء الديمقراطيَّة، مع تشدُّده الكبير إليها، وانحيازه لها بشكل كامل، إلا أنَّه لا يؤيد أساليب التصعيد والعنف، ولا يقرُّها، وينبذها بشكل تام.[1]

ويرى بعض الباحثين العرب أنَّ التحول الديمقراطي بوصفه مسلسلاً يتمُّ فيه العبور من نظام سياسي مغلق، ولا يسمح بالمشاركة السياسيَّة، إلى نظام سياسي مفتوح يتيح مشاركة المواطنين وتداول السلطة. وهنا، يرى الباحث "عبد الكريم عبدلاني": أنَّ التحول الديمقراطي عمليَّة معقدة تدلُّ على أنَّ هناك ممراً من السلطويَّة إلى الديمقراطيَّة؛ ومن ثم فهو يشتمل على مراحل متباينة تتخلَّلها لحظة الانتقال الديمقراطي.[2]

ثانياً- مراحل التحول الديمقراطي:

في دراسة مهمة للباحث "خوان ريال" يبيِّن أنَّ التحول إلى الديمقراطيَّة قد برز عبر ثلاثة حركات، وهي:[3]

أ - الفكر التحرُّري الليبرالي ويعني بالضرورة احترام حقوق الأفراد والمواطنين.

ب - قيام نوع صارم من اقتصاديات السوق مع تحكُّم أقل من الدولة، مما يتيح إلغاء كل من إجراءات الحظر وما يتبعها من توصيات، ونهاية دور سيطرة الدولة على المؤسَّسات الاقتصاديَّة.

ج - عمليَّة بناء أو إعادة بناء الديمقراطيَّة بمعنى إقامة حكم تعدُّدي.

هذا، ويمكن تقسيم مراحل التحول الديمقراطي إلى أربع مراحل رغم تداخلها واقعيَّاً، وهي:

---

(1) آدم بروزورسكي. "الديمقراطيَّة والأسواق"، ترجمة: عوني عز الدين، مجلة العمل العربي، منظمة العمل العربيَّة، العدد 95 (القاهرة: 2010 ص 230).

(2) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: عبد الكريم عبدلاني. "المعارضة السياسيَّة والتحول الديمقراطي في المغرب"، رسالة دكتوراه في العلوم السياسيَّة، غير منشورة (القاهرة: جامعة القاهرة، كليَّة الاقتصاد والعلوم السياسيَّة، 2003)، ص 32 -35.

(3) انظر: خوان ريال. "تحولات في أمريكا اللاتينيَّة علي عتبة التسعينيات"، ترجمة فردوس عبد المنعم، المجلة الدوليَّة للعلوم الاجتماعيَّة، القاهرة، مركز مطبوعات اليونسكو، العدد 128، مايو 1991، ص 43 -44.

1ـ مرحلة انهيار النظام السلطوي (المرحلة التحضيريَّة):

خلال هذه المرحلة يعرف المجتمع عدداً من الصراعات بغية إرضاء مصالح من يقودون عمليَّة التحول وتحديد قواعد اللعبة السياسيَّة، وتحدث تلك الصراعات بين المتشدِّدين الذين يعارضون عمليَّة التحول الديمقراطي وبين المعتدلين الذين يدركون أهميَّة إدخال إصلاحات على النظام السياسي لمواجهة الضغوط التي تهدِّد شرعيَّة النظام السياسي السلطوي، ومن ثمَّ يفقد تماسكه وتبدأ عمليَّة التحول.

2ـ مرحلة قيام النظام الديمقراطي:

تتضمَّن هذه المرحلة إرساء مجموعة من القواعد والإجراءات التي تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بحيث يتمتَّع الحاكم بطاعة المحكومين، ويلتزم المحكومون بقواعد اللعبة السياسيَّة، بحيث يكون بمقدورهم تغيير الحكومة بالوسائل السلميَّة، وعلى فترات منتظمة من خلال انتخابات دوريَّة تنافسيَّة.

3ـ مرحلة التماسك الديمقراطي:

وهي المرحلة التي يسود فيها الاعتقاد من جانب الفاعلين السياسيين الرئيسين والأحزاب وجماعات المصالح أو أية قوى أخرى بعدم وجود بديل عن العمليات الديمقراطيَّة للوصول إلى السلطة.

4ـ مرحلة نضج النظام الديمقراطي الجديد:

وهي المرحلة التي تتبلور في أثنائها صيغة النظام الديمقراطي بشكلها النهائي وليأخذ هذا النظام شرعيَّته من قبول المحكومين على قاعدة الرضى أو القبول بقواعد اللعبة السياسيَّة.

ثالثاً ـ موجات التحول الديمقراطي:

شهدت العقود الماضية موجات تحول ديمقراطيَّة في مناطق متعدِّدة من العالم؛ (في أمريكا اللاتينيَّة؛ أوروبا الشرقيَّة ووسطها؛ آسيا، وأفريقيا). لا بل وصلت أيضاً إلى تركيا، وباكستان، وألبانيا، واندونيسيا في العالم الإسلامي.

لقد انتشرت الديمقراطيَّة في العالم الحديث على شكل موجات متتابعة. فكانت **الموجة الأولى** في أعقاب الثورتين الأمريكيَّة والفرنسيَّة. وقد دشَّنت هذه الموجة مرحلة من الدمقرطة في أوروبا والأمريكيتين في القرن التاسع عشر، خصوصاً بعد "الربيع الأوروبي" عام 1848.

هذه الموجة قوَّضت قروناً من الحكم الملكي المرتكز على الأيدولوجيا الدينيَّة والاجتماعيَّة المحافظة. فقبل عام 1922 كان هناك أقل من ثلاثين "بلداً ديمقراطيَّاً" في العالم. لكنَّ هذه الموجة انحسرت بفعل صعود الشيوعيَّة والحركات الفاشيَّة، التي جادلت بأن ثمَّة حاجة إلى أحزاب النخبة أو القادة العسكريين لنقل المجتمع إلى مستقبل أفضل. وقبل عام 1942، لم يعد في العالم سوى قرابة عشرة بلدان ديمقراطيَّة.

أما **الموجة الثانية** من الديمقراطيَّة فقد ظهرت غداة الحرب العالمية الثانية وشهدت إعادة انتشار الديمقراطيَّة في أوروبا الغربيَّة ووصول الديمقراطيَّة إلى اليابان والهند وبعض الدول المستقلة حديثاً. وهكذا ارتفع مجدَّداً عدد الدول الديمقراطيَّة في العالم ليصل إلى أكثر من خمسٍ وثلاثين دولة؛ ولتبقى هذه الأنظمة ذات النمط الديمقراطي هي الأقليَّة من بين مجموع الأنظمة السياسيَّة في العالم.

في حين بدأت **الموجة الثالثة** من الدمقرطة في أوائل السبعينيَّات، مع عمليات الانتقال الديمقراطي في أوروبا الجنوبيَّة (إسبانيا، البرتغال، واليونان)، وأيضاً مع الانتقال الديمقراطي في البرازيل ومن ثمَّ في دول أخرى في أمريكا الجنوبيَّة والوسطى. وحينها قفز عدد الديمقراطيات إلى أكثر من ستين دولة.

تلا ذلك **موجة رابعة**، وهي أكثر اتساعاً أثارها تفكُّك الاتحاد السوفييتي وتداعي جدار برلين العام 1989م. وهكذا، وفي غضون سنوات قليلة، كانت أوروبا الشرقيَّة والوسطى كلّهاتقريباً قد تحوَّلت إلى الديمقراطيَّة، بما في ذلك روسيا. لا بل حتى الصين نفسها هزَّتها احتجاجات ديمقراطيَّة واسعة النطاق في ساحة "تيانامين". كما إنَّ العديد من دول أفريقيا جنوب الصحراء أطاحت بحُكَّامها السلطويين واتجهت صوب الديمقراطيَّة. وحينها - وللمرة الأولى في التاريخ - برزت أغلبية من الدول الديمقراطيَّة في العالم (117 من أصل 191 دولة)، وصدرت كتب تبشر بـ "نهاية التاريخ" وتُعلن أنَّ الجدل حول أفضل أشكال الحكم للإنسانيَّة قد تمّ طيَّ صفحته إلى الأبد لصالح الديمقراطيَّة.[1]

وفي دراسة لخمسٍ وثمانين حالة انتقال نحو الحكم المدني الديمقراطي حول العالم بين عامي 1974 و1999م بيَّن الباحثون أنَّ ثلاثين حالة منها فقط نجحت مقابل 34 حالة عادت فيها البلاد أدراجها إلى الحكم المطلق، بينما وقعت 21 حالة في براثن الديمقراطيَّة الشكليَّة.[2]

ومن الجدير بالذكر، أنَّه ليس ثمة بلد يشبه الآخر، وكل مرحلة انتقال إلى الديمقراطيَّة لها ظروفها الفريدة. فليس ثمة نماذج لـ "التصدير" أو مسارات لـ "التقليد". لكن هل ثمَّة شيء ما يمكن تعلُّمه من استعراض التجارب العالمية لعمليات الانتقال إلى الديمقراطيَّة، ومن معاينة أين نجحت الدول وأين فشلت؟ وأية ظروف سهَّلت عمليَّة الدمقرطة وأية منها عرقلتها؟

فعلى سبيل المثال، نجد أنَّه في أوكرانيا، أفرزت "الثورة البرتقاليَّة" عام 2004 بيئة سياسيَّة مهدت لإعادة إنتاج نظام ما قبل الثورة. فخلال الفترة الانتقالية التي امتدت ما بين عامي 2004 إلى 2010، أفضى الإخفاق والتسلُّط اللذان خيَّما على حكم "الكسندر يوشينكو" أول رئيس بعد الثورة إلى فوز الرئيس السابق "فيكتور يانكوفيتش" في الانتخابات الرئاسيَّة التي جرت عام 2010، رغم أنَّ "الثورة البرتقاليَّة" كانت قد وضعت إسقاط نظامه وإنهاء حكمه على رأس أولوياتها.

---

[1] آدم بروزورسكي. "الديمقراطيَّة والأسواق"، مصدر سابق، ص 227 -228.

[2] عبد المعطي زكي إبراهيم. "العود الحميد للثكنات..." مصدر سابق.

وبشكل عام يمكن تحديد الأسباب التي أدَّت إلى التحول الديمقراطي في دول أوروبا الشرقيَّة بالأسباب التالية:[1]

- المشكلات والحوادث السياسيَّة التي عاشتها أوروبا الشرقيَّة وخصوصاً الصراعات العرقيَّة، وانتهاكات حقوق الإنسان وغيرها من القضايا التي تمسُّ حالة الاستقرار السياسي.
- معاناة المجتمعات بسبب النظم الاستبداديَّة وتأثير ذلك على نواحي الحياة كافة، وتولُّد الرغبة الجماهيريَّة للتغيير.
- الأزمات الاقتصاديَّة التي عانى منها الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقيَّة، في ظلِّ حكم الحزب الواحد، والأنظمة الدكتاتوريَّة العسكريَّة، وما رافق ذلك من فشلٍ ذريع في النهوض الاقتصادي والتنمية الاقتصاديَّة، وفشل الحكومات المتعاقبة، في تبني استراتيجيَّات لتحقيق نمو اقتصادي.

ومن ثمَّ، يمكن أن نعزو التحول السياسي الديمقراطي في أوروبا الشرقيَّة إلى عوامل عدة أهمها بطبيعة الحال، وضع جوار دول أوروبا الشرقيَّة مع نظيراتها من دول أوروبا الغربيَّة، الأمر الذي ساعد على انتشار مفاهيم الديمقراطيَّة وحقوق الإنسان، وما إلى ذلك، وما يتميَّز به هذا التحول أنَّه قام على أسس قويَّة من المعارضة المنظَّمة وجماعات الضغط، وإصلاحات داخل الأحزاب الحاكمة، إلى جانب ما يسمى (الثورة الانتخابيَّة للتغيير)، كلها أمور قد ساعدت وأفضت إلى مرحلة الديمقراطيَّة.

رابعاً ـ سمات عمليَّة التحول الديمقراطي:

تتَّسم عمليَّة الانتقال إلى الديمقراطيَّة في دول العالم كافة بدرجة كبيرة من التعقيد، من ناحية، وبتعدُّد مساراتها والاختلاف البيِّن في نتائجها، من ناحية أخرى. ويعتمد ذلك إلى حدٍ كبيرٍ على مستوى التطور الاجتماعي ـ الاقتصادي في الدولة المعنية، وعلى الظروف الإقليميِّة والدوليَّة السائدة في اللحظة التاريخيَّة التي يحدث فيها هذا التحول. ومن ثم، يمكن القول: إنَّ خبرة دولة ما في التحول غير قابلة للنقل الميكانيكي والتطبيق في دولة أخرى. وعلى الرغم من ذلك، تكشف أدبيات العلوم الاجتماعيَّة، على اختلاف مشاربها، عن عدد من السمات البارزة والدروس المستقاة من هذه العمليَّة والتي يمكن أن تعين على فهم عمليَّة التحول. ولعلَّ أول هذه السمات هي أنَّ عمليات التحول تتَّصف بأنَّها عمليات طويلة الأمد. فقد استغرق إجراء أول انتخابات نيابيَّة حرة في دول شرق وجنوب أوروبا، فترة تتراوح ما بين 4 -7 أشهر في حدِّها الأدنى في اليونان ورومانيا وبلغاريا وألمانيا الشرقيَّة، ووصلت إلى 18 شهراً في البرتغال وإسبانيا وبولندا والمجر. واستغرقت عمليَّة التحول التدريجي في المكسيك حوالي سبعين عاماً.

---

[1] حسين بهاز، التجربة الانتخابيَّة والتحول الديمقراطي في أوروبا الشرقيَّة، على الرابط:
www.akhbar-alkhaleej.com/12509/print/34380.html

الملمح الثاني الذي يسم عمليَّة التحول هو أنَّها ، ـ وبحكم طبيعتها ـ تكتسي مسوح انعدام اليقين. وأيا كانت الطريقة التي يدخل بها مجتمع ما مرحلة التحول، سواءٌ عن طريق الثورة التي تؤدِّي إلى قطيعة كاملة ومفاجئة مع الماضي (ألمانيا الشرقيَّة عام 1990 مثلاً)، أو عن طريق التغيُّر التفاوضي من قبل عناصر من داخل النظام التسلُّطي تسعى لتحقيق قدرٍ من الحريَّة السياسيَّة كما هي الحال في الأرجنتين ما بين عامي 1969 -1973، فإنَّ عمليَّة التحول تنطوي على تدفق سياسي من خارج النظام، أي من المعارضة، ومن عناصر النظام المطالبة بالإصلاح في محاولة من جانب كلٍّ طرف للتفوق على الأخر، فليس هناك ضمان لنجاح عمليَّة التحول.

الملمح الثالث والمميز لعمليات التحول الديمقراطي هو أنَّها نتاج لفعل كلٍّ من النخبة والجماهير. فعلى عكس ما لاحظه بعض الباحثين في قضايا عمليات التحول من أنَّ النخب، بما في ذلك نخب قوى المعارضة، هي التي تلعب دوراً في عمليَّة الانتقال إلى الديمقراطيَّة، وتدلل الشواهد الأمبيريقيَّة أنَّه لا يحدث تحول دون ممارسة ضغوط من قِبل القوى الاجتماعيَّة الأخرى، كاتحادات العمال في أوروبا وتونس، الجماعات الفلاحيَّة، والجماعات الكنسيَّة، منظمات الجيرة في أمريكا اللاتينيَّة... إلخ.

ومن الجدير بالذكر أيضاً، أنَّ التحولات الناجحة تكون نتيجة للالتزام بالديمقراطيَّة، فعلى الرغم من عيوب الديمقراطيَّة وتزايد الإحباط من مؤسَّساتها إلا أنَّه لا توجد مؤشرات على الرغبة في استبدالها بشكل أخر من الحكم، ويكمن التحدي الحقيقي في القدرة على الاستمرار في الالتزام بتعميق الديمقراطيَّة.

وتشير الخبرات المتولِّدة من تجارب العديد من دول شرق وجنوب أوروبا إلى أنَّ هذه التجارب قد نزعت إلى التركيز على معالم أساسيَّة جذبت اهتمام معظم الفاعلين واستغرقت طاقاتهم، وهي: الانتخابات، والنظام الانتخابي، وهيئات إدارة الانتخابات، والدستور. وجميع هذه الدول نجحت بإجراء انتخابات خلال مدة تتراوح ما بين أربعة شهور إلى ثمانية عشر شهراً، كما استطاعت أن تفرز دستوراً جديداً خلال سنة إلى سنتين.

وأخيراً، تُظهر خبرات دول أوروبا وأمريكا اللاتينيَّة أنَّ المحصلة النهائية للتحول الديمقراطي فيما يتعلَّق بالقضايا الاجتماعيَّة الاقتصاديَّة قد مالت إلى تحقيق الحد الأدنى من الاحترام للحقوق الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، دون أن تنطوي على تحول في توزيع الثروة والأصول القوميَّة. فقد شهدت معظم التحولات حتى الآن فجوة زمنيَّة بين التحرر السياسي ومأسسة السياسات الاجتماعيَّة الاقتصاديَّة التي تضمن توزيعاً اجتماعياً عادلاً.

خامساً ـ تحديد عمليَّة التحول الديمقراطي:

بينت العديد من الأبحاث المتخصَّصة في دراسة تجارب الانتقال إلى الديمقراطيَّة في مختلف الدول وحاولت أن تعثر على نقاط التشابه وأن تستقي الدروس منها؛ بيد أنَّ هذه الدراسات أعادت التأكيد بأنَّه ليس ثمة تجربتان متطابقتان في عمليَّة الانتقال إلى

الديمقراطيَّة، وعلى أنَّه لا توجد نماذج جاهزة يمكن تصديرها من دولة إلى أخرى[1]. فكلُّ مجتمعٍ يجب أن يعثر على طريقه الخاص لمواجهة التحديات السياسيَّة، وأن يبتدع التوافقات والمؤسَّسات التي تلائم على نحو أفضل ظروفه الخاصة لنجاح عمليَّة التحول الديمقراطي والتي نجدها في ثلاثة مداخل أساسيَّة، وهي تستند على عدد متباين من العوامل المترابطة لتفسير حدوث هذا التحول أو عدمه. ولعلَّ، هذه المراحل تتَّفق في تحديد مجموعة من العوامل التفسيريَّة المشتركة وإن كانت بطرق مختلفة، كما إنَّها تواجه جملة من التحديات نجملها فيما يلي:[2]

1ـ التحديات الاجتماعيَّة:

إنَّ أبرز التحديات التي تواجه عمليَّة التحول نحو الديمقراطيَّة بصفة عامة، هو صعوبة تغيير الأنماط الاقتصاديَّة الاجتماعيَّة المترسَّخة؛ بحيث تتطلَّب عمليَّة التحول تلك نضالاً صعباً ومستمراً. فالتقسيمات الطبقيَّة ليست الأشكال الوحيدة لعدم المساواة الاجتماعيَّة، فالتفسيرات المختلفة لعمليَّة التحول الديمقراطي تشير إلى التقسيمات الاثنيَّة والجندريَّة والقبليَّة واللغويَّة والدينيَّة والثقافيَّة.[3] فعلى سبيل المثال، أُجبر السكان السود والملونين في جنوب أفريقيا في ظلِّ نظام الفصل العنصري على العيش بعيداً عن المناطق الحضريَّة التي يعملون فيها، وقد ولَّد هذا عادات اجتماعيَّة مرتبطة بهذا الوضع وعصيَّة على التغيير، فالعيش في غيتو يخلق أيضاً غيتو إيديولوجي. كما جعل النظام القبلي المشرذم في جنوب أفريقيا عمليَّة ترشيد بنى الحوكمة أمراً متعذراً؛ فقد وجد على سبيل المثال أربعة عشر نظاماً تعليميَّاً مختلفاً في الدولة، وتطلب إصلاح الإدارة من الدولة أن تضمن استخدام الموظفين لمدة خمس سنوات وتتحمَّل تكلفة ذلك كله. كما إنَّ الافتقار إلى الاستثمارات الأجنبيَّة المباشرة يدفع بالدولة إلى الاستثمار في تنمية البنية التحتيَّة بنفسها أو في أحسن الأحوال بالشراكة مع القطاع الخاص، كما هي الحال في تشيلي.

2ـ التحديات السياسيَّة:

تمثل القوة العامة للدولة في علاقاتها بالتقسيمات الاجتماعيَّة والمجتمع المدني عاملاً تفسيريَّاً مهماً بالنسبة لجميع المداخل النظريَّة للديمقراطيَّة. وتتميَّز مسارات التحول الديمقراطي، فيما يزعم

---

(1) تقرير موجز حول التجارب الدوليَّة للتحول الديمقراطي، والدروس المستفادة منها. المنتدى الدولي حول مسارات التحول الديمقراطي (القاهرة: 5 -6 حزيران 2011)، ص 9.

(2) Goldblott Potter, M.Kilo & Plewis (Eds.). Democratization (Cambridge: Polity Press, 1997). pp 24-31.

(3) محمد زاهي بشير المغيربي. الديمقراطيَّة والإصلاح السياسي... مراجعة عامة للأدبيَّات. في: كمال المنوفي ويوسف الصواني (محرِّران). ندوة الديمقراطيَّة والإصلاح السياسي في الوطن العربي، نُظمت هذه الندوة بالتعاون فيما بين كليَّة الاقتصاد والعلوم السياسيَّة في جامعة القاهرة والمركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر في الجماهيريَّة الليبيَّة بتاريخ 21ـ22 حزيران 2005 (بنغازي: المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، 2006)، ص 79.

"بارنغتون مور" و"روشماير"، بحالات من توازن القوة بين الدولة والطبقات المستقلة نسبيًّاً، فالدولة ليست قوية جداً بالدرجة التي تجعلها تسيطر على الطبقات التابعة من جانب، كما إنَّها ليست ضعيفة جداً بالدرجة التي تجعلها أداة للطبقة الارستقراطيَّة المالكة من جانب آخر.[1]

أما انسداد قنوات التحول الديمقراطي في ظلِّ تعادل القوة بين النظام الدكتاتوري والقوى المطالبة بالديمقراطيَّة، وبناء حكومة تتمتع بقدر كاف من الثقة والدعم الشعبي فقد شكلت أبرز التحديات في دولة تشيلي. أما في البرازيل فتمثَّلت التحديات السياسيَّة في تدعيم الديمقراطيَّة بانعدام اليقين أثناء فترة التحول الديمقراطي فيها وما صاحبه من قلق شعبي وفوضى وأزمات. في حين كانت تلك التحديات في المكسيك تتجسد بضمان عدم تأثر نتائج الانتخابات بنفوذ الجريمة المنظمة وغسيل الأموال. أما في الأرجنتين فقد كان التوصل إلى إجماع شعبي للعيش في ظلِّ نظام ديمقراطي يشمل القوى المناهضة للديمقراطيَّة يمثل أبرز التحديات. والتوصل إلى مجموعة من الخطوات التي تضمن تحقيق التقدم على المسار الديمقراطي وتبتعد به عن الدخول في عمليات أو مواقف صراعية في جنوب أفريقيا. بينما كانت في اندونيسيا تتمحور حول ضرورة التوصل إلى إجماع قومي راسخ، وتحديد خارطة طريق تتمتع بالقبول الواسع في أثناء فترة عدم الاستقرار، وتحويل حالة عدم اليقين السائدة إلى يقين. وأخيراً، كان تفكيك المنظومة الرئاسية والحزبية والأمنية في تونس أبرز تلك التحديات.

3ـ التحديات الاقتصاديَّة:

تشير مختلف تفسيرات التحول الديمقراطي إلى التنمية الاقتصاديَّة باعتبارها عاملاً تفسيريًّاً مهماً بالنسبة لكلٍّ من "ليبست" و"دياموند" ممن يعملون ضمن إطار المدخل التحديثي، فإنَّ الارتباطات بين التنمية الاقتصاديَّة وعمليَّة التحول علاقة جدليَّة مهمة جداً. ويرى "مور" و"روشماير" أنَّ التنمية الاقتصاديَّة (والتي هي تنمية رأسماليَّة أساساً) تشكل بصورة جوهرية المسار التاريخي الذي تتخذه الدول المختلفة تجاه الديمقراطيَّة الليبرالية أو تجاه أي شكل سياسي آخر. أما "روستو" و"أدونيل" و"لينز" فإنَّ التنمية الاقتصاديَّة تمثل عندهم الدافع الرئيس لتحركات النخب المتنافسة لصياغة تسويات التحول الديمقراطيَّة. كذلك فإنَّ آراء الباحثين التقت بمجملها حول أنَّ الأزمات الاقتصاديَّة، على شاكلة ما حدث في أوروبا في فترة ما بين الحربين العالميتين، قد تقوض الديمقراطيَّة الليبرالية[2]، وأنَّ التخلف الحاد في دول أفريقيا جنوب الصحراء لم تشكل سياقاً مشجعاً للديمقراطيَّة، وأنَّ غيرها من التحديات الاقتصاديَّة، والتي تمثلت بتحقيق الاستقرار ودفع النمو الاقتصادي قد شكل التحدي الرئيس أمام التحول الديمقراطي في البرازيل. وضرورة أن يلعب

---

[1] المصدر السابق، ص 79 -80.

[2] المصدر السابق، ص 78.

الاقتصاد دوره في دعم عمليَّة التحول السياسي، وشيوع البطالة وارتفاع معدل التضخم والفقر (تشيل)، وإفلاس الدولة (جنوب أفريقيا)، والحد من اللامساواة (البرازيل)، وانخفاض مستوى الاستثمار والتعليم والبنية الأساسية، وتحقيق نمو اقتصادي مصحوب بالعدالة الاجتماعيَّة والإنصاف (تشيلي).

سادساً- إشكاليات التحول الديمقراطي في الدول العربيَّة:

شهدت بدايات القرن الحادي والعشرين تراجعاً ملحوظاً لموجة التحول الديمقراطي الرابعة ذاتها حين بدأت روسيا تعود أدراجها إلى السلطويَّة، وحين أظهرت الصين أنَّ حكم الحزب الواحد يمكن أن يستمر وحتى أن يبني اقتصاداً قوياً. كما أنَّ العديد من "الحكومات الديمقراطيَّة" في أفريقيا وأجزاء أخرى من العالم أثبتت أنَّها فاسدة وغير قادرة على تحقيق العدالة الاجتماعيَّة. علاوة على ذلك، جرفت أحداث الحادي عشر من أيلول عام 2001 م العالم وخصوصاً المنطقة العربيَّة إلى أطراف نزاع مسلَّح ومتطرِّف.

أما المجتمعات العربيَّة فقد شهدت محاولات عديدة للتحول الديمقراطي إلا أنَّ هذه المحاولات واجهت العديد من الإشكاليَّات لعلَّ أبرزها ما يلي:[1]

1. عدم وجود إجماع بين القوى السياسيَّة العربيَّة الفاعلة ومضمون التحول المطلوب وآلياته، فبالرغم من الحديث المتواصل عن الديمقراطيَّة في معظم الدول العربيَّة، فإنَّه لا يوجد توافق مجتمعي حول مضمون هذا التحول، بل ويمكننا أن نشير إلى وجود تحفظات من جانب بعض القوى السياسيَّة العربيَّة بالنسبة للتحول باتجاه الديمقراطيَّة استناداً إلى الخبرة الغربيَّة، بل ووجود قوى أخرى رافضة للتحول الديمقراطي باعتباره بدعة غربيَّة هدفها القضاء على هوية الأمة وإخضاعها خضوعاً تاماً للسيطرة الغربيَّة.
2. ضعف البنية السياسيَّة والاجتماعيَّة للمجتمعات العربيَّة، الأمر الذي يزيد من حدة المخاطر التي قد تنتج عن التحول الديمقراطي بحيث قد تصل إلى تفكك هذه المجتمعات وإعادتها إلى مرحلة ما قبل الدولة الحديثة.
3. ازدياد قوة وتأثير قوى الإسلام السياسي في المجتمعات العربيَّة، فالإطار المرجعي لهذه القوى هو إطار يقوم على الأحكام والمبادئ المطلقة التي لا يمكن التوصل إلى حلول وسط بشأن تطبيقها ومحتواها. وبالتالي، فإنَّ هذه القوى أعلنت عن إيمانها بالديمقراطيَّة وسعيها إليها إلا أنَّها في واقع الممارسة تكون محددة بإطار فكري محكم لا يمكن، بحكم طبيعة هذا الإطار، أن تخرج عنه.
4. غياب الثقافة السياسيَّة الحاضنة لعمليَّة التحول الديمقراطي في الدول العربيَّة.

---

[1] محمد سعد أبو عامود، التنمية السياسيَّة في الوطن العربي بين النظريَّة والتطبيق (الإسكندريَّة، دار الشهابي للطباعة والنشر، 2005)، ص 13 -15.

5. ضعف منظمات المجتمع المدني وعدم قدرتها على الإسهام الفعال في عمليَّة التحول الديمقراطي.
6. المصالح القوية التي يمكن أن تتعرَّض للتهديد نتيجة التحول الديمقراطي في المجتمعات العربيَّة، وهو ما أدى إلى توحد القوى في بدايتها، وذلك حتى لا تشكل مصدراً لتهديد هذه المصالح.
7. الإجهاض شبه المستمر لمحاولات التحول الديمقراطي في الدول العربيَّة أدى إلى خلق نوع من الشعور بعدم الثقة في جدوى هذه المحاولات وأتاح الفرصة لمعارضي هذا التحول بإبراز مخاطره وسلبياته على هذه الدول.
8. الدعم الخارجي للتحول الديمقراطي تحول إلى إشكالية تواجه التحول الديمقراطي ذاته في الدول العربيَّة، أو يرجع ذلك إلى ارتباط هذا الدعم بسياسات خاصة بكل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي؛ وهي سياسات لا تلقى قبولاً على مستوى المواطن العربي الأمر الذي أوجد حالة من الشك في أي دعم خارجي من هذه الدول يتعلق بالتحول الديمقراطي في المنطقة العربيَّة؛ وفي الأسلوب الذي يحقق هذا التحول دون الوقوع في المخططات الدوليَّة وفي أي تركيبة دوليَّة لا تعرف مراميها.[1]
9. تتركز هذه الإشكالية حول العقبات الذاتية في المجتمعات والنظم العربيَّة لتحقيق أي تحول ديمقراطي، بالرغم من امتلاكها متطلبات الإصلاح كافة.
10. من المحتمل أن تتعرض عمليَّة التحول الديمقراطي ذاتها إلى نوع من الارتكاس، بحيث تتحول الممارسات الديمقراطيَّة إلى فوضى وممارسات سيئة وفساد.[2]

سابعاً ـ الحراك الشعبي العربي أو ما سمي بـ (الربيع العربي):

إنَّ غالبية الدول العربيَّة بواقعها الحالي تفقد مكانتها الدوليَّة، حيث تعيش اليوم فجوة تاريخيَّة حضاريَّة جعلتها متأخرة على المستوى الحضاري ـ فالتجزئة والقصور الفكري والاستلاب الثقافي وبالتالي تخلف الأنظمة والهيمنة السياسيَّة والاقتصاديَّة الغربية وما لازمها من اختراقات اجتماعيَّة ـ كلها عوامل أورثت الواقع السياسي العام في الوطن العربي حالة من الضعف والتشتت، الأمر الذي غيَّب عنه صورة "الدولة ـ الأمة" التي تطمح الشعوب العربيَّة إلى رؤيتها.

---

[1] علي الدين هلال، ما هو مفهوم الإصلاح السياسي والديمقراطيَّة، في: كمال المنوفي ويوسف الصواني (محرَّران). ندوة الديمقراطيَّة والإصلاح السياسي في الوطن العربي، مصدر سابق، ص 57.

[2] المصدر السابق، ص 57.

لقد مثل الحراك الشعبي في بعض الدول العربيَّة نقطة تحول، وبخاصة بعد انهيار الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية والأنظمة الدكتاتورية في أمريكا اللاتينية، إذ رأى كثيرون أنَّ الوطن العربي، سيكون بمنأى عن عمليات التحول، ولكن شاءت الظروف أن تكون معاكسة لتقديرات البعض، على الرغم من الحالة التي كان يعيش فيها الوطن العربي مهمشاً وينظر إليه بشيء من التخلف.[1]

وقد تميزت الحركات الاجتماعيَّة في لحظة الحِراك الشعبي بعدة خصائص، أهمها:[2]

- توجهها للقطيعة مع الأنظمة، إذ رفضت أسلوب المهادنة.
- الجرأة العالية في المواجهة وأساليب الاحتجاج، خاصة مقابل شخص الرجل الأول في الدولة، وتحديه.
- خلق ديناميكية التغيير من أسفل، إذ وضعت حداً لاحتكار أجهزة الدولة للمجال العام، عبر احتلال الساحات، والخروج المتكرر للتظاهر في الشوارع.
- أسهمت في إبراز أهمية العلاقة بين المستويين الاجتماعي والثقافي. بمعنى آخر، أبرزت العلاقة بين التهميش الاجتماعي (بطالة، وفقر، وإهمال مناطقي، وضعف الرعاية الصحية)، وبين التهميش الثقافي (تدهور مستوى التعليم، وعدم المساواة في المجال المعرفي بين المدن المختلفة مناطقياً، وتسطيح الخطاب الديني، ومحاصرة التدين، وهيمنة الفئات الحاكمة على الحقل الرمزي).

وقد اتسمت مراحل التحولات بمجملها بتنازع قوى الحراك الشعبي، وعلى رأسها الحركات الاجتماعيَّة، لعدة أسباب، أبرزها: طغيان التباينات الأيديولوجية القديمة المتجددة، بما هدد التوافق العام والسلم الأهلي، وكشف الأوضاع الجديدة للأوزان النسبية للقوى المتنافسة على الحكم. فعلى سبيل المثال، عبر صعود التيار الإسلامي في مصر وتونس عن ضعف القوى الموصوفة بالعلمانية. وأخيراً، خشية الحركات الاجتماعيَّة من تهميش فعاليات المجتمع المدني، خاصة أنَّها تعبر عن قوى اجتماعيَّة محددة.

هذا المسار العام نحو التحول لم يدل فقط على أنَّ الديمقراطيَّة هي مجرد فكرة ذات شعبية واسعة، بل دلّ أيضاً على أنَّ ثمة قوى تاريخية ومادية قيد العمل تجعل من الأشكال الأخرى من الحكومات السلطوية، أو التوتاليتارية، أو الدينية الثيوقراطية، أو حكم الحزب الواحد أو العائلة الواحدة، غير قابلة للاستمرار، وأنَّ الدولة الديمقراطيَّة لا غنى عنها في حكم المجتمعات الحديثة.

---

[1] بول سالم. "الربيع العربي، من منظور عالمي: استنتاجات من تحولات ديمقراطيَّة في أنحاء أخرى من العالم"، 2011/11/15: www.carnegie-mec.org/publications/?fa=45980

[2] أحمد خميس كامل. "تحولات ديمقراطيَّة: مؤتمر حول الثورات العربيَّة: أقليَّات مترقبة... وأنظمة تحت اختبار المواطنة"، 2012/9/24، على الرابط: www.siyassa.org.eg/NewsContent/6/51/2693

ثامناً ـ موقف الأنظمة العربيَّة من دعوات الإصلاح الخارجيَّة ـ دول (المنظومة الإقليميّة العربيَّة):

لم تجد النُّخب الحاكمة ذاتها معنيَّة بمطالب الإصلاح السياسي العربي، بعد أن اعتادت الاستجابة الجزئيَّة أو حتى المحدودة، إلا بعد الإعلان عن الإملاء الأمريكي في شباط 2004، وانعقاد قمَّة الثماني (حزيران)، لتنعكس تلك الاستجابة على خطابها السياسي، على مستواها الجمعي الذي تمثِّله منظَّمة جامعة الدول العربيَّة، وعلى المستوى النُّخبوي الفردي الذي يمثِّله أشخاص النظام السياسي الحاكم.

ويتجلَّى ذلك كلُّه في سياق خطابي له المستوى الدلالي ذاته، رغم إمكان فرزه في عدَّة تيارات متباينة. ومن خلال تحليل ذلك الخطاب في ضوء الظرف المنتج له والمؤثِّر الإملائي الخارجي فيه، نجد أنَّ مجمل الردود الرسميَّة العربيَّة توزَّعت على النحو التالي:

1. التيار الرافض للإصلاح من الخارج: فقد كان أول الردود الرسميَّة كان على المستوى الجمعي العربي، وتجلَّى في رفض مؤسَّسات جامعة الدول العربيَّة المشروع، أولاً على لسان أمينها العام "عمرو موسى" الذي علَّق على المبادرة الأمريكيَّة قائلاً: "إنَّ السماء تمطر مبادرات، وكأنَّ «الشرق الأوسط» سيكون حقل تجارب"[1]. ويؤكِّد ممثِّلها في واشنطن "حسين حسونة" أنَّ أي إصلاح في الوطن العربي يجب أن ينبع من داخل المجتمعات العربيَّة ذاتها بما يتَّفق مع تراثها الديني والقومي، مشيراً إلى أنَّ مشروع "الشرق الأوسط الكبير" وُلد بطريقة خاطئة، ومستنكراً عدم جدِّيته، حيث يقول: "إنَّ المبادرة الأمريكيَّة غير حقيقيَّة ولم تتشاور فيها مع الدول العربيَّة". ويبرز هذا الرفض أيضاً من خلال "قمَّة تونس" التي أكَّدت "أنَّ الإصلاحات الأمريكيَّة سابقة التجهيز المفروضة من الخارج لا تتَّفق مع الحاجات والتقاليد السياسيَّة العربيَّة الأصيلة"[2]. وأما على المستوى النُّخبوي الفردي فقد تمحور الرفض في دول "المنظومة الإقليميِّة العربيَّة" التي تمثِّلها مصر والسعوديَّة وسوريَّة، وبالرغم من تباين أنظمتها بين الملكيَّة والجمهوريَّة، و"المعتدلة" و"الراديكاليَّة"، فقد جاء الرفض المصري على لسان الرئيس "محمد حسني مبارك" بقوله: "إنَّ استراتيجياتنا تقوم على محورين رئيسين، أولهما الدفع بجهود التحديث والتطوير القائمة على الرُّؤى الذاتيَّة للمجتمعات العربيَّة، والآخر الدفع نحو التوصُّل إلى السلام العادل والشامل في منطقة «الشرق الأوسط»؛ مشيراً إلى تنوُّع الخصائص الثقافيَّة والدينيَّة والتركيبة السكَّانية لكلِّ مجتمع، داعياً إلى: "... الامتناع عن محاولة فرض نمط خارجي،

---

[1] أحمد بهاء الدين شعبان. "الحراك السياسي في المنطقة: المظاهر والمبرِّرات"، شؤون عربيَّة، العدد 123 (القاهرة: خريف 2005)، ص 9.

[2] محمد مبيضين. "المجتمعات العربيَّة... مسيرة الإصلاح إلى أين"، ؟ مجلة المجلة، العدد 15 (القاهرة: أيلول 2007)، ص 37.

ونبذ الاعتماد على الوسائل العسكريَّة، فالدول العربيَّة تمضي في طريق التنمية والتحديث بما يتَّفق ومصالح شعوبها وقيمها، وتلبية حاجاتها وخصوصياتها، وهويَّتها العربيَّة، وعدم قبولها فرض نمط إصلاحي من الخارج"[1] وضمن هذا السِّياق أكَّد الرئيس أيضاً "مبارك" أنَّ "الإصلاح ضروري ولكنَّ الوصفات الجاهزة المطروحة من الخارج ومحاولات فرضها مرفوضة"[2]. أما السعوديَّة فقد جاء على لسان عاهلها الملك "فهد بن عبد العزيز آل سعود" في خطابه في الدورة الثالثة لأعمال مجلس الشورى السعودي في 2003/5/17: "إنَّ مسيرة الإصلاح لا يمكن أن تثمر إلا في جوٍ من الوئام الاجتماعي القائم على الوحدة الوطنيَّة التي تتعارض مع الطروحات المتطرِّفة"، مشيراً إلى أنَّ "الإصلاح الحقيقي هو النابع من عقيدة الأمة وتراثها، الإصلاح الذي تُقبل عليه الأمة طائعة لا مَسوقة، الإصلاح الذي يتمُّ بتدرُّج وسلاسة متجنِّباً السرعة المهلكة والبطء القاتل"[3]، و"إنَّ الدول الإسلاميَّة مختلفة وغير مهيَّأة لتبني الديمقراطيَّة، وإنَّ الدعوات المطالبة بالتوزيع العادل للسلطة والثروة وحماية حقوق الإنسان ليست أكثر من تدخُّل في الشؤون الداخليَّة"[4]. في حين ترفض سورية الإملاءات الأمريكيَّة والتدخُّلات أو الانسياق الداخلي لها بدون مراعاة الظروف الداخليَّة، وقد جاءت المواقف الرسميَّة السورية جميعها مؤكِّدة لهذا الرفض وعلى رأسها ما عبَّر عنه الرئيس "بشار الأسد" بقوله: "الولاء للبلد يكون بعدم القبول بتدخُّلات أجنبيَّة من خلال أيِّ حكومة أجنبيَّة... وإنَّنا قطعنا خطوات معقولة ضمن الظروف التي نعيشها"[5].

2. التيَّار المؤيِّد لمشاريع الإصلاح من الخارج: وقد عبَّر ممثلوه عن ضرورة الحذر من عمليَّة رفض الأشياء والتمسُّك بالقديم، لمجرَّد أنَّ طرفاً ما يدعو إلى تغييرها"[6]، في حين ذهبت بعض الأنظمة إلى الترويج له، وأكَّدت على أهميَّة الإصلاح[7].

3. التيَّار التوفيقي الواقعي: جمع هذا التيَّار بين تناقضي الرفض والقبول بمنهج توفيقي "متناقض" وغير مقنع أيضاً؛ ويجسِّد مثل هذه التيَّارات بشكل صريح موقف الملك البحريني "حمد بن عيسى" عندما صرَّح قائلاً: "إنَّ المشروعات الخارجيَّة لن تجد أرضاً في الوطن العربي لتنمو فيها، لكن لا مانع من أن تلتقي إرادات الإصلاح الداخليَّة مع الدوليَّة في منتصف الطريق"[8].

---

[1] انظر: النص الكامل لكلمة الرئيس "مبارك" في مكتبة الإسكندريَّة أمام مؤتمر "الإصلاح العربي... الرؤى والتنفيذ"، 2003/3/12، على الرابط: www.alamatonline.net

[2] معتز سلامة. "الإصلاح السياسي: السياسة الأمريكيَّة والاستجابات العربيَّة"، كراسات إستراتيجية، العدد 153 (القاهرة: 2005)، ص 9.

[3] حسن أبو طالب. "الإصلاح والسياسة الخارجيَّة السعوديَّة"، السياسة الدوليَّة، العدد 156 (القاهرة: نيسان 2004)، ص 104.

[4] للمزيد انظر: تقرير التنمية الإنسانيَّة، عام 2004. نحو الحرية في الوطن العربي (عمان: المطبعة الوطنيَّة، 2005)، ص 137.

[5] حديث الرئيس "بشار الأسد" لقناة دبي الفضائيَّة، 2006/8/23.

[6] انظر: المصدر السابق.

[7] انظر: محمد مبيضين. "المجتمعات العربيَّة، مسيرة الإصلاح إلى أين"؟، مصدر سابق، ص 37.

[8] للمزيد من التفاصيل حول هذه الآراء، انظر: المصدر السابق، ص 9.

وفي هذا السِّياق، نجد أنَّ التيَّار الأول الرافض للإصلاح من الخارج يستند إلى رؤية اعتذاريَّة أو تبريريَّة قائمة على أربع حجج نمطيَّة، الأولى: أنَّ الديمقراطيَّة لا تُفرض من الخارج، والثانية: أنَّها لم تُناقش مع المعنيين بها قبل طرحها (الحكومات)، والثالثة: أنَّ هذه المبادرات تطرح حلاً أو صيغة موحَّدة لرقعة جغرافيَّة واسعة بالغة التنوُّع، من حيث تاريخها السياسي وواقعها الاقتصادي والثقافي، والرابعة: أنَّ تلك المبادرات أهملت القضيَّة الجوهريَّة والمركزيَّة وهي القضيَّة الفلسطينيَّة. ومع أنَّ تلك الحجج مقنعة بذاتها إلا أنَّ ما يجعلها متهافتة كونها تحمل في مجموعها منطقاً اعتذارياً يبرِّر استمرار الأمر الواقع[1]. وهنا يتبيَّن أيضاً أنَّ الإصلاح هو مطلب تاريخي وداخلي وشعبي قبل أي فعل أو رد فعل.

أما بالنسبة إلى التيَّار الثاني المؤيِّد للإصلاح من الخارج فيرى الباحث أنَّه تيار منساق وراء الخارج لاحتواء إملاءاته تخوُّفاً من المشهد العراقي الملوَّح به أمريكياً. كما إنَّ هذا الخطاب يرسِّخ تقديم التنازلات في إطار عمليَّة المخرجات والمدخلات من النظام وبيئته، وليس في إطار التفاعل بين النظام ومحكوميه. وهذه التنازلات الظَّاهرية التي تتضمنها أطروحات الخطاب تعدُّ مجرَّد استجابة لتدفقات أفعال وضغوطات القوى الكبرى.

الخلاصة:

1. إنَّ خيار الديمقراطيَّة الآن، هو خيار استراتيجي، وإنَّ المستقبل، هو مستقبل الديمقراطيَّة، ويجب أن تكرِّس جهود جميع الفاعلين باتجاه إحداث التحول الديمقراطي المنشود.

2. إنَّ عمليات التحول الديمقراطي لا يمكن استيرادها، لأنَّها عمليات وطنيَّة خالصة تقف بإرادتها للإفادة من أولئك الذين قادوا مسيرات الإصلاح في مختلف دول العالم.

3. العمل على الخطوات التنفيذية الجادة لتحقيق التحول الديمقراطي، بداية من إطلاق حريَّة تكوين الأحزاب السياسيَّة، واستحداث أو تفعيل دور المجالس النيابية وإصدار القوانين المتعلقة بهذه الشؤون. إلى جانب ضمان استقلال القضاء وتعزيز دور المؤسسات القضائية كافة، وفي مقدمتها ذات الصلة بممارسة الحقوق السياسيَّة، وصولاً إلى إقرار الحقوق والحريات العامة (حريَّة التعبير عن الرأي) والتجمع السلمي وتكوين الجمعيات والمنظمات غير الحكومية، بالإضافة إلى حريَّة الصحافة والإعلام...).

---

[1] محمد السيد سعيد. "تهافت الخطاب التبريري العربي"، المدار، 2004/3/7.

المراجع:

1. أحمد بهاء الدين شعبان. "الحراك السياسي في المنطقة: المظاهر والمبرِّرات"، **شؤون عربيَّة**، العدد 123 (القاهرة: خريف 2005).
2. أحمد خميس كامل. "تحولات ديمقراطيَّة: مؤتمر حول الثورات العربيَّة: أقليات مترقبة... وأنظمة تحت اختبار المواطنة"، 2012/9/24:
www.siyassa.org.eg/NewsContent/6/51/2693
3. آدم بروزورسكي. "الديمقراطيَّة والأسواق"، ترجمة: عوني عز الدين، مجلة العمل العربي، العدد 95 (القاهرة: 2010).
4. بول سالم. "الربيع العربي، من منظور عالمي: استنتاجات من تحولات ديمقراطيَّة في أنحاء أخرى من العالم"، 2011/11/15:
www.carnegie-mec.org/publications/?fa=45980
5. تقرير التنمية الإنسانيَّة، عام 2004. **نحو الحريَّة في الوطن العربي** (عمان: المطبعة الوطنيَّة، 2005).
6. تقرير موجز حول التجارب الدوليَّة للتحول الديمقراطي، والدروس المستفادة منها. المنتدى الدولي حول مسارات التحول الديمقراطي (القاهرة: 5 -6 حزيران 2011).
7. حديث الرئيس "بشار الأسد" لقناة **دبي الفضائيَّة**، 2006/8/23.
8. حسن أبو طالب. "الإصلاح والسياسة الخارجيَّة السعوديَّة"، **السياسة الدوليَّة**، العدد 156 (القاهرة: نيسان 2004).
9. حسين بهاز، التجربة الانتخابية والتحول الديمقراطي في أوروبا الشرقيَّة 2012/6/14:
www.akhbar-alkhaleej.com/12509/print/34380.html
10. خوان ريال. "تحولات في أمريكا اللاتينيَّة علي عتبة التسعينيَّات"، ترجمة فردوس عبد المنعم، المجلة الدوليَّة للعلوم الاجتماعيَّة، القاهرة، مركز مطبوعات اليونسكو، العدد 128، مايو 1991.
11. عبد الكريم عبدلاني. "المعارضة السياسيَّة والتحول الديمقراطي في المغرب"، رسالة دكتوراه في العلوم السياسيَّة، غير منشورة (القاهرة: جامعة القاهرة، كليَّة الاقتصاد والعلوم السياسيَّة، 2003).
12. عبد المعطي زكي إبراهيم. "العود الحميد للثكنات... خريطة طريق لمسار التحول الديمقراطي في مصر"، 2012/7/3: www.alamatonline
13. كلمة الرئيس "مبارك" في مكتبة الإسكندريَّة أمام مؤتمر "الإصلاح العربي... الرؤى والتنفيذ"، 2003/3/12: www.alamatonline.net

14. كمال المنوفي ويوسف الصواني (محرِّران). **ندوة الديمقراطيَّة والإصلاح السياسي في الوطن العربي**، نُظمت هذه الندوة بالتعاون فيما بين كليَّة الاقتصاد والعلوم السياسيَّة في جامعة القاهرة والمركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر في الجماهيريَّة الليبيَّة بتاريخ 21- 22 حزيران 2005 (بنغازي: المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، 2006).

15. محمد السيد سعيد. "تهافت الخطاب التبريري العربي"، **المدار**، 2004/3/7.

16. محمد سعد أبو عامود، **التنمية السياسيَّة في الوطن العربي بين النظرية والتطبيق** (الإسكندرية، دار الشنهابي للطباعة والنشر، 2005).

17. محمد مبيضين. "المجتمعات العربيَّة... مسيرة الإصلاح إلى أين"؟ **مجلة المجلة**، العدد 15 (القاهرة: أيلول 2007).

18. معتز سلامة. "الإصلاح السياسي: السياسة الأمريكيَّة والاستجابات العربيَّة"، **كراسات إستراتيجية**، العدد 153 (القاهرة: 2005).

❑❑

الديمقراطية والإعلام

□ د. عيسى درويش

مقدمة:

خلق الإنسان بالفطرة ميالاً إلى الحرية والانعتاق من القيود وقد وجد الإنسان منذ القدم حاجة إلى التفريق بين الفوضى المدمّرة وشريعة الغاب فاكتشف بالخبرة وتراكم الوعي الحاجة إلى التنظيم وإن كان هذا الشكل قد أخذ طابع الارتباط الأسري أو القبلي وأخذ بعض القداسة ابتداء من الطوطم والرمز المقدس إلى اكتشاف الديانات الوثنية وصولاً إلى الديانات التوحيدية ومن خلال التطور الراقي للإنسان اهتدى إلى الأعراف والشرائع ومن ثم القوانين المكتوبة.

وفي مجال موضوعنا "الديمقراطية والإعلام" نبحث الديمقراطية وتطورها وصولاً إلى علاقاتها الوثيقة والمتداخلة بالإعلام.

ـ **الديمقراطية**: نشأت الديمقراطية في القرن الرابع قبل الميلاد في أثينا في اليونان على فكر الفلاسفة اليونان أفلاطون وسقراط وأرسطو ـ والديمقراطية في المعنى اليوناني مؤلفة من كلمتين هما "Demo" أي الناس أو السكان ومن "Kruto" أي سلطة الحكم كما جاء في. موضوعة ويبستر 1944م وأن يدير المواطنون شؤونهم بأنفسهم غير أن الديمقراطية في أثينا فقد اقتصرت على المواطنين الأصلاء الذين يملكون عقارات أو عبيداً

ولم يسمح لغير هؤلاء من سكان أثينا من المهاجرين إليها أو العبيد من ممارسة هذا الحق كما أن المرأة لم يكن لها حق التمثيل في هذه المجالس

ومن خلال هذا المفهوم فإن الديمقراطية كانت تعبيراً عن سلطة أصحاب المصالح من إقطاعيين وملاك، ومن خلال التطور الإنساني وفي العصور التي تلت الإصلاحات الكنسية ومبادئ الثورة الفرنسية ووثائق الاستقلال الأمريكي وإصلاحات كرومويل في بريطانيا وما تلا ذلك من تطورات اقتصادية، انتقل هذا المفهوم للديمقراطية بحيث أصبح يعكس مصالح أصحاب القوى الاقتصادية من إقطاعيين ورأسماليين وتجار وأصحاب مصالح في الطبقة العليا على حساب الطبقة العاملة وحقوقها والفلاحين وحقوقهم مما رتب تناقضات وثورات وإصلاحات رافقتها، وتنظيم للنقابات والأحزاب وأصبح هناك مفهوم جديد للديمقراطية تمَّ التعبير عنه بالديمقراطية الغربية أو الديمقراطية البورجوازية.

1ـ الديمقراطية الغربية:

وتقوم على أساس مبدأ فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وانتخاب برلمان يمثل الشعب ورئيس للدولة ينتخبه البرلمان أو يُنتخب مباشرة من الشعب وفق الدستور.

وقد تعرضت هذه الديمقراطية إلى الكثير من الانتقادات من قبل الأحزاب الاشتراكية والماركسية وكانت قمة هذا النقد في البيان الشيوعي الذي أصدره ماركس وأنجلز 1848 والذي دعا إلى ثورة العمال والفلاحين وتحطيم الدولة البورجوازية القائمة على الاستغلال والتزييف.

2ـ الديمقراطية الشعبية:

وتقوم على أساس تنظيم المجتمع في نقابات ومنظمات جماهيرية تعكس مصالح الطبقة الكادحة، ومن خلال إسهام النقابات في إدارة المؤسسات والمشاريع الإنتاجية تتحقق مصالح هؤلاء المنتسبين إليها ومن ثم تسهم المجالس الشعبية المنتخبة في إدارة الحكم المحلي، أما على صعيد البرلمان فيعكس البرلمان الغالبية العظمى من الكادحين من عمال وفلاحين ومثقفين وحرفيين وهكذا تكون الديمقراطية الشعب أي حكم الشعب واعتبار السلطة هي سلطة الشعب ممثلة بالبرلمان والحكومة والقضاء.

وقد تعرضت هذه الديمقراطية للنقد العنيف باعتبارها تقوم على البيروقراطية واحتكار المكاسب وانتشار الفساد وعدم الحماس للعمل وتدني الإنتاجية مما كان السبب الرئيسي في انهيار المعسكر الاشتراكي بالإضافة إلى قمع الحريات السياسية والفكرية والثقافية وفي الوطن العربي انصب النقد الكبير على تجربة الأحزاب التي سادت كلاً من مصر والجزائر وسورية والعراق وغيرها.

3 ـ الديمقراطية في الإسلام:

ويقوم ذلك على مبدأ الشورى "وشاورهم في الأمر" "وأمرهم شورى بينهم" ـ والذين لهم الحق في الشورى هم أهل الحل والعقد وبالرغم من وجود المبدأ فإنه لم يعمل به في عهد الخلفاء في الدولة الأموية والعباسية وما تلا ذلك من أمراء وسلاطين وأصبحت السلطة تدار وفق إرادة الملك أو الحاكم مع وجود فئة من علماء السلاطين كانت تقدم لهم الفتاوى على حساب الدين والمصالح العامة فانهارت الدولة الإسلامية وتمزق شملها.

ثانياً ـ الديمقراطية والإعلام:

كانت الديمقراطية في الوطن العربي وفي سورية بشكل خاص مطلباً شعبياً تخللته انقلابات وتطورات لاحقة بعد الاستقلال الوطني 1946 وبالرغم من الاهتمام الكبير المعاصر بالديمقراطية لا بدّ من الوقوف عند النقاط التالية:

1 ـ الديمقراطية في الوطن العربي.

2 ـ الديمقراطية في سورية.

3 ـ العولمة والديمقراطية.

وفي الديمقراطية في الوطن العربي كان هذا الموضوع بين مدّ وجزر وقد أخذت النظم الملكية طابعاً مقدساً باعتبار أن الملك هو أمير المؤمنين والخروج عليه خروج عن طاعة الإله عملاً في الآية ﴿وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم﴾ وأعطت المؤسسة الدينية لهذه الأنظمة المزيد من الفتاوى التي جعلت الملك أو الأمير يحتكر كل السلطات كما هو في دساتير هذه البلاد وفي الجانب الآخر كانت النظم الجمهورية التي أعطت الدساتير للرئيس صلاحيات واسعة قلّصت من صلاحيات المجالس التشريعية إن وجدت واحتكرت لنفسها اختصاصات واسعة في الإشراف على جميع السلطات مما أدى إلى خلق أتوقراطية حاكمة وبيروقراطية وفساد أدت إلى ظواهر سلبية في مجال التنمية الاقتصادية وتوزيع الثروة والثقافة وخلقت خللاً في الأمن الوطني والقومي على السواء.

وفي سورية على سبيل المثال التي أخذت بالديمقراطية الشعبية ابتداء من الحركة التصحيحية 1970 وفي تجربة الجبهة الوطنية التقدمية والحزب القائد وفق المادة 8 من الدستور السابق (1972) إلا أن هذه التجربة كانت عرضة دائماً للنقد والتمحيص ومحاولة الارتقاء بالتجربة نحو الأفضل وخاصة في قرارات المؤتمر القطري العاشر لحزب البعث العربي الاشتراكي في عام 2005م.

لقد أشارت القيادة السورية في خطاب الرئيس بشار الأسد إلى الثغرات والسلبيات التطبيقية، وأطلقت برامجها الإصلاحية وقدمت توضيحاً للشعب عن أسباب التأخير في الإصلاحات إلا أنها قدمت في عام 2011 و2012 المزيد من إنجازات الإصلاح كان آخرها الدستور الجديد الذي أقرّه الشعب في استفتاء تموز 2012 ـ وبالرغم من المؤامرة على سورية وأزمتها الراهنة فإنها استطاعت

طرح برنامج وطني للإصلاح تشارك به كل الفعاليات الوطنية التي لم ترتبط بالمؤامرة الخارجية أو تلوث بالدم السوري.

العولمة والديمقراطية:

احتكرت الولايات المتحدة وخاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي الأحادية القطبية وفرضت في خطة أمريكية للسيطرة على العالم وتعميم النموذج الأمريكي في[1] اقتصاد السوق والديمقراطية والثقافة من خلال:

أ ـ إعلام منظم ومدروس يستند إلى تكنولوجيا التواصل والاتصال والإعلام الرقمي بالسيطرة على منظومات عالمية وإقليمية ومحلية من خلال الانترنيت والتلفزيون والإذاعة والصحف والفيسبوك والتويتر والتدخل الإلكتروني.. والتشويش والتخريب وغسل الأدمغة وشراء العقول وغير ذلك.

ب ـ استغلال مجلس الأمن والأمم المتحدة ومنظمات المجتمع المدني والجامعات والمؤسسات الدينية المتعاملة مع المخابرات الأمريكية ومنظمات حقوق الإنسان ومحكمة الجنايات الدولية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية لتحقيق هذه الأهداف.

ج ـ التحكم في اقتصاديات العالم عن طريق البورصات وإدارة الأزمات وتصديرها إلى بلاد أخرى وتقويض اقتصاديات دول عديدة لا تدور في فلكها عن طريق العقوبات الاقتصادية والحصار وضرب المحاصيل الزراعية واحتكارات السلع الغذائية الاستراتيجية.

د ـ استخدام القوة المسلحة والدبلوماسية الذكية والدبلوماسية الناعمة للتأثير في سياسات دول وشعوب الكثير من بلدان العالم.

وخير مثال على ممارسة هذه السياسة هي الحرب الكونية على سورية والتلويح بالغزو المسلح لإيران بعد فشل إسرائيل في حربها على المقاومة في لبنان 2006 والمقاومة في فلسطين 2009، وفشل الغزو المسلح لكل من أفغانستان والعراق.

هـ ـ استخدام أطراف إقليمية مثل تركيا وإسرائيل في المنطقة العربية وتوظيف أنظمة عربية وخليجية جنباً إلى جانب مع إسرائيل في استغلال الربيع العربي وسرقته من الجماهير المطالبة بالإصلاح لصالح قوى دينية عملية للرأسمال العربي والعالمي والصهيوني على حساب فقراء الأمة العربية وتطلعاتهم نحو الديمقراطية والعدالة.

---

[1] سقوط الولايات المتحدة للسيطرة على القرن الواحد والعشرين ـ راجع كتاب نحن والإمبراطورية الأمريكية ـ د.محمد البغدادي ص17.

2 ـ ملامح المشهد القائم بين الديمقراطية والإعلام:

يقول الكاتب الفرنسي آلان مينك[1] هناك دعوة إلى سيادة القوة السافرة على حساب الشرعية والقانون الدولي وبروز جماعات متعطشة للاضطراب والفوضى وظهور بنى اجتماعية رجراجة غير مستقرة وتفشي الخلل والفساد في كل مكان وإطلاق العنان للطموحات الفردية والفئوية الخبيثة والمكبوتة وتابع الكاتب الفرنسي قائلاً:

"القرون الوسطى الجديدة، لم تأخذ أبعادها بسبب تقويض الأنظمة الشيوعية فحسب وإنما لأن الأنظمة الأخرى قد شاخت وترهلت ولم تعد قادرة على استيعاب التطورات المتلاحقة، إن الاضطراب العالمي الجديد أفدح من الاضطراب الذي أعقب تداعي الإمبراطورية الرومانية وتفتيت الإمبراطورية العثمانية والهزيمة العسكرية الألمانية ومرحلة ما بعد الشيوعية، لا تتجلى في انتصار اقتصاد السوق ولا يقظة القوميات المسحوقة ولا حتى الهيمنة الأمريكية وإنما في انعدام الوزن، وغياب العمود الفقري" ويخلص الكاتب الفرنسي إلى ما يلي:

1 ـ اختراق الحدود حيث لم تعد الدول صغيرها وكبيرها آمنة ضمن الحدود المعترف بها دولياً وشرعياً "لقد تم في كندا دعوة إلى استقلال مقاطعة كيبك وفي الولايات المتحدة دعوة لاستقلال كاليفورنيا وسيف التقسيم مسلط على رؤوس الجميع ولذلك لن يكون بمنأى عن النار من أشعل النار في سورية سواء تركيا أو بلدان الخليج.

2 ـ تفتيت الوحدة الجغرافية لأن الثورات المعاصرة لا تستهدف العداء للنظام الحاكم فحسب، وإنما تستهدف[2] الوحدة الجغرافية للبلد، فالثوريون الجدد يحملون السلاح لسلخ مناطقهم عن الحكم المركزي ولم يعد يكفيهم إسقاط الحكم دكتاتورياً كان أم ديمقراطياً.

3 ـ اعتماد الثورات على الجماهير الغفل والحشود الغوغائية وعدم الاعتماد على أحزاب طليعية واستغلال جهل الجماهير وجوعها وغسل أدمغتها بالتطرف الديني.

3 ـ وسائل الإعلام والديمقراطية

المجتمع هو الحقيقة الأساسية، ليس مجرد مجموع الأنشطة الفردية وليس المظاهر أو التجليات الطارئة في العقل وإذا كان أحد يرغب في دراسة السلوك البشري فعليه أن يعترف بالواقع الاجتماعي.

وسواء كنا من أنصار نظرية الوعي بالمفهوم الماركسي "يقول ماركس الحياة لا يحددها الوعي لكن الوعي يتحدد بالحياة" والعلاقة بين الطبقة الحاكمة ووعي الجماهير وتشكيل الأيديولوجيا

---

[1] آلان مينك مقال الدكتور غسان الرفاعي المنشور في جريدة تشرين 2011/12/7.

[2] لقد جرى ذلك في السودان والصومال ويطالب الانفصاليون بتقسيم العراق وسورية ومصر ـ ومشروع برنارد لويس والأمريكيون الصهاينة واضح في ذلك.

القائمة على الطبقة أو من أنصار مدرسة التحليل النفسي وفرويد أو من أنصار دوركهايم ومدرسة علم الاجتماع، علينا التركيز على علم الاجتماع وعلم اللغة والعلاقة بين الأشياء والأفعال والحقائق والمصطلحات والوسائل والأهداف وغير ذلك لأن المجتمع واقع فريد وكل مجتمع له سماته الخاصة[1]. وخاصة العلاقة بين الفرد والمجتمع أي العلاقة بين الذات الفردية الأنانية وبين المنظومة الجمعية للأفراد في المجتمع.

ويرى بعض العلماء أن الدور الأساسي لوسائل الإعلام هو نقل النصوص بينما يركز علماء آخرون على طريقة وسائل الإعلام في الوصول إلى الناس وغرس المواد في أدمغتهم واستخدامها للحصول على استجابة معينة فما هو دور و سائل الإعلام في نشر الديمقراطية.

ما هي هذه الوسائل وكيفية التعامل معها؟

وسائل الإعلام: تقسم وسائل الإعلام إلى وسائل سمعية ووسائل بصرية ولكل من هذه الوسائل وسائط متعددة للدخول عليها أتاحتها التكنولوجيا الحديثة وهي:

1 ــ **الوسائل البصرية وتشمل**: التلفزيون، والسينما، والصحف المقروءة والمسرح والانترنيت ولكل من هذه الوسائل أدوات تشمل آلاف العاملين من محررين ومراسلين ومصورين بالإضافة إلى استخدام فضاءات لم تكن مستخدمة من قبل مثل الرياضة ووسائل الخداع البصري واستخدام العلوم الأخرى للتأثير على عقول الأفراد والجماعات.

وتداخل كل ذلك مع اللغة والصورة والإعلان ويضاف إلى هذه الوسائل الصحف واستخدام الصحافة المقروءة في الانترنيت واستخدام الرسم والتصوير والكاريكاتير وغيرها والمؤتمرات الصحافية والحوار والندوات والمؤتمرات.

2 ــ **الوسائل السمعية وتشمل**: الإذاعة والهواتف الثابتة والمحمولة وغيرها من أجهزة الاتصال المعروفة.

أما وسائط الإعلام وأشكالها فتشمل: الصوت ـ الصورة ـ الجسد ـ الصحف ـ الهواتف ـ المجلات ـ الكتب ـ الراديو ـ التلفزيون ـ اللوحات الإعلانية ـ التسجيلات ـ الصور الفوتوغرافية ـ الأفلام ـ ألعاب الفيديو والانترنيت.

ويجب في التعامل مع كل هذه الوسائط وخاصة فيما يتعلق بالهدف إلى الوصول إلى الفرد والجماعية وخلف أنماط ديمقراطية لا بدّ من مراعاة:

أ ـ الاتصال الذاتي ـ أو الحوار الداخلي والتحدث للذات.

---

[1] وسائل الإعلام والمجتمع ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ العدد 386 ـ 2012 .

ب ـ الاتصال بين الأفراد أي التحدث مع شخص أو عدد قليل من الناس.

ج ـ الاتصال الجماهيري ـ أي استخدام وسائل الإعلام للاتصال مع أعداد كبيرة من الناس.

وفي كل من هذه الأشكال يجب مراعاة العلاقة بين:

أ ـ المرسل الذي تنشأ عنه الرسالة الإعلامية (فرد) حزب، مؤسسة... إلخ.

ب ـ الرسالة أي مضمون الاتصال "النص المَنْوي إرساله".

ج ـ المتلقي هدف الرسالة (الفرد) الجمهور.

د ـ الطريقة التي تتم بها إعداد الرسالة والرموز المستخدمة واللغة المستعملة.

هـ ـ أداة الاتصال: راديو ـ تلفزيون...إلخ.

و ـ المجتمع والسياق الذي وصلت به الرسالة (التأثير وردود الفعل) ويرى المختصون بالإعلام أن الإذاعة هي أداة ساخنة في نقل الرسائل؛ أمّا الهاتف فهو وسيلة باردة لأن الإذاعة تنقل معلومات أكثر مما ينقله الهاتف في المحادثة الهاتفية.

وفي الأحوال كلها فإن الديمقراطية تهدف من خلال وسائل الإعلام إلى خلق تعددية سياسية وحوار بين كل أطياف المجتمع لخلق حالة من الانفتاح السياسي والثقافي والاجتماعي على الحوار للخروج بأفضل الحلول لصالح المجتمع ويجب التفريق المجتمع المنظم وبين الحشود الغوغائية كما أشار الكاتب الفرنسي "آلان مينك" أن الجماهير المغفلة أو ما نسميه بالحشود الغوغائية المحدودة الفكر والمغسولة الدماغ والمحكومة الفوضى الذي تحطم كل شيء وكأنها في حالة تنويم مغناطيسي لعدم وجود أي فكر لديها أو تنظيم أو برنامج ثوري ترمي الوصول إليه، بل هي كالسيل تحطم في طريقها كل شيء لتصب في المحيط بدون أي فائدة سوى نشر الخراب والدمار ويقول سيجموند فرويد أن سيكولوجية اللاوعي تخلق منتجاً خطيراً وغير منطقي هي عفوية الجماهير وهناك ما يسمى نظرية التقارب في الحشود الجماهيري، فالحشد في حد ذاته يعزّز سلوكيات غير عقلانية ورود فعل غوغائي يسيطر عليه عناصر اللاوعي الجمعي ومن خصائص الحشد، التصديق المطلق لكل ما يسمونه من بيانات وإشاعات واتصالات وسريان العدوى بين الجماهير الساذجة دون عرضها على المنطق والعقل وتؤدي إلى أعمال مغرضة بالتطرف والكراهية والعنف والأمثلة ما نراه في فضائيات وإذاعات الفتنة وشيوخها الذين يعملون على اللاوعي الجمعي بين الناس. وديمقراطية الحوار تطلب أن يكون الحوار مفتوحاً ومتكافئاً وبناءً وينطلق من مصلحة عامة ومشتركة، وبالتالي يجب عدم إلغاء الآخر أو تسفيه الرأي، وتجاوز الحوار السلطوي المسبق النتائج، وتجنب الحوار العدمي أو التعجيزي أو السطحي وتبتعد عن أساليب المناورة والوقيعة والطريق المسدود تقول الآية الكريمة ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [سورة البقرة:111].

ولخلق علاقة في ديمقراطية الحوار بين المحاور والمتلقي، يجب احترام المتلقي وتبسيط الفكرة أو الرسالة وسعة الصدر وضبط الانفعالات وامتلاك الثقافة والمعلومة وتجنب التناقض والتكرار[1].

ومن عوائق الحوار وعيوب المحاور، الخجل والخوف والثرثرة والإطناب والتكرار والإعادة والتعالي على الآخر تقول الآية ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ ومن العوائق أيضاً التحجر والجمود وعدم الشعور بالمسؤولية، وهناك عيوب مثل الصراخ ورفع الصوت والتعصب وسوء استخدام اللغة والجهل بالمصطلحات والتضليل واللف والدوران وإخفاء الحقائق ونشاهد أمثلة في الفضائيات العربية خاصة في الجزيرة وبرنامجها المعاكس والغطرسة في برامجها.

الديمقراطية الإلكترونية:

يقول[2] لوتير Leterre ما يلي "مصطلح الديمقراطية الإلكترونية مصطلح فريد في بابه، إذ يحيل إلى فكرة أن استخدام الحاسبات الإلكترونية ودمجها في شبكات عالمية وهو ما يعرف عالمياً بالتكنولوجيا الجديدة للمعلومات والاتصال سوف يكون بوسعها الإسهام في تجديد وفي تثوير التجربة الديمقراطية".

ويقول لوتير: إن التكنولوجيا قد دخلت السياسة وأصبح لها تأثير على الأفراد وغدت كالبازار وهي كما تحتوي الأسوأ قد تحتوي الأفضل. وهذا يقودنا إلى أن التكنولوجيا قد تخلق تفكيراً نمطياً في السياسة وهنا يقوم دور النخب الثقافية في التصدي لهذه المهمة في تربية الشباب وخلق البرامج التعليمية والتوجيهية من خلال ا لشبكة العنكبوتية والابتعاد عن الإعلام النمطي الوحيد الجانب والتحجر الفكري لأن الشباب وبكبسة زر سيتجول في هذه الشبكة للحصول على ما يريده ويشتهيه.

وكما أن التكنولوجيا تساعد على نشر الديمقراطية إذا أخذنا الجانب الإيجابي منها في الاتصال والحوار ولكن الجانب السلبي فيها أن تنقلب إلى ديكتاتورية يملكها الطرف الأقوى كما هي الحال في الولايات المتحدة والغرب واحتكارها لتكنولوجيا المعلومات وسيطرتها على شبكات الإرسال والبث الفضائي وكذلك رأسمال الصهيونية والخليجي والهجوم الإعلامي على سورية بتفجير محطاتها الفضائية وحجم البث الفضائي "عرب سات ونيل سات" عن القنوات الفضائية السورية في سابقة فريدة في التاريخ.

---

[1] وسائل الإعلام والمجتمع ـ عالم المعرفة/ عدد 386 ـ 2012 ـ الكويت.

[2] راجع مجلة الهلال المصرية ــ العدد مارس 2012 ــ د. محمد فتحي فرج وكتاب الخطاب الدبلوماسي ــ كونستانزفيلا ـ ترجمة قاسم المقداد ـ اتحاد الكتاب العرب 2012، ص6 وما بعدها.

مقترحات حول الديمقراطية والإعلام:

لا يتسع المجال في هذا البحث لتقديم كل ما نراه ولكننا واستخلاصاً من البحث نرى:

1 ــ إن الديمقراطية لها علاقة وثيقة بالوعي الاجتماعي ومنظوماته الفكرية والاقتصادية والثقافية. والديمقراطية ليست وصفة طبية جاهزة كما تطرحها علينا الولايات المتحدة وأدواتها.

الديمقراطية هي عملية داخلية يصنعها كل شعب داخل حدوده الوطنية بالحوار والاختيار الشعبي.

2 ـ إن الإعلام السوري بالرغم من تحقيقه بعض الإنجازات وخاصة النزول إلى الساحات الوطنية من الأبراج العاجية فإنه بحاجة إلى تغيير كبير في المضمون واللغة وبحاجة إلى تخصص عميق في الثقافة والمعلومة ولغة الحوار واختيار موضوعات البرامج السياسية والدرامية والثقافية وبرامج الأطفال.

3 ـ التعددية السياسية تتطلب تنوعاً بالرؤى والأفكار ونحن مع المنابر المفتوحة لكل الناس تحت سقف الوطن ونبذ العنف والتطرف وعدم التدخل الخارجي ووحدة الوطن تحت راية المقاومة للمشاريع الصهيونية الأمريكية الرجعية وتعميم العيش المشترك ونظرية التسامح الديني.

4 ـ تنقية وسائل الإعلام من الأدعياء وفتح المجال للمثقفين الوطنيين والتقدميين العرب وعلماء الدين الوطنيين من داخل سورية وخارجها للإسهام في العملية الوطنية والديمقراطية.

5 ــ التشجيع على إقامة وإنشاء القنوات الفضائية والإذاعات والصحف السورية وتشجيع الاستثمارات فيها لمواجهة احتكار الرأسمال العربي والأجنبي للفضاء الإعلامي والغزو الفكري للأجيال العربية.

6 ـ التواصل مع القنوات الفضائية السورية والقنوات العربية التي تشاركها نفس الأهداف لتحرير العقل العربي من الغزو الفكري والتضليل الإعلامي وتزييف الدين الإسلامي الحنيف وتزوير التاريخ العربي والحضارة العربية.

7 ـ إنشاء مجالس استشارية من كبار العلماء والمثقفين في وزارة الإعلام والثقافة والتربية والتعليم العالي لتوجيه البرامج والمناهج اليومية والشهرية لمواجهة المؤامرة وبناء الشعب المقاوم جنباً إلى جنب مع الجيش المقاوم.

8 ـ تطوير تجربة الجيش السوري الإلكتروني وتجربة شباب سورية ومنظمات المجتمع المدني نحو ديمقراطية تفاعلية متطورة وتشاركية في كل نواحي الحياة السورية.

9 ـ نشر مبادئ حقوق الإنسان والتوعية بمضمونها بعيداً عن استغلال الدول الاستعمارية لها لخدمة سياسات خارجية ضد المصلحة الوطنية وخاصة الحقوق السياسية والمدنية والاقتصادية وشرح الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان وتقوية العلاقة بين مؤسسات حقوق الإنسان الوطنية ومنظمات المجتمع المدني داخل الوطن وضمان احترام الخصائص الوطنية والروحية والهوية الثقافية لكل شعب من الشعوب[1].

---

[1] راجع مجلة الفكر السياسي ـ العدد 43 ـ 44 عام 2012 اتحاد الكتاب العرب ـ مقال الدكتور عيسى درويش

المراجع:

1 ـ تاريخ سورية المعاصر ـ د. كمال ديب ـ بيروت ـ دار النهار 2011 ـ ص82 سورية الدولة الوطنية.

2 ـ مجلة شؤون الأوسط.

3 ـ الخطاب الديبلوماسي ـ كونستانتيز فيلار ـ ترجمة: د. قاسم مقداد ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق 2012.

4 ـ المجلة العربية للعلوم السياسية ـ العدد 23 لعام 2012، مقال رعد عبد الجليل وآخرين ـ نموذج الدولة ـ الأمة التقليدي ـ ص121.

5 ـ مختصر تاريخ العدالة ـ تأليف ديفيد جونستون ـ ترجمة مصطفى ناصر ـ العدد 387 ـ عالم المعرفة ـ الكويت 2012.

6 ـ مجلة الفكر السياسي ـ العدد 43 ـ 44 اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ مقال عيسى درويش ـ حقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية.

7 ـ نحن والإمبراطورية الأمريكية ـ محمد بغدادي ـ ص17.

8 ـ وسائل الإعلام والمجتمع ـ تأليف آرثر أسابيرغر ـ ترجمة صالح خليل أبو إصبع ـ عالم المعرفة ـ عدد 386 ـ الكويت 2012.

9 ـ آلان مينك ـ مقال للدكتور غسان الرفاعي ـ جريدة الثورة السورية 2011/12/17.

❑❑

ـ ص199 (حقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية).

الطبيعة المحتملة لحروب اليوم والمستقبل

□ د. أكرم محمود الشلّي

يستخدم العلم العسكري نظام عاماً وحيداً للمؤشرات التي توصِّف بدقة كافية هذه الحرب أو تلك ، وفق مخططٍ واحد ، ونظام المؤشرات هذا بمجمله يدعى من قبل العلماء(طبيعة الحرب) ويتحدد طابع الحرب بأنه إجمالي أهم المؤشرات والعناصر والملامح التي تكشف محتواها العسكري والسياسي والاستراتيجي . وفي المرحلة الراهنة يشكل الصراع الاقتصادي والمعلوماتي المكونات الجديدة في محتوى الحرب. إذ تظهر خبرة حروب السنوات الأخيرة أن هذين النوعين من الصراع أصبحا في مرتبةٍ واحدة مع الصراع المسلح وبواسطتهما يتم تحقيق الأهداف السياسية والاستراتيجية للحرب .

ويقترح العلماء أن تعرف طبيعة الحرب بأنها :

مجموعة المؤشرات والعناصر والملامح التي تكشف محتواها: العسكري-السياسي ، العسكري ـ الاستراتيجي ، العسكري-الاقتصادي ، المعلوماتي.

منهجية التنبؤ بطبيعة حروب المستقبل:

- لدى التنبؤ بالمحتوى العسكري – السياسي يفترض تحديد : الأساليب المحتملة للحرب – الأهداف السياسية للحرب من وجهة نظر العدو – قوام الأطراف المتحاربة – الموقف الممثل للعناصر القوات المسلحة وسكان البلاد من الحرب في الدول المشاركة في الحرب .
- عند التنبؤ بالمحتوى العسكري - الاستراتيجي للحروب ينبغي تحديد :

الأهداف والمهام للحرب – ظروف وأساليب نشوء الحرب – أنواع الأسلحة المستخدمة – مستوى الحرب – وأبعاد الأعمال القتالية – أساليب وأشكال خوض الأعمال القتالية – مدة الحرب ومحتواها – خصائص الأعمال القتالية وعواقبها المحتملة .

- عند التنبؤ بالمحتوى العسكري – الاقتصادي للحروب يجب تحديد :

الأهداف والمهام الاقتصادية للحرب – الأساليب والأشكال التي يستخدمها العدو في الصراع الاقتصادي وعواقبها المنتظرة .

- عند التنبؤ بمحتوى الصراع المعلوماتي يفترض تحديد :

أهداف الصراع المعلوماتي – أساليب وأشكال الصراع المعلوماتي وعواقبها المحتملة.

1 ـ المحتوى العسكري ـ السياسي للحروب المعاصرة وحروب المستقبل:

أ- تأثير على جميع مجالات الحياة البشرية .

ب- طابع التحالفي للمشاركين فيها .

ت- الاستخدام الواسع وأساليب العمل غير المباشرة أو اللاتماسية والتأثير الناري والالكتروني من مسافات بعيدة.

ث- الصراع المعلوماتي الفعال (تضليل الرأي العام في دول محددة أو في العالم).

ج- سعي الأطراف للإخلال بمنظومات القيادة العسكرية والحكومية.

ح- استخدام أحدث منظومات التسليح والأعتدة العسكرية.

خ- أعمال القوات التي تتصف بالمناورة مع استخدام واسع للقوات المنقولة جوياً والانزالات وقوات المهام الخاصة .

د- التأثير على القوات وأغراض المؤخرة والاقتصاد وعلى كامل الأطراف المتصارعة وتنفيذ الحملات والعمليات الجوية.

ذ- احتمال تصاعد الصراع المسلح وتوسع مستوى وطيف الوسائط المستخدمة بما فيها سلاح التدمير الشامل .

ر- احتمال انخراط دول أخرى جديدة في الحرب واشتراك تنظيمات غير نظامية في الحرب إلى جانب القوات النظامية .

2 ـ المحتوى العسكري ـ الاستراتيجي لحروب المستقبل :

الأهداف الاستراتيجية للحرب: هي النتائج المخططة والمنتظرة للأعمال القتالية التي تؤدي إلى تغيرٍ جذري في الموقف العسكري السياسي والاستراتيجي في الحرب ، أو إلى تغيرٍ في بعض مراحلها بما يحقق أهدافاً سياسية محددة ، وتتلخص الأهداف الاستراتيجية للحرب بما يلي :

أ- هزيمة القوات المسلحة المعادية على مسرح الأعمال القتالية أو على اتجاه استراتيجي هام .

ب- سيطرة على مناطق واسعة وذات أهمية حيوية من أراضي العدو .

ت- إلحاق الضرر الجسيم بالعدو في المجال العسكري والاقتصادي مما يخفض إلى درجة كبيرة قدرته على خوض الأعمال القتالية لاحقاً وإخراج حلفائه من الحرب بما يؤمن عزله ومحاصرته بشكلٍ كامل .

المهام الاستراتيجية: هي تنفيذ قرارات وتوجيه القيادات العسكرية والسياسية العليا والمعبرة عنها على شكل متطلبات محددة لتنفيذ أعمال قتالية بالقوات المسلحة موجهة نحو تحقيق أهداف إستراتيجية . والمهام الاستراتيجية هي عبارة عن تقسيم الهدف الاستراتيجي المحدد وفق مراحل تحقيقه وأغراض الأعمال القتالية ، وهي تركيز جهود القوات المسلحة وتجسيد الهدف في زمن ومجال محدد ، كما أنها صد العدوان والضربة المعاكسة الاستراتيجية في العملية الدفاعية ، والتأثير على الاحتياطات الاستراتيجية وكذلك إحراز التفوق في الجو والبحر .

الظروف والأساليب المحتملة لنشوب الأعمال القتالية: للتنبؤ بالظروف المحتملة لنشوب الحرب لابدَّ من بداية لتحديد الفترة المحتملة (التوتر) التي تسبق بدءَ الأعمال القتالية وبمعنى أخر تباين كم من الوقت يتوفر للحكومة للإعداد المباشر لصد العدوان وهنا يأتي دور الاستطلاع والمعلومات وتحليلها والتنبؤ بالنوايا العدوانية وتوقيت بدايتها لإتاحة الوقت المناسب لاتخاذ الإجراءات المضادة . أما عند التنبؤ بأساليب شن العدوان فإن العدوان يبدأ بتوجيه ضربات جوية وصاروخية على شكل حملة أو عملية جوية طويلة أو تنفيذ ضربات جوية صاروخية مفاجئة قد تكون جماعية أو منفردة منتقاة .

وعند التنبؤ بالحرب المحتملة ينبغي الأخذ بعين الاعتبار أن الأسلحة العصرية تسمح للعدو بتنفيذ تأثير ناري على كل أراضي البلاد (أهم الأغراض الاقتصادية والبنية التحتية) والقوات المسلحة في أي

نقطة من البلاد . والسلاح المستخدم في الحرب هو أحد المؤشرات الرئيسية للطبيعة المحتملة للحرب القادمة.

حسب رأي الكثير من العلماء والمحللين حول مدة الحرب أنه في الفترة من العام /2015/م وحتى /2020/م من غير الواقعي خوض أعمال قتالية طويلة الأمد مع استخدام أسلحة التأثير(التدمير) المستقبلية . سواء من حيث حجم المخزون منها أو من حيث أثمانها الباهظة . لذا فإن العدو سيلجأ بالتوازي مع استخدام وسائط التأثير العصرية ذات الدقة العالية إلى استخدام الأسلحة والأعتدة القتالية العادية المخزنة لديه . إن التنبؤ باتجاهات تطوير وسائط الصراع المسلح تشير إلى أنه في الظروف المعاصرة والمستقبل القريب سوف تمثل وسائط التأثير المنطلقة من المجال الجوي الفضائي، الخط العسكري الأساسي لأن (100٪) من الأهداف تقع ضمن مدى تأثيرها .

ونظراً لأن التوجّهات المعاصرة لتطوير الاستطلاع الفضائي تمكّن من إظهار وكشف المعطيات المؤكدة عن العدو وقواته المسلحة في القياس الحقيقي للزمن ، وهذه الحالة أمر الحقيقة يمكن أن تلغي مبدأ حشد القوى الرئيسية على الاتجاه الرئيسي أو على اتجاه أخر منتقى ، إذ أن هذا الحشد سوف يشكل هدفاً قتالياً لتوجيه الضربات إليه باستخدام أسلحة الدقة العالية المدمرة ويلحق بالتجميع الرئيسي للقوات خسائر لا تعوض ويجب الاعتراف أن المستقبل فعلاً لأسلحة الدقة العالية إلا أن عدم توفرها لدى الدول بكميات كافية يدعونا للاعتماد على الأسلحة المتوفرة واستخدامها بأسلوب يتناسب مع طبيعة الحرب القادمة وأساليب استخدام العدو لقواته في الميدان .

ومن المتوقع ظهور أساليب وأشكال خوض صراع مسلح جديد في حروب العشر سنوات القادمة.

1 ـ المتغيرات في أساليب الأعمال القتالية للطيران:

أ- الازدياد المضطرد في أبعاد ومجالات الأعمال القتالية وزيادة حجم المهام العملياتية – الإستراتيجية والاستراتيجية التي ينفذها الطيران .

ب- بروز الإمكانية للتنفيذ المركب والآني للمهام الرئيسية منذ المرحلة الأولى للأعمال القتالية.

ت- اختصار مهل تنفيذ المهام القتالية الأساسية من قبل الطيران نتيجة للتصاعد الملموس في كثافة و دينامية الأعمال القتالية .

ث- تزايد المتطلبات في مجال إعلام وتلقي المعلومات الاستطلاعية المؤكدة حول أغراض الضربة عند تخطيط وتنفيذ الضربات الجوية.

ج- ظهور إمكانية حقيقية لإحراز مفاجأة تكتيكية وخاصة عند توجيه الضربة الجوية الأولى

ح- تغييرات في البنية العملياتية – التكتيكية لوسائط الهجوم الجوي بسبب زيادة كمية وسائط التدمير بدون طيار عند توجيه الضربات الكثيفة.

وإضافة إلى ما سبق تجري تغيرات في تراتيب قتال الطائرة الضاربة في المستوى التكتيكي.وهذا يفسر ويعلل بالدقة العالية لوسائط التدمير مما يسمح بحل المهام القتالية بقوام صغيرة من القوى (القوات) واستناداً إلى الحسابات فإن عدد الطائرات اللازمة لتدمير نفس عدد الأغراض يقل /4 -5/ مرات في حال استخدام أسلحة الدقة العالية عما هو عليه الحال باستخدام الأسلحة التقليدية غير الموجهة ولذلك فقط أصبح لمفهوم "الضربة الصاروخية -الجوية الكثيفة" مضمون مختلف تماماً عما هو معروف سابقاً.

وفي الحروب المستقبلية ستظهر إمكانية التأثير (التدمير) المركب على الأنساق الأولى والثانية لقوات (قوى) العدو. مع التأثير بآنٍ واحد على أغراض التدمير كلها وهذا التوجيه مشروط بالاستخدام الكبير لوسائط التأثير ذات الدقة العالية الموجهة (بدون طيار) ذات المدى البعيد وبالتصاعد الكبير لإمكانيات الطائرات الضاربة .

المعالم الجديدة لمحتوى مبادئ وخصائص تجميعات القوات البرية في الحروب المحتملة:

1- **المفاجأة** : ازدياد دورها بشكل كبير وخاصة في بداية العملية المشتركة وزيادة إمكانية حدوثها مع توافر ترسانة الوسائط والأساليب اللازمة لتأمين ذلك وهي في تزايد.

2- تعلق حسمية أهداف العمليات بشكل رئيسي بإمكانيات وسائط التأثير العصرية والمستقبلية الأمر الذي يؤثر بدوره على اختيار أسلوب تدمير (هزيمة) العدو كما يؤثر بالطبع على مهل الأعمال القتالية ونتائجها النهائية.

3- إعطاء العمليات المشتركة طابع الدينامية والمناورة العالية نظراً لزيادة إمكانيات وسائط الصراع المسلّح والتغيرات النوعية في تنظيم واستخدام القوات.

4- **إيلاء** الاهتمام الخاص للصراع ضد قوى الإنزال والتخريب. وقد أثبتت خيرة الحروب منذ "عاصفة الصحراء" وحتى الآن ذلك.

5- ازدياد دور وأهمية التأثير الناري على المستويات كافة التكتيكي والعملياتي والاستراتيجي ما جعله يشكّل المحتوى الأساسي للأعمال القتالية.

6- أصبح الاستخدام الكثيف لوسائط الصراح المسلح الجديدة التأثير الناري بآن واحد على كامل عمق ترتيب العدو واستثمار نتائجه في التأثير وفي تدمير قوات العدو في الجبهة والمؤخرة هو الأسلوب الأساسي في الأعمال القتالية.

7- يؤدي الاستخدام الكثيف لوسائط التأثير القوية إلى تغير في الموقف ما يفرض البحث عن أساليب جديدة من شكل إلى آخر.

8- وقوع خسائر كبيرة في العناصر والعتاد الحربي وزعزعة أهم عناصر الترتيب العملياتي و الترتيب القتالي لقوات العدو وعرقلة قيادة قواته وتخفيض القدرة القتالية لتجمعات كاملة من قواته بسبب الاستخدام الواسع لأسلحة الدقة العالية.

المهام الرئيسية للأساطيل (القوى البحرية) في حروب المستقبل :

1- إحراز المحافظة على السيطرة في المنطقة البحرية.

2- عزل منطقة الأعمال القتالية من جهة البحر، تنفيذ الحصار البحري ضد القواعد البحرية المعادية.

3- الاشتراك في الحملة الجوية (العملية الجوية) باستخدام الصواريخ المجنحة المنطلقة من السفن و الغواصات وطيران سفن السطح.

4- الاشتراك في العمليات الجوية – البرية للقوات البرية باستخدام مشاة البحرية.

5- إبراز الانزلات البحرية.

6- تأمين نقل القوات والحمولات الحربية.

7- الدفاع عن مناطق تموضع (قواعد) الأسطول وعن المواصلات البحرية .

مدة الحرب :

تتعلق مدة الحرب بشكل أساسي بعاملين هما :

1- تحقيق أهداف الحرب لأحد الأطراف وخسارة الطرف الآخر.

2- استهلاك واستنفاد القوى الاقتصادية والعسكرية والسياسية والمعنوية لدى الطرفين مما لا يترك مجالاً لاستمرار الأعمال القتالية وتحقيق الأهداف.

يسعى المعتدي دائماً وحسب الخبرة التاريخية إلى تحقيق الأهداف الاستراتيجية للحرب في أقصر وقت ممكن ، ولذلك فإن سير الحرب ومصيرها يرتبطان بالنتائج المحققة من الأعمال القتالية في المرحلة الابتدائية للحرب .

خصائص الأعمال القتالية في الحروب المستقبلية:

1- توجيه الضربات إلى الأغراض العسكرية وإلى الاقتصاد بجميع بناه التحتية وإلى سكان البلاد.

2- اتصاف الأعمال القتالية بعمليات المناورة ودفاع المواضع وستكون حرب الأنصار وأعمال المجموعات الاستطلاع والتخريب جزءاً لا يتجزأ من الحرب .

3- قدرة القيادة على إيصال معطيات الاستطلاع الدقيقة إلى كل المستويات في أقصر وقت.

4- حل مهام تدمير وهزيمة العدو ليس في مجرى اشتباك كتل كبيرة من المشاة والدبابات بل سيتم بأسلوب التأثير الناري عن بعد وسوف تحدد الوسائط الحديثة للتأثير الناري وحجم توافرها لدى أي طرف بشكل أولي وحاسم مصير الحرب.

5- سماح وسائط التأثير الناري ـ بعيدة المدى مع المناورة وحشد القوات ـ بتحقيق المناورة بمعارك الصواريخ والقذائف لإنزال ضربات نارية كثيفة بتجمعات محددة من قوات العدو ،

وسيكون بإمكان التجمعات الضاربة التحرك نحو الاتجاهات المنتقاة بضرباتها الرئيسية في أخر لحظة.

6- إعادة النظر بأساليب انتشار القوات في الجبهة والعمق سواء في الدفاع أم الهجوم (إعادة النظر بالمعدلات التكتيكية - العملياتية).

7- لعب منظومة الدفاع الجوية الحديثة دوراً حاسماً.

8- تنفيذ مجموعة واسعة من التدابير لإخفاء بداية الهجوم وطبيعة التحضير له.

9- يبقى تنفيذ عمليات برية باستخدام القوات البرية أحد المكونات الأساسية للحروب بالرغم من أن الكثير من مهام التأثير على العدو ستنفذ بالأسلوب اللاتماسي.

محتوى الصراع الاقتصادي:

تتعلق أساليب الصراع الاقتصادي بأهداف الحرب وطابعها. وهذا مرتبط بالأهداف العسكرية -السياسية التي تلعب الدور الحاسم في انتقاء الأغراض والأساليب و شدة الضربات وأشكال الصراع الاقتصادي.

أساليب الصراع الاقتصادي الأكثر انتشاراً:

الحظر والحصار والمشتريات الوقائية للسلع وحظر توريدات المواد الغذائية وتخريب خطوط المواصلات والنقل والتأثير المسلح المباشر على الأغراض الاقتصادية ، والعمليات الخاصة ضد وسائط المؤخرة الاقتصادية وعمليات القوات المسلحة المتعلقة بالاستيلاء على الأغراض المهمة اقتصادياً و زعزعة الاقتصاد.

محتوى الصراع المعلوماتي:

يُعدّ القرن الحادي والعشرون قرن سيطرة المعلومات والتقانة المعلوماتية عن جدارة. ولقد مكنت منجزات العلم في مجال الاتصالات وتقانة المعلومات من تحقيق تطورات مذهلة ، وما شوهد من تبدلات خلال العقدين الأخيرين يكاد يقارب التبدلات التي احتاجت إلى قرنين في الماضي.

لقد أوجدت الثورة المعلوماتية مجالاً جديداً للصراع المعلوماتي في إطار الصراعات الأخرى التي تضمها الحرب بمفهومها الشامل ، وأوجدت مع الصراع المعلوماتي وسائله وطرائقه الجديدة لتكون تحت تصرف القادة ، هذا الصراع الدائر حالياً ـ والذي لم ولن يتوقف ـ مستمر متميز بذلك عن الصراع المسلح والحرب بشكلها المعروف اللذين ينشبان لفترة محددة ، حيث يتولى الغزو المعلوماتي -الثقافي، والمعلوماتي -الأيديولوجي الغربي والإسرائيلي عبر شبكات الاتصال ووسائط الإعلام المرئية والمسموعة بأشرطة الكاسيت الفيديو والأفلام السينمائية.

الصراع المعلوماتي: وهو المحتوى الأساسي للحرب المعلوماتية أو هو شكل للصراع في الحرب باستخدام وسائط الصراع المسلح ، ويتلخّص بالاستخدام المنظم من قبل الطرفين المتحاربين لقوى خاصة ووسائط وطرق التأثير المعلوماتي وتنفيذ الحماية من مثل هذا التأثير من أجل كسب التفوق المعلوماتي وإلحاق الأضرار الاقتصادية والسياسية والعسكرية وغيرها بالخصم.

- **الصراع المعلوماتي للقوات المسلحة:** هو نوع من أنواع الصراع الذي ينفذ من قبل أجهزة وقوى ووسائط خاصة من القوات المسلحة وأنواع وصنوف القوات والقوات الاختصاصية في المجال المعلوماتي في زمني السلم والحرب بهدف كسب (أو المحافظة على) التفوق المعلوماتي، والمحافظة على الإمكانيات المعلوماتية الذاتية عن طريق التأثير المعلوماتي على العدو وتحييد (صد) التأثيرات المماثلة التي يبديها العدو.
- **وسائط الصراع المعلوماتي** : هي مجموعة من الوسائط التي تضم السلاح المعلوماتي ووسائط الحماية المعلوماتية ووسائط قيادة وتأمين عملية الصراع المعلوماتي.
- **السلاح المعلوماتي:** هو مجموعة المعلومات المنظمة خصيصاً والمنتوجات البرمجية وتقانة المعلومات والأجهزة والوسائط الفنية التي تمكن من تنفيذ التأثير المعلوماتي الهادف على العدو في أثناء سير الصراع المعلوماتي من أجل تحقيق الأهداف المقررة .

وتقسم الأسلحة المعلوماتية من حيث الهدف من استخدامها إلى ثلاثة أنواع:

أسلحة تأمينية؛ وأسلحة مهاجمة؛ وأسلحة مانعة للعمل.

كما تقسم من حيث أسلوب تطبيق التأثيرات المعلوماتية إلى خمسة أنواع:

أسلحة معلوماتية رياضية (خوارزمية)؛ وأسلحة معلوماتية برمجية؛ وأسلحة معلوماتية جهازية؛ وأسلحة معلوماتية ذات ظواهر شاذة؛ وأسلحة معلوماتية كيميائية وبيولوجية خاصة.

أهداف حرب المعلومات التي تتحقق مع وسائط الصراع المعلوماتي:

1- تأمين تحقيق المصالح السياسية والاقتصادية للدولة بدون استخدام الصراع المسلح وبدون إعلان حالة الحرب .
2- تحضير الرأي العام للعدوان المسلح على الدولة (الدول) الأخرى.
3- تشكيل قوى معارضة على أراضي الدولة المعادية وخلق الظروف من أجل تغيير النظام في تلك الدولة دون تدخل مسلح علني.
4- تغيير نمط حياة وعادات وسلوك القسم الأكبر من سكان الدولة المعادية وكذلك تدمير قيمهم الروحية والتاريخية .

5- تخفيض فعالية عمل أجهزة السلطة المدنية والعسكرية في الدولة وإجبارها على اتخاذ قرارات طويلة الأمد.

6- متابعة تطور العلاقات التجارية والسياسية الخارجية للدولة وكذلك مقاومة قيام منظمات أو أحلاف دولية وإعاقة عملها.

من الممكن تحقيق أهداف حرب المعلومات عن طريق حلّ عدد من المهام والتي يمكن تنفيذها عن طريق إجراء عمليات معلوماتية وأعمال معلوماتية منتظمة وضربات (هجمات) معلوماتية إعلانية .

العمليات المعلوماتية: مجموعة تدابير التأثير المعلوماتي النفسي والتأثير المعلوماتي الفني على العدو والوقاية الذاتية من مثل هذه التأثيرات والمنفذة بموجب فكرة وخطة موحدة وتحت قيادة موحدة .

- **العملية المعلوماتية التي تنفذها القوات المسلحة (تجميع القوات) :**

هي مجموعة التدابير المنفذة بموجب فكرة وخطة موحدة وتحت قيادة موحدة للتأثير البرمجي – الرياضي على منظومات التحكم المعلوماتية للعدو ولتضليل وإخفاء الأفكار الذاتية والإبطال اللاسلكي الألكتروني لشبكات الاتصال وتدابير أغراض البنية التحتية المعلوماتية وكشف المؤشرات (العلامات) الدالة على الهجوم المعلوماتي واستعادة مستوى الأداء الوظيفي للأغراض التي تعرضت لمثل هذا الهجوم والمحافظة على الروح المعنوية العالية للعناصر .

- **العملية المعلوماتية – الإعلامية :**

هي أعلى أشكال الصراع المعلوماتي تبعاً للأهداف والمهام والقوى والوسائط والطرق المستخدمة حسب الأنواع التالية :

- العملية المعلوماتية – النفسية .
- العملية المعلوماتية – الفنية .
- العملية المعلوماتية – المركبة .

الخلاصة: كان الهدف من البحث في الطبيعة المحتملة لحروب المستقبل هو التنبؤ ومن خلال التحليل العلمي للجوانب المختلفة لهذه القضية بمحتوى المؤشرات السياسية لها ، وبمقدار ما يكون هذا التنبؤ واقعياً وصحيحاً بمقدار ما تكون الاستفادة منه بالغة الأهمية وتؤمن النجاح في مواجهة العدوان المحتل .

إن الدول التي تستطيع شن الحروب اللاتماسية لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة وفي مقدمتها الولايات المتحدة وإسرائيل وحلفاؤها ، أما الدول المرشحة للاعتداء عليها فهي كثيرة وخاصة في منطقتنا ، وهي بالطبع لا تملك الوسائط الضرورية لخوض حروب لاتماسية وهذا يتطلب فهماً صحيحاً لخطط ونوايا واستراتيجيات العدوان والعمل على بناء استراتيجيات معاكسة لها .

تضع طبيعة حروب المستقبل (اللاتماسية) متطلبات جديدة أمام القضايا الأساسية المتعلقة بالحروب وأهمها:

1- بناء القوات المسلحة واستخدامها في الحرب وانتشارها الاستراتيجي والتدريب العملياتي والقتالي ، وقضايا إعداد الدولة لصدّ العدوان ، وستكون المتطلبات الطبيعية لنجاح القوات المسلحة والدولة بتنفيذ المهام المتعلقة بصد العدوان وهو دراسة المتطلبات الواردة أعلاه ووضع الحلول المناسبة لها.

2- بعض الجوانب المهمة التي يجب البحث فيها واستنباط التدابير والإجراءات الواجب تنفيذها .

3- التخطيط لإطالة أمد الحرب عن طريق تجهيز وتحقيق مسرح الأعمال القتالية بهدف حماية السكان والبنية الاقتصادية والقوات المسلحة وتخفيض أثار استخدام وسائط التأثير المعادية وضمان استمرار عمل الاقتصاد والقوات والقيادة لأطول فترة ممكنة ومنع المعتدي من حسم الحرب منذ المرحلة الابتدائية لها؛ وإجباره على زج قواته البرية والالتحام معها بمعارك تماسية عكس ما يخطط له.

4- إعادة النظر في المعدلات التكتيكية و العملياتية والاستراتيجية والتركيز في بناء القوات المسلحة على الاستقلالية والتكامل لقطعات وتشكيلات القوات وعملها بشكل لا مركزي في ظروف شل أو زعزعة منظومة الاتصال وإسناد المهام بشكل يؤمن تنفيذ المهمة في كافة الظروف.

5- إعادة تقييم دور أنواع وصنوف القوات ووزنها النوعي في البناء التنظيمي للقوات بما يتناسب والحرب اللاتماسية التي سيمارسها المعتدي؛ وعكس ذلك على إعادة بناء القوات المسلحة ومحاور تزويدها بالسلاح والعتاد .

6- التوجه نحو زيادة دور المشاة: المجهزة بتسليح جيد ونشرها على مسرح الأعمال القتالية ودمج دفاعها مع البؤر الدفاعية للمناطق الآهلة بالتعاون مع التنظيمات الشعبية وشبه العسكرية؛ وزيادة وتطوير مجموعات المهام الخاصة .

7- إعطاء الأهمية عند تجهيز القوات المسلحة لمسألة ما يسمى بالمشتروات الذكية (مع اعتبار الإمكانيات الاقتصادية) وإعطاء الأفضلية لاقتناء أسلحة الأعتدة والأسلحة ذات القابلية للتحديث اللاحق والخدمة لفترة طويلة إضافة لملازمتها متطلبات معاكسة الحرب اللاتماسية ، حيث تشكل منظومات الدفاع الجوي المتطورة أفضلية أولى .

8- تفعيل قوى ووسائط الاستطلاع الاستراتيجي والاستفادة من أية فرصة للتأثير على الأغراض المعادية في الفرص المتاحة سواء في مجرى الحرب أم في فترة التوتر. والتصرف بحسم واستخدام التأثير الناري وعمليات المهام الخاصة بجرأة وإنتاج تكتيكات غير مألوفة لمفاجأة العدو.

9- إن التنبؤ بطبيعة الحرب القادمة يُعبّر عن مرحلة معينة ولابد من إعادة النظر بها مع مرور الزمن ومع تطور أنواع الأسلحة وأشكال الصراع و محتواها.

❑❑

دور المغتربين العرب في القارة الأمريكية

□ د. علي دياب

إن الهجرة ظاهرة عالمية لازمت التاريخ الإنساني منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا، مع الأخذ بعين الاعتبار أسبابها وأهدافها. فتاريخ الهجرة يعود إلى آلاف السنين، فعندما انطلق الإنسان ليتعرف إلى العالم الآخر ويساهم في اكتشاف القارة التي هاجر إليها الطامحون من كل أصقاع الدنيا وبالتالي ليبدؤوا في بناء حضارة لا يزيد عمرها كثيراً عن خمسمئة عام.

إن التاريخ شاهد صدق على أن للهجرة في تاريخنا العربي جذوراً عميقة تعود إلى مئات السنين، حيث كانت موجات القبائل العربية، تنتقل في بوادي الجزيرة العربية، وتندفع باتجاهات متعددة نحو السواحل في شرق المتوسط والشمال الإفريقي، وإلى تموضع الأنهار (على ضفاف النيل والرافدين). لقد أسهمت هذه الهجرة الأولى، التي استهدفت البحث عن الطمأنينة والعيش وضرورات الحياة في إقامة أولى الحضارات التي نشأت عنها ممالك وإمبراطوريات، مثلت النموذج التاريخي لكيانات الدول ونظمها في العصر الحديث، وكان من أعظم هذه الممالك والإمبراطوريات الأكادية والبابلية والآشورية والكلدانية، ومن ثم الفتح الكبير الذي أعطى للإنسانية مرتكزات التطور الفكري والحضاري المتنوع، والمتمثل بالدولة العربية الإسلامية.

إذا كانت الهجرة حركة سكانية طبيعية تقتضيها ضرورات الحياة، فإن شعبنا العربي الذي يعيش على الضفة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، قد تميز بحب التواصل مع الشعوب الأخرى، والتفاعل مع الحضارات المختلفة. فالاغتراب مغامرة حملتها أجياله في دمائها، ونقلتها للأجيال اللاحقة تاريخاً متوارثاً، وقد استمرت هذه الظاهرة حتى يومنا هذا، إذ اندفع في منتصف القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين على شكل موجات، مئات الآلاف من الشباب العربي، خاصة من بلاد الشام وما يعرف اليوم - سورية ولبنان وفلسطين والأردن - يقتحمون ديار الغربة البعيدة ويبحثون في العالم الجديد، في القارة الأمريكية عن الأمان، وعن سبل العيش الكريم، وهرباً من قمع الاحتلال وظلمه، واجتناباً للفقر والجهل والمرض الذي كان يخيم على أرجاء الوطن العربي الكبير.

انتشر هؤلاء المغتربون في أصقاع القارة الأمريكية، شمالها ووسطها وجنوبها، وفي مختلف جزر الكاريبي والأنتيل، يبحثون عن الرزق الكريم، ويحلمون بجني وفير يمكنهم من العودة إلى أوطانهم، وقد ظفروا بما كانوا يطمحون إليه. فبدل أن يعودوا إلى وطنهم الأم، تحولوا نحو الاستقرار، والإقامة الدائمة، فحملوا جنسية أوطانهم الجديدة، ونقلوا إليها خصائص أمتهم وثقافتها وقيمها وعاداتها وتقاليدها، وأخلصوا لأوطانهم الجديدة، فأسهموا في بنائها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبرز منهم رجال سياسة واقتصاد وعلم وأدب وفن، فاستحقوا الترحيب والاحترام من شعوب تلك البلدان وجالياتها المختلفة، وبادلوها ذلك بالوفاء والإخلاص والعمل الجاد، فكانوا خير رسل لأمتهم ووطنهم الأم.

هذه القارة التي استقبلت بضع مئات في بداية منتصف القرن التاسع عشر وتضم الآن أكثر من سبعة وعشرين مليوناً من أصل عربي، يشكلون فعاليات اقتصادية واجتماعية وسياسية وإعلامية مهمة، لا تزال إلى حد ما غير منظمة، إلا أن ذلك لا يقلّل من أهمية محاولات كثيرة بذلت ولا تزال تبذل من أجل توحيد جهود المغتربين العرب، وتفعيل طاقاتهم وذلك بغية التقليل مما يعانيه المغتربون في تلك الديار أولاً وحشد هذه الجهود لخدمة قضايا وطنهم الأم ثانياً. فحين ارتفع صوت العرب في المهجر في دول القارة الأمريكية مطالبين بما يسهم في تحقيق طموحاتهم، كانت سورية وعاصمتها دمشق قلب العروبة النابض أول من لبى النداء، وتضافرت الجهود إلى أن كان المؤتمر الأول الذي شهد أول شكل تنظيمي للمغتربين العرب في دمشق عام 1973، ومنذ ذلك التاريخ والحركة مستمرة لإرساء قواعد تنظيمية تخدم المهاجرين في أوطانهم الثانية، وتجعل منهم قوة فاعلة ومؤثرة، تسهم في خدمة قضايا أمتنا المصيرية.

سنتناول موضوعنا من خلال العناوين التالية:

- تاريخ الهجرة وأسبابها.
- التوزع الجغرافي للمغتربين.

- المؤسسات المختلفة للمغتربين العرب في أهم بلدان الاغتراب: الولايات المتحدة – البرازيل - تشيلي - فنزويلا -الأرجنتين -الهيكل التنظيمي للمغتربين العرب -اتحاد المؤسسات العربية -الأمريكية فيآراب.
- منظمة البرلمانيين الأمريكيين المتحدرين من أصل عربي.
- اللجنة القومية للمغتربين العرب.
- وزارة المغتربين.

تاريخ الهجرة وأسبابها:

بدأت الهجرة العربية إلى القارة الأمريكية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبلغت أوجها في العقود الثلاثة من مطلع القرن العشرين، كان لبنان في طليعة الدول العربية من حيث عدد أبنائه المغتربين وتليه سورية ومن ثم فلسطين والأردن، وقد وجدت الهجرة طريقها إلى شواطئ أمريكا الجنوبية من حمص واللاذقية والقلمون والسويداء وحماة، وقد تبع هذه الهجرة موجات أخرى من حلب والسويداء والحسكة. ففي الأرجنتين بدأت الهجرة عام 1833 وفي البرازيل عام 1860 وفي كندا عام 1882 وفي الولايات المتحدة عام 1878 وفي فنزويلا عام 1945. كان ابراهيم أبو نادر اللبناني الأصل، أول عربي يهاجر إلى كندا. هذا واتفق بعض المؤرخين على أنه في عام 1878 هاجرت أول أسرة عربية من القطر السوري إلى الولايات المتحدة وهي أسرة يوسف عربيني. وقد بدأ تقلص الهجرة إلى الولايات المتحدة بدءاً من عام 1924 بسبب التشريعات الأمريكية التي حددت الهجرة السنوية.

في فنزويلا كان للحرب العالمية الثانية دور مهم في الهجرة إليها، وقد شهدت الفترة ما بين 1945 -1958 موجات من المهاجرين العرب، وشكل مهاجرو حلب والسويداء ودرعا واللاذقية من سورية الأكثرية الساحقة من هؤلاء المهاجرين. أما الهجرة إلى أمريكا الجنوبية فقد بدأت طلائعها بعد خمسة وعشرين عاماً من الهجرة إلى أمريكا الشمالية، ولم يزدد عدد المهاجرين من سورية إلا في بداية عام 1906 بعد أن تم التوقيع على معاهدة الهجرة بين الحكومة العثمانية وحكومة البرازيل إثر زيارة **بدرو الثاني** إمبراطور البرازيل للبنان وفلسطين وحث الناس على السفر إلى بلاده، وبعد أن اتجهت حكومتا البرازيل والأرجنتين إلى إزالة كل عقبة تحول دون هجرة العرب إلى أمريكا الجنوبية.

إن المحطة الأولى للقوافل المهاجرة كانت شواطئ البرازيل، فمنهم من استقر على أرض الولايات المتحدة شمالاً، أو في جزر الكاريبي والأنتيل، أو على أرض فنزويلا وكولومبيا، كما توغل آخرون غرباً في بوليفيا والبيرو والتشيلي والأرجنتين. ومع بداية القرن العشرين انتشر المغتربون العرب في مختلف بلدان القارة الأمريكية حتى أصبح من الشائع أنه ليس من جزيرة أو قرية داخل القارة ـ مهما نأت ـ تخلو من مواطنين من أصل عربي، استوطنوا فيها في أزمنة وظروف مختلفة.

أما أسباب هذه الهجرة فيمكن أن نجملها بمايلي:

1 - الاستعمار العثماني والأعباء الاقتصادية التي كان يرزح تحتها المواطن العربي.

2 - الحربان العالميتان الأولى والثانية وما عاناه الإنسان العربي في ظلهما ولاسيما أن الحرب الثانية جعلت الوطن العربي مسرحاً لعملياتها.

3 - الاحتلال الصهيوني لفلسطين ومعاناة الشعب الفلسطيني من الذبح والتشرد الذي تعرض له في ظل واقع عربي ضعيف وبائس.

4 - الوضع المادي المتردي للكثير من المواطنين العرب ورغبتهم في تحسين وضعهم المعيشي.

التوزع الجغرافي للمغتربين العرب في القارة الأمريكية:

من الصعوبة بمكان أن نقوم بإحصاء دقيق للمغتربين العرب عامة والمغتربين السوريين خاصة على غرار ماتقوم به الدولة أو أي جهة رسمية في هذا البلد أو ذاك، إذ سبق لبعثاتنا الدبلوماسية أن وافتنا بإحصائيات عدة وكذلك المؤسسات الاغترابية ولكنهما لم يستطيعا إنجاز أي إحصاء يشير إلى دقة ما، في هذه المسألة، فقد مرت أربعة أجيال باعدت بين مغتربينا ووطنهم الأم، وأصبحوا مواطنين في تلك البلاد التي هاجروا إليها، وقد ذكر قسم من هؤلاء المغتربين أنهم لايعرفون المدينة التي قدم منها آباؤهم وأجدادهم ولكنهم شباب يشتعلون حيوية وحباً لسورية، إنهم يبحثون عن جذورهم، فمهمتنا أن نفتح لهم الطريق أو نعمل على تحريك عاطفة الحنين وربطهم بالوطن وجعلهم فاعلين في تلك النوادي التي تحمل بصمات آبائهم وأجدادهم.

ومن خلال العودة إلى الدراسات التي بين أيدينا يمكننا الإشارة إلى أعداد المغتربين وفق مايلي:

1 - **الولايات المتحدة**: يتوزع المغتربون العرب السوريون على 48 ولاية وقد بلغ عدد أبناء بلاد الشام بين عامي 1899 -1924 /10534/ مغترباً وفي عام 1977 وصل عددهم إلى / 1209158/ مغترباً. يقدر عدد المغتربين في أمريكا الشمالية بخمسة ملايين ويقال: أن عدد السوريين منهم بين / 1.5 -2 / مليون مغترب.

2 - **كندا**: تشير بعض الدراسات إلى أن عدد الجالية السورية يقدر بمئة ألف مغترب ولدى بعضها الآخر يصل العدد لديها إلى /180/ ألف مغترب.

3 - **أمريكا اللاتينية**:

1 - **البرازيل**: تضم البرازيل بحدود 10٪ من سكانها متحدرين من أصل عربي ومعظمهم سوريون ولبنانيون وتتضارب الآراء حول عدد السوريين واللبنانيين ويرجح معظم الباحثين أن العدد يكون مناصفة ولاسيما أنه عندما بدأت الهجرة كانوا يعرفون أنهم سوريون. وبذلك يكون العدد بين 18 -20 مليون متحدر من أصل عربي وهذه النسبة تتضح من

خلال عدد ممثلي هذه الجالية في مجلسي النواب والشيوخ البرازيليين.

2 - **الأرجنتين**: عدد العرب 2.5 مليون ويقدر عدد السوريين بمليون وستمئة ألف.

3 - **فنزويلا**: 500.000 ألف نسمة.

4 - **التشيلي**: 70.000 ألف نسمة.

5 - **كولومبيا**: 50.000 ألف نسمة.

6 - **المكسيك**: 40.000ألف نسمة.

7 - **بوليفيا**: 30.000 ألف نسمة.

8 - **الدومينكان**: 30.000 ألف نسمة.

9 - **هندوراس**: 20.000 ألف نسمة.

10 - كوبا: 25.000 ألف نسمة.

11 - **الأكوادور**: 10.000 آلاف نسمة.

12 - **هاييتي**: 10.000 آلاف نسمة.

13 - **البيرو**: 15.000 ألف نسمة.

14 - **الأرغواي**: 15.000 ألف نسمة.

15 - **غواتيمالا**: 5.000 آلاف نسمة.

16 - **كوستاريكا**: 8.000 آلاف نسمة.

17 - **بنما**: 5.000 آلاف نسمة .

18 - **زنيندا وتوباغو**: 8.000 آلاف نسمة.

19 - **الباراغواي**: 15.000 ألف نسمة .

20 - **السلفادور**: 10.000 آلاف نسمة.

المجموع: **27000046 سبعة وعشرون مليوناً وستة وأربعون** ألفاً. وتجدر الإشارة إلى أن عد المغتربين العرب في بلدان القارات الأمريكية يفوق هذه الأرقام وهذا ما يؤكده الأخوة المغتربون عند اللقاء بهم في مناسبات عدة، وقد اعتمدنا في هذه الإحصائية على كراس صادر عن مكتب الإعلام والنشر في القيادة القومية لعام 1984 ودراسة إحصائية صادرة عن إدارة المغتربين في وزارة الخارجية السورية لعام 1999 .

المؤسسات المختلفة للمغتربين العرب في أهم بلدان الاغتراب:

لا يمكن حصر هذه المؤسسات، لأنها تعد بالمئات إذ لا تخلو مدينة في كل أنحاء أمريكا من وجود تنظيم معين للمغتربين، وقد بدأت كتظاهرة للتعبير عن وجودهم الاجتماعي أسوة ببقية الجاليات الأجنبية، فكانت في البداية على شكل نوادٍ يجتمع فيه هؤلاء المغتربون وذات طابع خيري، ثم توسعت وتطورت مع الزمن، حتى غدا بعضها مؤسسات ضخمة ذات أهداف سياسية واجتماعية.

لقد ساهم الصراع العربي – الصهيوني في إيقاظ المشاعر القومية في صفوف المغتربين ولاسيما أنهم يشهدون بأم أعينهم نشاط الطرف المعادي والمتمثل باللوبي الصهيوني في تلك البلدان وما يقدمه من خدمات مادية وسياسية للكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة.

لقد تشكلت بعد عدوان حزيران عام 1967 جمعيات مختلفة في معظم مناطق القارة، تشد المغتربين بعضهم إلى بعض، متجاوزين بعض الحساسيات فيما بينهم.

وما أن وقعت حرب تشرين الأول التحريرية عام 1973 حتى بادر العديد من قادة المؤسسات العربية ولاسيما في أقطار أمريكا اللاتينية إلى تشكيل اتحاد يضمهم على مستوى القارة، وقد عملت سفارات القطر العربي السوري في هذه البلدان وبتوجيه من القيادة السياسية في حزب البعث العربي الاشتراكي إلى تشجيع هذا الاتجاه ودعمه بغية تحقيق طموح أبنائنا في ولادة اتحاد المؤسسات العربية -الأمريكية فيآراب أمريكا عام 1973 في مدينة بيونس آيرس بالأرجنتين. وسنحاول التوقف عند أهم المؤسسات الاغترابية ذات الطابع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والخيري على صعيد كل بلد على حدة.

أولاً: الولايات المتحدة الأمريكية:

يتميز النشاط السياسي والاجتماعي في الولايات المتحدة. بسمة أساسية وهي العمل من خلال تنظيمات عربية أمريكية وبشكل يختلف عما هو قائم في بقية بلدان القارة، الأمر الذي وعته الجالية العربية عامة والسورية خاصة في العقدين الأخيرين من وجودها الطويل في الولايات المتحدة الأمريكية. ويمكن تقسيم هذه التنظيمات ذات منحى سياسي وأخرى ذات منحى اقتصادي ومهني وتنظيمات أخرى أيضاً ذات منحى اجتماعي ثقافي خيري.

آ- التنظيمات ذات الطابع السياسي

1- اللجنة العربية ـ الأمريكية لمكافحة التمييز:

أسست هذه اللجنة في العاصمة الأمريكية واشنطن عام 1980 وتم افتتاح فروع لها في الولايات المتحدة الأمريكية، ويتكون مجلس إدارتها من الأعضاء البارزين في اللجنة، التي تقوم بدورها بتعيين المدير التنفيذي ومساعديه، ويعد السيناتور الديمقراطي السابق، العربي الأصل جيمس أبو

رزق صاحب هذه المبادرة التي جاءت رد فعل على ممارسة التمييز ضد العرب الأمريكيين في مجالات العمل والتعليم والحياة السياسية، وتشويه صورة العرب في الأوساط الأمريكية، ومن أهداف هذه الجمعية:

1 - رصد أي تشويه أو طعن بالصورة العربية في وسائل الإعلام والصحافة والتعليم الأمريكية والتصدي لها بالوسائل القانونية .

2 - مراقبة حدوث أي ممارسات أو أعمال تمييز عنصرية ضد الأمريكيين من أصل عربي في مجالات الحياة كلها، ومساعدة من يقع ضحية للتمييز عن طريق رفع حالته إلى الجهات الرسمية المسؤولة.

3 - مواجهة الأكاذيب المدسوسة في الكتب المدرسية التي تشوه صورة العرب أو تسيء إلى تاريخهم أو معتقداتهم.

4 - دعم القضايا العربية في الوطن الأم، والاتصال المباشر بالإدارة الأمريكية وبرجال الكونغرس لإيصال رأيها وموقفها من السياسة الأمريكية التي تمارس في المنطقة العربية.

5 - التعريف بالحضارة العربية ودورها في خدمة الإنسان في مختلف مجالات العلوم.

ويقدر عدد أعضاء الجمعية العربية الأمريكية لمكافحة التمييز أكثر من خمسين ألفاً، ولها مكتب رئيسي في واشنطن، وثمانية مكاتب إقليمية و/65/ فرعاً محلياً في المدن الأمريكية.

وفي مؤتمرها السادس عشر الذي عقد عام 1999 تم إعادة إحياء الاتفاق الموقع بين اللجنة واتحاد المؤسسات العربية الأمريكية في آب .

وقد تم تشكيل لجنة تنسيق مشتركة مهمتها اتخاذ الخطوات العملية للتعاون بين الهيئتين وتحقيق الاتصال الدائم والمستمر عبر شبكة المعلومات.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن اللجنة العربية الأمريكية لمكافحة التمييز والجمعية الوطنية للعرب الأمريكيين التي أسست عام 1972 قد اندمجتا في كيان واحد ابتداءً من أول كانون الثاني لعام 2000 وبهذا الاندماج ستصبح المنظمة الجديدة من أقوى المنظمات العربية الأمريكية وأقواها في الولايات المتحدة، وتم الإعلان عن ذلك في مؤتمر صحفي عقد في واشنطن ضم قيادة الجمعيتين مع المحافظة على اسم الأولى، وهي اللجنة العربية الأمريكية لمكافحة التمييز.

2ـ المعهد العربي ـ الأمريكي:

أسس هذا المعهد في العاصمة واشنطن عام 1985 بمبادرة من الدكتور جيمس زغبي وذلك من أجل التشجيع على المشاركة المباشرة للعرب الأمريكيين في الحياة السياسية والمدنية في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن مهامه:

1 - دعم الانتخابات الرئاسية لمرشحي الحزبين الديمقراطي والجمهوري.

2 - تعزيز انخراط الجالية العربية في هذه الانتخابات، والوصول إلى مراكز قيادية في الأحزاب السياسية.

3 - التركيز على مساعدة الجاليات المحلية من أجل تطوير عملها السياسي من خلال تسجيل الناخبين ودعم الحملات الانتخابية، وترشيح للمناصب والمراكز السياسية.

ويتضمن برنامج عمل ونشاطات المعهد العربي الأمريكي مايلي:

1 - تمثيل العرب الأمريكيين في الكونغرس الأمريكي.

2 - الهجرة والإصلاح الاجتماعي: وتتضمن حقوق المهاجرين الشرعيين في أمريكا والمطالبة بحقوق العدالة والمساواة لأبناء الجالية العربية مع باقي الأعراق في ماستسوتش ولها فروع في العديد من الولايات، حيث تضم في عضويتها معظم العرب الأمريكيين الذين تخرجوا من الجامعات الأمريكية ومن أبرز مهامها:

تنظيم البحوث والدراسات وإصدار الكتب والنشرات بغية التعريف بالقضايا العربية، وتوفير المعرفة اللازمة عن الجوانب التعليمية والثقافية في الوطن العربي ويتبع لهذه الجمعية مركز بحوث هو:

مركز الدراسات العربية، يعمل على إقامة الندوات التدريبية للطلاب العرب لإجراء البحوث.

3 ـ الجمعية الحصنية الأمريكية الخيرية:

تأسست هذه الجمعية السورية - الأمريكية عام 1945 ومقرها مدينة بتسبيرغ في ولاية بنسلفانيا، وقد أقامت هذه الجمعية مشفى الحصن في سورية، كما تقوم بجمع التبرعات والأموال لإعانة المشفى وتطويره، ومعظم أعضائها من المهاجرين السوريين الأوائل اللذين يرتبطون بشكل جيد مع الوطن الأم.

4 ـ الأندية السورية الأمريكية:

1 - النادي السوري – الأمريكي تأسس في واشنطن عام 1992.

2 - النادي السوري – الأمريكي تأسس في ديترويت عم 1992.

3 - النادي السوري - الأمريكي تأسس في تكساس – هيوستن عام 1992.

4 - النادي السوري – الأمريكي تأسس في لوس أنجلس – كاليفورنيا عام 1994.

5 - النادي السوري – الأمريكي سان فرانسيسكو – كاليفورنيا عام 1994.

6 - الرابطة السورية – الأمريكية تأسست في كليفلاند – أوهايو عام 1985.

تشتمل نشاطات هذه الأندية الجوانب الثقافية والاجتماعية حيث تقيم الاحتفالات في المناسبات الوطنية والاجتماعية.

5 ـ جمعية زوجات السفراء العرب:

أسست هذه الجمعية عام 1998 وبمبادرة من زوجات معظم السفراء العرب في الولايات المتحدة، وهي منظمة خيرية تعمل على دعم الدوافع الأمريكية في تحسين حياة النساء والأطفال الذين يعيشون في عمق ثقافي وتعليمي ضمن الوطن العربي من غرب إفريقيا حتى الخليج وربطهم مع أولئك الذين يعيشون في الولايات المتحدة. وفي كل عام تنظم أمسية يخصص ريعها لصاح مؤسسة حماية الأطفال ولمكافحة أمراض السرطان وغيرها.

ب - أهم الصحف والمجلات التي تصدر في الولايات المتحدة هي:

1 - البيان، أسبوعية ، ناطقة بالعربية ، تصدر في ولاية ميتشغان.

2 - الهدى ،نصف أسبوعية ،ناطقة بالعربية والإنكليزية ،تصدر في ولاية نيويورك.

3 - العمل ،أسبوعية ،ناطقة بالإنكليزية ،تصدر في ولاية نيويورك.

4 - الإصلاح ،أسبوعية ، ناطقة بالعربية ،تصدر في ولاية نيويورك.

5 - العالم الجديد ،ناطقة بالإنكليزية ،تصدر في ولاية نيويورك .

6 - العالم العربي، ناطقة باللغة الإنكليزية ، يصدرها مكتب الجامعة العربية في نيويورك .

7 - فلسطين الحرة ، شهرية ،ناطقة باللغة الإنكليزية ،تصدرها منظمة فتح.

8 - الاعتدال ،أسبوعية ، ناطقة باللغة الإنكليزية ،تصدر في نيوجيرسي .

ثانياً: البرازيل:

أ ـ أهم الأندية:

1 - النادي الرياضي السوري: أسس عام 1914 في سان باولو ويشغل مساحة تقدر ب 55.000 ألف متر مربع. وله شهرة واسعة في البرازيل، وزار الوطن الأم قبل عشرين سنة وأجرى مباريات عدة مع الفرق المحلية.

2 - النادي الحمصي: أسس في أيار (مايو) 1920 في سان باولو ومعظم أعضائه من أبناء حمص في سورية ،ومن أهدافه:

تعزيز شؤون الجالية العربية وتوفير وسائل الرقي الفكري وتنشيط الأدب العربي، وإقامة الحفلات الأدبية والموسيقية الداعية إلى التآلف بين العرب.

ويصدر النادي مجلة دورية باسم (الشمس) باللغتين العربية والبرتغالية، وقد احتفل النادي

بالذكرى الثمانين لتأسيسه في مدينة حمص أيار (مايو) 2000 بحضور ممثلين عن كل الجهات الرسمية التي تهتم بالشأن الاغترابي في سورية.

3 - النادي الحلبي: أسس عام 1945 في سان باولو، ويضم مكتبة عامرة بالكتب العربية والبرتغالية وتقام فيه الحفلات الأدبية والفنية.

4 - نادي جبل لبنان: أسس عام 1931 في سان باولو وله نشاطات ثقافية واجتماعية ورياضية.

5 - نادي راشيا: أسس في سان باولو لجمع كلمة أبناء راشيا الوادي من المغتربين.

6 - منتدى البردوني: أسس عام 1922 في سان باولو من قبل وجهاء زحلة.

ب ـ أهم الجمعيات:

1 - الجمعية الخيرية للفتيات السوريات: أسست عام 1924 في سان باولو وقد ساهمت في جمع الإعانات لمنكوبي الاعتداء الفرنسي على سورية ولبنان عام 1945.

2 - الجمعية الخيرية الأنطاكية :أسست عام 1927 بهدف مساعدة الفقراء من المغتربين من أبناء مدينة أنطاكية، وقد تميز أعضاؤها بنشر الثقافة العربية في الأوساط الطلابية والجامعية.

3 - الجمعية الخيرية الحصنية: أسست عام 1947 في سان باولو ومن أهدافها إقامة المستوصفات المجانية في منطقة الحصن في سورية، إضافة إلى نشاطاتها الثقافية والاجتماعية.

4 - جمعية اليد البيضاء: أسست عام 1912 في سان باولو، على يد مجموعة من السيدات المغتربات ومن أهدافها: مساعدة الفقراء والعاجزين وقد أقامت هذه الجمعية مأوى للعجزة عام 1945.

5 - جمعية خريجي جامعة بيروت الأمريكية المقيمين في البرازيل: أسست عام 1922 ومن أهدافها جمع المال وإرساله إلى الجامعة في بيروت لتعليم الطلاب المتفوقين من الفقراء.

6 - جمعية الشبيبة العربية الفلسطينية: أسست عام 1932 في سان باولو ومن أهدافها جمع شمل الفلسطينيين إلا إنها لم تعمر طويلاً، وقد حل محلها الاتحاد العام للجمعيات الفلسطينية العربية الخيرية، الذي أسس عام 1912 ويهتم بالقضايا العربية بالإضافة إلى القضية الفلسطينية التي تعد القضية المركزية للأمة العربية.

ت ـ أهم المؤسسات الإعلامية:

الصحافة: اهتم المغتربون في السنوات الأولى لهجرتهم بالصحافة، فأصدروا الصحف والمجلات، ليعبروا عن آرائهم ومواقفهم، فكانت الصحافة العربية في البرازيل وسيلة لنشر الآداب والثقافة إلى جانب رسالتها الوطنية، إلا أن معظم الصحف والمجلات قد توقفت، ولم يبق من أصل مئة صحيفة ومجلة كانت تصدرها الجالية العربية سوى الصحف والمجلات التالية:

1 -مجلة الشرق : شهرية تصدر باللغتين العربية والبرتغالية وتتناول أخبار الجالية المصورة وأخبار سورية ولبنان .

2 - مجلة الراحل: شهرية تتناول أخبار الجالية المحلية .

3 - مجلة الشمس: مجلة دورية يصدرها النادي الحمصي في سان باولو تتناول شؤون النادي وأمور الجالية وتصدر باللغتين العربية والبرتغالية.

4 - جريدة برازيل لبنان:نصف أسبوعية، تصدر بالعربية ومؤسسها المرحوم رشيد عطية.

5 - جريدة العروبة: تصدرها الجمعية الخيرية الإسلامية ويشرف عليها مندوب المؤتمر الإسلامي الدائم في القاهرة وموجه الجمعية في سان باولو.

6 - **المؤسسات الإذاعية**: هناك برامج إذاعية متنوعة موزعة في أنحاء البرازيل، ويشرف عليها أفراد من المغتربين، يستأجرون فترات زمنية للبث من محطات الإذاعات المحلية، وتعنى هذه البرامج بعزف الموسيقا العربية، وإذاعة الإعلانات التجارية، ويوجد في سان باولو برامج عربية تُذاع بمعدل ساعتين يومياً ويغلب عليها الطابع التجاري، هذا واستفادت القنصلية السورية في سان باولو من الإذاعة، بتغطية أخبار الوطن.

أما في كورتيبا عاصمة ولاية بارانا، فهناك برنامجان باللغة العربية الأول يبث من محطة ايمسيورأباراناينسي وتحت عنوان: إذاعة الصوت العربي ومدة البث نصف ساعة يومياً أيام الآحاد. أما البرنامج الثاني فيبث تحت عنوان: صوت العالم العربي، وأنتج في تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1963 ، ويتضمن هذا البرنامج إذاعة مواد إخبارية وموسيقية ويغلب عليه الطابع القومي.

ث – أهم المؤسسات الثقافية والعلمية:

لم ينس المغتربون لغة الآباء والأجداد على الرغم من المسافات الشاسعة التي تفصلهم عن الوطن الأم، وقد تفتحت أمامهم آفاق جديدة، وتولد عندهم نوع جديد من الأدب العربي هو "أدب المهجر"، وقد أُسست أولى حلقاته في البرازيل وهي:

1ـ **المؤسسة الأدبية**: أُسست في سان باولو على يد فريق من الشباب العربي اللبناني، وأطلقوا عليها اسم: "رواق المعري" وكان من أبرز أعضائها السادة: أنيس واكيم -اصطفان وخليل كسيب -يوسف ناصيف -وديع معلوف - جورج عساف –نعوم كيلي –قيصر معلوف.

ومن أهم نشاطاتها، تأسيس صحف عربية في البرازيل، كما نشرت دواوين شعرية ومن أشهرها: ديوان تذكار المهاجر للشاعر قيصر معلوف.

2ـ **العصبة الأندلسية**: أُسست عام 1933 على يد المغترب نعمان معلوف، وسميت بهذا الاسم تيمناً بالأندلس في جنوب إسبانيا التي تغنىَّ بها العرب وأقاموا حضارة عظيمة كانت النور الذي سطع على الغرب الذي كان غارقاً بالجهل. وكان من أهداف العصبة الأندلسية تعزيز الأدب العربي في المهجر، وإصدار مجلة تنشر فيها نتاج الشعراء المغتربين وقد ضمت العصبة في عضويتها نخبة شعراء المهجر أمثال: الشاعر القروي، الياس فرحات، شفيق معلوف، حسن غراب وآخرون. وقد صدر عن العصبة: ديوان الرافدين وديوان زنابق الفجر وديوان القروي.

3ـ **المشفى السوري ـ اللبناني**: ويعد من أهم المشافي في أمريكا اللاتينية، إذ يقع في قلب مدينة سان باولو العاصمة الاقتصادية للبرازيل وفيه الاختصاصات الطبية كافة.

ثالثاً ـ التشيلي:

أ ـ أهم الأندية:

النادي السوري - النادي الفلسطيني - النادي الرياضي السوري - نادي الاتحاد القومي العربي.

ب- أهم الجمعيات:

جمعية الشبيبة الحمصية السورية.

ت- أهم المؤسسات الاجتماعية والفكرية:

الاتحاد التشيلاني العربي للتعاون وحلقة المهنيين من أصل عربي.

رابعاً ـ فنزويلا:

أ ـ أهم الأندية:

نادي الرابطة الفنزويلية، النادي الاجتماعي العربي، النادي اللبناني الفنزويلي، النادي العربي الفلسطيني.

ب- أهم الجمعيات:

الجمعية الخيرية الفنزويلية، الجمعية الخيرية السورية اللبنانية، الاتحاد اللبناني الفنزويلي.

ت- أهم المؤسسات الاعلامية:

فلسطين الثورة، صوت فلسطين، الندوة مجلة الرابطة، الأسبوع العربي، المغترب، الفداء.

خامساً ـ الأرجنتين:

أ ـ أهم الأندية:

نادي شرف الوطن، النادي الحمصي، النادي اللبناني البردوني.

ب ـ أهم الجمعيات:

الجمعية الإسلامية، الجمعية الحموية، الجمعية البردونية، جمعية المجلس الملي الأرثوذكسي، الجمعية الحصنية.

ت- أهم المؤسسات الثقافية والعلمية:

المعهد الثقافي الأرجنتيني وله فروع في المحافظات - مجلة الوطن - المستشفى السوري اللبناني الخيري.

الهيكل التنظيمي للمغتربين العرب:

جرت محاولة لتنظيم الجاليات العربية عام 1966 ولكنها لم تستمر، وهكذا إلى أن كان المؤتمر الأول الذي عقد عام 1973 في بيونس آيرس بالأرجنتين حيث أقر الأسس التنظيمية لعمل الجاليات العربية في القارة الأمريكية.

لقد توافد إلى القطر العربي السوري في شهر آب (أغسطس) عام 1965 وفود من الأرجنتين والبرازيل وفنزويلا والولايات المتحدة تمثل الجاليات العربية في هذه البلدان وعقدوا مؤتمرهم في دمشق بين 23 -31 آب (أغسطس) من العام نفسه. وهنا يطرح السؤال نفسه لماذا لم يكتب لهذه المحاولة النجاح والاستمرارية؟ وهذا يقود إلى تساؤل ثانٍ حول الصحوة المتأخرة عام 1973؟ وللإجابة عن هذين السؤالين: ننقل ما قاله الأشقاء أنفسهم وهم يمثلون أجيالاً أربعة: لقد أكدوا أن نكسة حزيران (يونيو) لعام 1967 كان لها تأثير مؤلم في صفوف المغتربين العرب، وقد وضعتهم في موقف حرج عندما يُسألون عن القومية التي ينتمون إليها، وفي ذلك جواب عن عدم نجاح واستمرارية مؤتمر دمشق لعام 1965. بينما نجد الأشقاء يؤكدون أنهم بعد قيام حرب تشرين الأول التحريرية عام 1973 وانتشار أخبار هذه الحرب وتحطيم أسطورة العدو الصهيوني. كل ذلك هيأ للمغتربين العرب أرضية صلبة يوضحون من خلالها للرأي العام عدالة قضيتهم العربية، كما يعتزون بعروبتهم وبحقهم في الدفاع عن أرضهم المحتلة، وبدأ سكان القارة الأمريكية يهتمون بالملايين العربية المنتشرة على أرض القارة، ويقدرون أهميتها على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية وغيرها.

ويمكن القول: إن نتائج حرب تشرين التحريرية قد شجعت المغتربين العرب أن يبدؤوا من جديد في جمع شملهم، من خلال عمل تنظيمي ينبثق عنه قيادة مخلصة، ترعى شؤونهم، وتنظم صفوفهم، وترسم الخطوط العامة للمستقبل من أجل مصالح المغتربين من جهة ومن أجل تعميق صلاتهم بوطنهم الأم والدفاع عن قضاياه العادلة من جهة ثانية، وبالفعل منذ ذلك التاريخ انتظم عمل الجاليات العربية وهي تعقد مؤتمراتها العامة وفق قواعد تنظيمية محددة في نظام داخلي مقرر.

اتحاد المؤسسات العربية ـ الأمريكية ـ فيآراب:

أهدافه: لقد حدد النظام الأساسي لاتحاد المؤسسات العربية الأمريكية "فيآراب" الذي جرى تعديله في اجتماعي اللجنة التنفيذية والمجلس الإداري أسانسيون بالباراغوي، وريودي جانيرو بالبرازيل والمؤتمر الخامس الاستثنائي في دمشق عام 1997 . أهداف الاتحاد ما يلي:

1 - تنسيب وجمع واستقطاب المنظمات والجمعيات والمؤسسات الأخرى التابعة للجاليات العربية عامة مهما كانت صفتها من ثقافية وعلمية وتربوية واجتماعية وترفيهية وخيرية ورياضية، شريطة ألا تتضمن أنظمتها الداخلية التمييز الطائفي أو السياسي أو الحزبي، وألا تتضمن أحكاماً تتناقض وهذا النظام الأساسي.

2 - تشجيع الروح الثقافية العربية وتنميتها وتطويرها داخل الاتحادات الوطنية والجمعيات ضمن الاحترام المطلق والتام للقانون والأخلاق والعادات الحسنة للبلد الذي تقوم فيه تلك المؤسسات.

3 - التشجيع والإسهام والتوجيه للأعمال الرامية إلى تحقيق التقدم الثقافي والاقتصادي للبلدان الأمريكية التي توجد فيها جاليات من أصل عربي.

4 - تنمية علاقات الصداقة القائمة بين بلدان القارة الأمريكية والبلدان العربية.

5 - ترسيخ التفاهم والصداقة والوحدة بين العرب والمتحدرين من أصل عربي المقيمين في سائر بلدان القارة وكذلك بين الجاليات العربية وأبناء تلك البلدان واستخدام السبل الملائمة لهذا الغرض.

6 - دفع وتنسيق وتخطيط العمل من أجل رفع السوية الثقافية وتحسين التربية العامة والتقنية والمهنية في كل البلدان التي توجد فيها اتحادات فيآراب الوطنية، للإسهام في تحقيق التعاون، ونشر القيم الثقافية العربية، من خلال التعاون مع الهيئات الرسمية والخاصة التي تتوخى الأهداف نفسها.

7 - دفع التبادل الثقافي والتقني والمهني بين الهيئات الرسمية والخاصة في كلٍ من أقطار القارة الأمريكية، حيث توجد منظمات منتسبة لاتحاد فيآراب والمنظمات القائمة في بلدان الوطن العربي، وذلك من خلال تبني وتجسيد إبرام اتفاقات ومعاهدات فيما بينها، ومن خلال وضع برامج لإقامة مؤتمرات وندوات واجتماعات في هذا المجال، سواء في أقطار القارة الأمريكية أو في أقطار الوطن العربي.

8 - دفع وتنسيق التبادل التجاري والمالي والتكنولوجي بين بلدان القارة الأمريكية وأقطار الوطن العربي، وذلك بالسعي والتخطيط من أجل إيفاد بعثات تجارية، وتوقيع اتفاقات، وتشكيل لجان مختلطة أمريكية وأمريكية عربية، وتنظيم معارض دولية ووطنية في

كل أقطار القارة الأمريكية والوطن العربي والمشاركة فيها من خلال الهيئات التجارية والاقتصادية والمالية القائمة في كل بلد معترف به من قبل الاتحاد الوطني المنتسب ومن قبل اتحاد فيآراب أمريكا.

9 - السعي والتوجيه والتنسيق من أجل دفع أنشطة سياحية لصالح التيار الثقافي والاجتماعي والرياضي، وتحقيق التآخي بين الاتحادات المنتسبة على صعيد القارة، وكذلك مع منظمات مثلية في العالم عامة وفي بلدان الوطن العربي خاصة من خلال تقوية شعور التضامن بين العرب والجاليات العربية المقيمة في القارة الأمريكية.

10 - العمل الدؤوب والدائم من أجل تعزيز ونشر الثقافة والتقاليد والعادات العربية وإعلاء صرحها في أنحاء القارة الأمريكية، وتوطيد روابط المودة التي استطاع المهاجرون العرب والمتحدرون منها اكتسابها في مواطنهم الجديدة بين الشعوب الأمريكية.

مؤتمرات فيآراب أمريكا

1 - **المؤتمر الأول:** 25 -1973/9/26. عقد في بيونس آيرس بالأرجنتين وانتخب المؤتمر ألبرتو شكور رئيساً فخرياً للمؤتمر وبدوره رشح السيد حافظ قصبجي رئيساً لفيآراب أمريكا.

2 - **المؤتمر الثاني:** 9 -1975/11/15. عقد في سان باولو بالبرازيل وانتخب المؤتمر السيد محمد مراد رئيساً للاتحاد "فيآراب أمريكا".

3 - المؤتمر الثالث: 1977/11/16. عقد في سانتياغو بتشيلي وجدد انتخاب السيد محمد مراد رئيساً للاتحاد.

4 - المؤتمر الرابع: 1 -1979/10/5: عقد في كاراكاس بفنزويلا وانتخب المؤتمر السيد فيكتور حنانيا رئيساً للاتحاد.

5 - المؤتمر الخامس: 8 -1981/10/11. عقد في واشنطن في الولايات المتحدة الأمريكية وجدد انتخاب السيد فيكتور حنانيا رئيساً للاتحاد.

6 - المؤتمر السادس: 28 -1983/9/30. عقد في دمشق وتحت رعاية الرئيس الراحل حافظ الأسد وناب عنه الرفيق عبد الله الأحمر الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي، وقد استقبل السيد الرئيس أعضاء المؤتمر في حفل تكريمي أقيم لهم، ووجه إليهم كلمة قومية هامة. وانتخب المؤتمر السيد رامز شقرا رئيساً للاتحاد.

7 - المؤتمر السابع: 3 -1985/10/5. عقد في مدينة كارتاجينا بكولومبيا وجدد انتخاب رامز شقرا رئيساً للاتحاد.

8 - المؤتمر الثامن: 22 -1988/9/24. عقد في هافانا بكوبا وانتخب السيد مراد رئيساً للاتحاد.

9 - **المؤتمر التاسع**: 21 -1990/9/23. عقد في بيونس آيرس بالأرجنتين وانتخب السيد الدكتو أوراسيو حداد رئيساً للاتحاد، وقد حضر حفل افتتاح المؤتمر الرئيس الأرجنتيني كارلوس منعم.

10 - **المؤتمر العاشر**: 1992/10/9. عقد في بيونس آيرس بالأرجنتين وانتخب السيد رفائيل مبيض رئيساً للاتحاد.

11 - **المؤتمر الحادي عشر**: 22 -1995/11/25. عقد في ميامي بالولايات المتحدة الأمريكية وانتخب السيد الدكتور أوراسيو حداد رئيساً للاتحاد.

12 - **المؤتمر الاستثنائي الخامس**: 8/30/ إلى1997/9/1. عقد في دمشق وبرعاية الرئيس حافظ الأسد وناب عنه الرفيق عبد الله الأحمر الأمين العام المساعد للحزب وجدد انتخاب السيد الكتور أوراسيو حداد رئيساً للاتحاد.

13 **المؤتمر الثاني عشر**: 9 -1998/10/11. عقد في جزيرة مرغريتا بفنزويلا وجدد انتخاب السيد الدكتور أوراسيا حداد رئيساً للاتحاد. وتجدر الإشارة إلى الاهتمام الكبير الذي يوليه الحزب والدولة لهذه المؤتمرات إذ مثل الحزب والقطر الرفيق عبد الله الأحمر الأمين العام المساعد للحزب رئيس اللجنة القومية للمغتربين العرب في حضوره كلاً من المؤتمرات: السادس والثامن والتاسع والحادي عشر والخامس الاستثنائي والثاني عشر وحضر بقية المؤتمرات بعض الرفاق من أعضاء القيادة القطرية السورية للحزب أو من الوزراء. ولم يبخل الحزب والدولة بأي دعم مادي أو معنوي من أجل نهوض هذا الاتحاد وحضوره في تلك الساحات التي يوجد فيها بغية تنفيذ ما يترتب عليه وما ذكرناه من مهام تقع على عاتقه لاسيما في مواجهة اللوبي الصهيوني الذي يعمل وبشكل فعال في تلك الساحات خدمة للكيان الصهيوني المتمثل في إسرائيل وما تقوم به من عدوان وقمع لشعبنا العربي الفلسطيني واحتلالها للأرض العربية وعدم انصياعها لقرارات الشرعية الدولية والانحياز الواضح للولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب إسرائيل من خلال ما يقوم به اللوبي الصهيوني من تأثير ونفوذ في مختلف المفاصل والمواقع الأمريكية الهامة.

منظمة البرلمانيين الأمريكيين المتحدرين من أصل عربي:

بمبادرة من مجلس الشعب في سورية وبالتنسيق مع اللجنة القومية للمغتربين العرب، عقد في دمشق ما بين 26 -10/30/ 1985 المؤتمر الأول للبرلمانيين الأمريكيين المتحدرين من أصل عربي، شارك في هذا المؤتمر وفود من : الأرجنتين - بوليفيا - البرازيل - كندا - تشيلي - كولومبيا - كوبا - الدومينيك - الأكوادور - مارتينيك - المكسيك - البيرو - الولايات المتحدة الأمريكية - الأرغواي - الباراغواي.

ضمت هذه الوفود في عضويتها رؤساء وأعضاء مجالس شيوخ ونواب وشخصيات تمثل فعاليات سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية.

أصدر المؤتمر في ختام أعماله بياناً سياسياً شاملاً وأعد عدداً من القرارات والتوصيات من أهمها:

تأسيس منظمة للبرلمانيين المتحدرين من أصل عربي في القارة الأمريكية. وللمنظمة هيئات قيادية هي: المؤتمر، المجلس التنفيذي ومركزه دمشق، الأمانة العامة، تهدف المنظمة إلى الدفاع عن المبادئ الراسخة في ميثاق الأمم المتحدة ولاسيما الدفاع عن السلام العالمي، القائم على العدالة وحق الشعوب في تقرير مصيرها، وإدانة كل أشكال التمييز والفصل العنصري وخاصة الصهيونية وكذلك إدانة احتلال الأراضي بالقوة، كما ويهدف أيضاً إلى تشجيع علاقات الإخاء بين الشعوب الأمريكية والعربية في المجالات كلها، دون اتخاذ قرارات سياسية يمكن أن تعد تدخلاً على الصعيد الدولي والمحلي لكل بلد أو في الشؤون الدينية. كما تعمل المنظمة على تعزيز الروابط بين الأمريكيين المتحدرين من أصل عربي، وتدافع عن قضايا الشعوب العادلة في القارة الأمريكية والوطن العربي.

للمنظمة ثلاثة مراكز إعلامية في كل من: الأرجنتين - المكسيك - البرازيل. وتصدر مجلة فصلية ونشرة شهرية باسم "الجذور" باللغتين العربية والإسبانية، وتشرف على برنامج إذاعي أسبوعي يوجه إلى بلدان الاغتراب، وتواجه المنظمة صعوبات من أهمها: عدم الاستقرار في هيئاتها القيادية بسبب التبدلات التي تطرأ على أوضاع أعضائها في الانتخابات التشريعية في بلدانها.

اللجنة القومية للمغتربين العرب:

لقد تجلى اهتمام قيادة الحزب والدولة في سورية بالمغتربين العرب بعد قيام الحركة التصحيحية عام 1970 بقيادة الرئيس الراحل حافظ الأسد وذلك بتشكيل اللجنة القومية للمغتربين العرب برئاسة الرفيق عبد الله الأحمر الأمين العام المساعد للحزب وعضوية عدد من الرفاق المسؤولين في الحزب والدولة التي حددت المرتكزات الأساسية للعلاقة مع المغتربين العرب بما يلي:

1 - العرب في المهجر، هم جميع الذين هاجروا من الوطن العربي والمتحدرين من أصولهم، ولا فرق بين سوري ولبناني وفلسطيني أو غيرهم من العرب.

2 - القضية العربية في المهجر واحدة لا تتجزأ، قضية تحرر الأمة والأرض المحتلة.

3 - المغتربون قطاع هام من أمتنا يمثلون رسل الأمة والمدافعين عن قضاياها ومصالحها، ويقفون في وجه أعدائها الذين يعملون لتشويه الثقافة العربية وإخفاء دورها المؤثر في تقدم الإنسانية.

4 - التعاون بين المغتربين يجب أن يتم على أساس المساواة فيما بينهم، دون أي تمييز إقليمي أو

طائفي، ومن خلال إطار تنظيمي تكون نواته الجمعيات والنوادي التي بادر المغتربون إلى إنشائها.

لقد اتخذت اللجنة القومية للمغتربين عدداً من التوصيات شكلت أول خطة عمل بين المغتربين ومما تضمنته هذه التوصيات:

1 -إحداث جهاز خاص بالمغتربين في وزارة الخارجية، يكون حلقة الاتصال بين الحزب وتنظيمات المغتربين.

2 - تنظيم أجهزة البعثات الدبلوماسية السورية في بلدان الاغتراب ورفدها بالكفاءات.

3 - وضع تشريعات اقتصادية تطمئن المغتربين وتشجعهم على استثمار أموالهم في القطر.

4 - وضع تشريع ينظم جنسية المغترب ويسهل إقامته في القطر وعودته إلى المهجر.

5 - توقيع اتفاقيات ثقافية مع حكومات بلدان الاغتراب، ووضع خطة إعلامية وثقافية لتعريف المغترب بالتطور الحضاري في الوطن العربي وتوضيح قضاياه.

6 - إنشاء مراكز ثقافية، وإيصال البث الإذاعي لبلدان الاغتراب وإرسال الفرق الفنية وإقامة المعارض الدولية.

7 - التشجيع على فتح المدارس، وإعارة المعلمين لتعليم اللغة العربية، وتخصيص منح دراسية في المرحلتين الثانوية والجامعية لأبناء المغتربين.

وانطلاقاً من المرتكزات الأساسية للعلاقة مع المغتربين العرب، تركزت جهود اللجنة في الإطار العام في المجالات التالية:

آ- في المجال الثقافي:

أعطت اللجنة القومية للمغتربين العرب موضوع تعليم اللغة العربية للمغتربين وأبنائهم الأولوية في اهتماماتها، انطلاقاً من أن اللغة العربية هي وسيلة التعبير التي بوساطتها يستطيع المغترب وابنه استمرار تواصله مع وطنه الأم، ومتابعة تطوره السياسي والاقتصادي والثقافي، وفهم قضاياه والدفاع عنها، واللغة قناة الاتصال بماضي الأمة وحاضرها، وتراثها الفكري، وبالتالي فإن فقدانها مع مرور الزمن بسبب حاجات العيش في المجتمعات الجديدة، سيؤدي بالمغترب مع تعاقب الأجيال إلى الابتعاد عن الوطن الذي انحدر منه ومن أصوله.

وقد أنجزت اللجنة خطوات متقدمة في هذا المجال ومن أهمها:

1 -إنجاز الأجزاء الثلاثة من منهاج تعليم اللغة العربية للناطقين باللغات الإسبانية والبرتغالية والإنكليزية، وقد صدرت تحت عنوان: "إعرف العربية" ووزعت أعداد كبيرة من هذه السلسلة إلى بلدان الاغتراب عن طريق مؤسسات المغتربين ومنظمات الحزب القومية

والبعثات الدبلوماسية السورية، وهذا المشروع يعد الأول من نوعه في الوطن العربي، كما ستعمل اللجنة مستقبلاً على إصدار الجزء الرابع للناطقين باللغة الفرنسية.

2 - التنسيق بين اللجنة ووزارة التربية، ومن أجل المساهمة في تعليم اللغة العربية للمغتربين وأبنائهم عن طريق إعارة المعلمين إلى هذه البلدان، فقد أعير إلى بلدان أمريكا اللاتينية منذ عام 1974 حتى الآن أكثر من /68/ معلماً.

3 - حثت اللجنة التنظيمات والمؤسسات والفعاليات الاغترابية على ضرورة افتتاح مدارس كمشروعات استثمارية، تدرس فيها مادة اللغة العربية كمقرر للغة الأجنبية في تلك البلدان، والسعي إلى تدريس هذه المادة في المدارس القائمة وبالعمل لدى هذه الدول إذا سمحت أنظمة التعليم بذلك.

هذا وقد تزايد بشكل واضح اهتمام المغتربين بتعليم أبنائهم اللغة العربية في كل من: كولومبيا وبنما والباراغواي وفنزويلا والأرجنتين وتشيلي وقد أثبتت هذه التجربة نجاحها.

وهناك مشروعات للتوسع في هذه التجربة مثل مشروع المغترب: طلال قرعاوي في كولومبيا لبناء يتضمن مدرسة تتسع لألفي طالب وطالبة، وبالإضافة إلى هذه المدارس، تقام في النوادي والمؤسسات الدينية، وبعض المجمعات الثقافية دورات لتعليم اللغة العربية.

4 - تم توزيع منهاج تعليم اللغة العربية لمختلف صفوف المرحلة الابتدائية المقرر في مدارس الجمهورية العربية السورية في كل من الأرجنتين والبرازيل والسويد وأستراليا وكولومبيا وبنما وفنزويلا.

5 - تم التوقيع على اتفاقات للتعاون الجامعي والعلمي والثقافي بين الجامعات السورية وجامعات كل من: جامعة التوكمات وجامعة روساريو وجامعة السلفادور، وجامعة اسبرتوسانتو في البرازيل.

هذا إضافة إلى الاتفاقات والبرامج التنفيذية الثقافية الموقعة بين وزارة التربية في سورية ومثيلاتها في عدد من بلدان الاغتراب، وبالتنسيق بين اللجنة القومية للمغتربين العرب ووزارة التعليم العالي واتحاد المؤسسات العربية الأمريكية "فيآراب".

ب ـ في المجال الإعلامي والسياحي:

1 - يتم بث برنامج إذاعي موجه إلى بلدان أمريكا اللاتينية مدته ساعة ونصف الساعة باللغة العربية وخمس وأربعون دقيقة باللغة الإسبانية وثلاثون دقيقة باللغة البرتغالية. وقد جرى تقوية البث الإذاعي لهذا البرنامج إلى /1500/ كيلو سايكل، وتم اختيار موعده بما يتناسب مع أوقات الراحة للمغتربين لتوفير إمكانية الاستماع إليه وذلك بناء على مقترحات وردت من المغتربين.

تجري حالياً دراسة إمكانية إنشاء مركز إعلامي سوري في أحد بلدان أمريكا اللاتينية، والتوسع في تعيين المراسلين للوكالة العربية السورية للأنباء، كما يتم وضع التنظيمات الاغترابية بصورة تطور الأحداث خاصة في المنطقة العربية بواسطة النسيخة (الفاكس) عن طريق تعميم أسبوعي يصدر عن القيادة القومية. وكذلك تعاميم غير دورية، تتم ترجمتها إلى اللغة الإسبانية وترسل إلى الاتحادات الوطنية لفيآراب أمريكا.

2 - تواصل اللجنة توزيع المنشورات السياحية على مؤسسات المغتربين وعلى أفراد الجالية، إن تسمح الإمكانيات بذلك، للتعريف بتاريخ الحضارة العربية وشواهدها القائمة.

3 - تعمل اللجنة ومن خلال التسهيلات التي تقدمها على تشجيع السياحية الاغترابية إلى الوطن الأم، وانطلاقاً من ذلك فهي تستقبل سنوياً مجموعات من طلاب المدارس والشبيبة والمعلمين وبالتنسيق مع شبيبة الثورة ونقابة المعلمين في القطر، إذ يتوليان ترتيب إقامة هذه المجموعات في بيوت الشبيبة كما يوضع لهم البرامج السياحية والترفيهية.

ج. القناصل الفخريون:

نظراً للانتشار الواسع للمغتربين العرب في البلدان التي هاجروا إليها، إذ لا تخلو مدينة أو قرية صغيرة من وجودهم في القارة الأمريكية، فيصعب افتتاح سفارات أو قنصليات رسمية، فيتم اللجوء إلى تعيين قنصل فخري يمثل الوطن الأم ويرفع علمه ويؤدي كثيراً من الخدمات الهامة التي تسهم في عملية تواصل المغترب مع وطنه الأم. وبناء على ذلك فقد أوصت اللجنة القومية للمغتربين وزارة الخارجية بالتوسع في تعيين القناصل الفخريين ما أمكن ذلك. وتبنت اللجنة ترشيح عدد من الشخصيات الاغترابية العربية أو العربية السورية ممن تتوافر فيهم شروط تعيين القنصل الفخري وبناء على ترشيح يرد اللجنة من المنظمات الحزبية القومية والاتحادات الوطنية لفيآراب والبعثات الدبلوماسية السورية، وقد بلغ عدد القناصل الفخريين الذين صدرت صكوك تعيينهم والقائمين على رأس عملهم في بلدان القارة الأمريكية حتى الآن سبعة وعشرين قنصلاً فخرياً يتوزعون وفق التالي:

1 - **الولايات المتحدة الأمريكية**: قنصليتان
- الأولى في ولاية هيوستن
- والثانية في ولاية ميتشغان

2 - **كندا**: اثنتان
- الأولى في ولاية مونتريال
- الثانية في فانكوفر

3 - **البرازيل**: خمس قنصليات
- الأولى في ولاية كوريتيبا
- الثانية في ولاية ماناوس
- الثالثة في ولاية بيلوأوريزونتي
- الرابعة في ولاية أنابوليس
- الخامسة في ولاية ماتوغروسودوسول

4 - **الأرجنتين**: خمس قنصليات

- الأولى في ولاية التوكمان
- الثانية في ولاية سانتافيه
- الثالثة في ولاية سانتياغو دل استيرو
- الرابعة في ولاية مندوسا
- الخامسة في ولاية قرطبة

5 - **تشيلي**: أربع قنصليات

- الأولى في محافظة لا سيرينا
- الثانية في محافظة أوسورنو
- الثالثة في محافظة فالبارنيسو
- الرابعة في محافظة رانكاغو

6 - **الباراغواي**: قنصليتان

- الأولى في محافظة اسونسيون
- الثانية في محافظة سيوداد دل استي

7 - **جزر الكاريبي**: ثلاث قنصليات

- الأولى في جزيرة سانتا لوسيا
- الثانية في جزيرة انتيغوا وبربودا
- الثالثة في جزيرة ترينيداد وتوباغو

8 - **هايتي**: قنصلية في بورت أوبرانس

9 - **كولومبيا**: قنصلية في بارانكيبا

10 - **بوليفيا**: قنصلية في لاباز

11 - **باناما**: قنصلية في كولون.

إن ما أنجزته اللجنة القومية للمغتربين العرب كثير، وما هو إلا بداية لطريق طويل يتطلب جهداً ومتابعة كبيرين، بالإضافة إلى الإمكانيات المادية التي لابد من توافرها من أجل استمرار هذه العلاقة مع المغتربين، وتعزيز الرابطة الوطنية والقومية بينهم وبين أمتهم في المجالات كافة، ولاسيما أن سورية أولت المغتربين العرب رعاية واهتماماً لا مثيل لهما، وهي تؤكد دائماً ضرورة تمتين الروابط بين المغتربين وأوطانهم الجديدة ووطنهم الأم وأهمية التعاون والتماسك فيما بينهم وهذا ما كان يوجه به السيد الرئيس حافظ الأسد ويؤكده دائماً.

وزارة المغتربين: استمر السيد الرئيس بشار الأسد على النهج إياه في تقديم كل الدعم المادي والمعنوي للأخوة المغتربين، فتم إحداث وزارة خاصة للمغتربين بموجب المرسوم رقم /21/ لعام 2002 حيث كانت من الناحية الرسمية وقبل هذا التاريخ تتبع لإدارة المغتربين في وزارة الخارجية، وبدأت الوزارة بممارسة كل الصلاحيات التي لها علاقة بالمغتربين من حيث الإشراف وتقديم التسهيلات اللازمة وبما ينسجم ومهام الوزارة. وبعد مضي عقد من الزمن على إحداث هذه الوزارة ومن خلال التجربة والممارسة رأت القيادة دمج وزارة المغتربين مع الخارجية وذلك بموجب المرسوم التشريعي رقم /50/ بتاريخ 4/14/ 2011 لتصبح وزارة الخارجية والمغتربين، وهذا لم يغير شيئاً بالنسبة إلى الأخوة المغتربين، إذ الهدف هو استمرار تواصلهم مع ثقافة أمتهم العربية وتراثها، لأن الإنسان دون ثقافة وتراث وحضارة وتاريخ لا يعني شيئاً، إذ يفتقد الهوية القومية التي تمنحه الفاعلية اللازمة لأداء رسالته في هذه الحياة. فالعربي أينما حلّ، ينتمي إلى أمة حية أعطت البشرية كنزاً معرفياً غنياً وأسهمت في تطور الحضارة الإنسانية من خلال تاريخها الحضاري العريق.

المراجع

1 - اتحاد المؤسسات العربية -الأمريكية -فيآراب، منشورات مكتب الأمانة العامة - القيادة القومية، دمشق، 1991.

2 - أرشيف اللجنة القومية للمغتربين العرب في القيادة القومية.

3 - الحركة التصحيحية المجيدة في الذكرى الخامسة والعشرين، منشورات القيادة القطرية السورية، دمشق، 1995.

4 - دراسة صادرة عن إدارة المغتربين في وزارة الخارجية في الجمهورية العربية السورية، دمشق.

5 - المغتربون العرب بين الماضي والحاضر وطموحات المستقبل، منشورات مكتب الإعلام والنشر في القيادة القومية، دمشق، 1984.

6 - سامي غانم، المغتربون العرب في المهجر، دمشق، 1992.

❑❑

الجولان البوابة الجنوبية الغربية لسورية

□ محمد سعيد طالب

عندما يكون جزء من الوطن محتلاً فإن مرارة العدوان والاحتلال تكون عامة ولذلك يصبح تحريره واجباً وطنياً في مقدمة المهام التي تحشد لها كل الإمكانيات المادية والروحية، في هذا البحث الذي ليس متفرداً فيما كتب عن الجولان، حاولت أن يكون تذكرة لأهمية المنطقة من حيث الجغرافيا الطبيعية والاقتصادية والسكانية والسياسية لهضبة الجولان التي ما زال العدو الصهيوني يحتل الجزء الأكبر من أراضيها منذ عدوان حزيران 1967م.

-1-

الجولان: هضبة ومرتفعات في جنوب الجمهورية العربية السورية وعلى الحد الشرقي لفلسطين كما حددتها اتفاقيات الدولتين المستعمرتين ـ إنكلترا وفرنسا ـ وبخاصة اتفاقية سايكس ـ بيكو**1916**م من أجل تنفيذ وعد بلفور لإقامة دولة صهيونية في فلسطين وتوفير مصادر المياه التي تصورها الصهاينة أساسية لحياة هذه الدولة. احتلها العدو الصهيوني بعد حربه العدوانية في حزيران **1967**م، ثم أعلن ضمها إلى كيانه الاستعماري في فلسطين في كانون الأول **1981**م. لم يعترف أحد من دول العالم بهذا الضم المخالف لأبسط شرائع العالم الحديث وبخاصة شرعة وميثاق الأمم المتحدة.

التضاريس والجغرافيا الطبيعية:

يشكل جبل الشيخ الحافة الشمالية للجولان وسفوحه الشرقية الجنوبية امتداداً للهضبة التي تنحدر من 1200م إلى 250 م في وادي اليرموك ، وإلى 20م فوق سطح البحر في الحمة، ويعتبر جبل الشيخ جزءاً عضوياً من الجولان لا يمكن فصله عنه، ويميل نحو الغرب لينخفض إلى 12،5م مما يحرم الهضبة الاستفادة من مياهه. يبلغ ارتفاع الهضبة 200م فوق سطح البحر.

من الناحية الطبوغرافية تتألف الهضبة من مجموعة من التلال التي تتراصف من جنوب شرق إلى شمال غرب على شكل قوس من الحد الشرقي والجنوب الشرقي لجبل الشيخ إلى وادي اليرموك في الجنوب، وهذا الخط ليس في الواقع سوى خط القمم الذي يمثله توالي الأجهزة البركانية الممتدة بالاتجاه نفسه إلى الشمال غرب، من تل عمورية(1198م)جنوب بحيرة مسعدة وتل أحمر(1187 م)شرقه ثم تل عريم1171م) وبعده(تل الشيخة1121م ثم تل خريقة(1158م) وتل أبو خنزير(1977 مم) وتل أبو الندى1211 وتل الفرس929م وتل عكاشة1029م، وتل فزارة والتلال الأقل ارتفاعاً مثل تل الفخار وتل العزيزيات. تجري بينها وتخترقها وديان عميقة وتطل على منحدرات وسهول خصبة.تبدأ بوادي العسل الذي ينحدر من ارتفاع 1764م إلى نقطة يبلغ ارتفاعها250م من الحدود السورية اللبنانية إلى سهل الحولة في فلسطين بانحدار12،5٪ وإلى جنوبه وادي علي في منطقة تل نصوبة في جباتا الزيت الذي ينحدر ليشكل وادي الصعب في غربها ويمر في منخفض صخري عميق حيث يعرف بوادي الحدب أو السكاوي، ثم بوادي الشريش حيث يلتقي بوادي الدفلى الذي هو الجزء الغربي الأسفل من وادي ربا، إلى الجنوب ،الذي يتكون بالقرب من تلال عين القيقان في الشرق، فيشكلان وادي الغار غرب قلعة الصبيبة الذي يتلاشى في نهر بانياس. وادي السعار الذي ينحدر من السفح الجنوبي لقرية مجدل شمس من نبع في أعلى الوادي تنضم إليه عدة ينابيع ليشكل نهيراً صغيراً يروي مرج سعار، ثم ينحدر في مجرى ضيق بعد استنزافه في الري نحو الغرب قرب قرية مسعدة ثم قرية عين قنية، ويسمى بوادي..الدفارين.. ليصب في نهر بانياس. وإلى أقصى الشرق وادي الرقاد الذي يسيل من منخفض بالقرب من قرية جباتا الخشب وينحدر باتجاه الشرق والغرب والجنوب فيتحول إلى سيل كبير في الشتاء والربيع ويسمى بعد مغادرته غدير البستان بوادي التيم، ويلتقي بنهر اليرموك في الحد الجنوبي للجولان بالقرب من قرية معاريا.تبلغ كمية الأمطار في القنيطرة على ارتفاع 911م بين 800 - 1000مم في العام، وفي منطقة الخشنية بين 600 - 800 مم وفي منطقة فيق 330 -450 مم.

ينبع من الجولان نهران غزيران - بانياس في الشمال وكان يصب في بحيرة الحولة قبل تجفيفها واليرموك في الجنوب ويصب في بحيرة طبريا - وهكذا يكون دور كتلة حرمون الخازنة للمياه هاماً وحيوياً، إذ في هضبة الجولان وجبل الشيخ أكبر تجمع مائي في المنطقة العربية يختزن أكثر

من أربعة مليار متر مكعب ومن يسيطر على منابع الليطاني واليرموك واللدان وبانياس[1] قادر على إنزال أكبر الأضرار بسكان هذه المستوطنات. إن جبل الشيخ هو أبو المياه الحقيقي لفلسطين، ولا يمكن فصله عنها من دون إنزال ضربة جذرية بكمياتها، والدولة التي تتحكم بمنابع الليطاني واليرموك واللدان وبانياس هي التي تمسك بخناق سكان فلسطين، كما يكتب ويصرح - حاييم وايزمن وإيغال آلون، وشمعون بيرس الذي يقول: المياه قبل الأرض، وغيرهم من زعماء دولة الصهاينة في فلسطين ويدعون للتمسك باحتلال الهضبة للدفاع عن مصادر المياه لدولتهم المغتصبة. فهي التي تغذي ينابيع الأنهار: بانياس واللدان والحاصباني واليرموك، وهي الأنهار التي تشكل نهر الأردن، بما في ذلك الأودية التي ترفدها، وكذلك تأثير الحرمون على الحوض الشرقي للينابيع التي تغذي وتشكل نهر الأعوج الذي يصب في الهيجانة.

إن سياسات الصهاينة الاستيطانية في فلسطين واستراتيجياتهم العسكرية منذ ما قبل وعد بلفور ومساعيهم لإقامة دولتهم في فلسطين جعلت من إلحاق الجولان بدولتهم عنصراً ثابتاً ورئيساً وقد أدرجوه في صك الانتداب الذي تقدموا به إلى الحكومة البريطانية لتنفيذ وعد بلفور، وفي الخرائط التي رسموها لحدود دولتهم التي تشمل بالإضافة لفلسطين الجولان وجنوب لبنان ، حرصاً منهم على ضم الأراضي العربية التي تشكل الخزان المائي لدولتهم المفترضة.. في 1920/8/23م تم توقيع اتفاق بين بريطانيا وفرنسا رسمت فيها حدود فلسطين وضمت إليها بحيرة الحولة، وبحيرة طبريا، وتم توقيع اتفاقية جديدة في1922/2/3م ضمت بموجبها أراض جديدة غنية بالمياه، وفي 1934م حصلت شركة يهودية على امتياز تجفيف بحيرة الحولة وشق قنوات تصريف المياه وجرها إلى بحيرة طبريا واقترح لورد ميلك الاستيلاء على مياه نهر الأردن وتحويلها إلى المنطقة الساحلية في فلسطين، والاستيلاء على مياه الليطاني وتحويلها إلى بحيرة اصطناعية في سهل النطوف لتنمية أراضي النقب، وفتح قناة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الميت وتجفيف بحيرة الحولة الذي بوشر به 1953م بإنشاء قناة إلى طبرية وبيسان وتخزين مياه اليرموك في طبرية ،وبوشر في عام 1956م بجر مياه الأردن إلى النقب.

المساحة والسكان: تبلغ مساحة الجولان 1860 كم2بما يعادل1٪ من مساحة القطر السوري، احتل العدو الصهيوني منه 1250كم2، ثم انسحبت قواته من 100كم2 بموجب اتفاقيات فصل القوات عام 1974 م بعد حرب تشرين 1973م وشملت أجزاء على طول خط الجبهة ،ومدينة القنيطرة ،وجعلتها منزوعة من السلاح تحت إشراف قوات اليونيفيل (قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة). يبلغ

---

[1] جريدة الخليج -25 -9 -2007 -بحث للمهندس ماجد قرة حول(بردى والليطاني) أهمية هضبة الجولان كخزان للمياه.

طولها من الشمال إلى الجنوب71كم وعرضها من الشرق إلى الغرب27كم، كان عدد السكان فيها يزيد عن(140ألف نسمة) قبل الاحتلال، وقد بلغت الكثافة السكانية 94نسمة في الكم2 وهي نسبة قليلة. تتمركز الأراضي الزراعية الخصبة في الجنوب بينما المنطقة الشمالية التي هي امتداد لجبل الشيخ صخرية وعرة تغطي بعض أراضيها مساحات حرجية بأجمات البلوط والسنديان وقد استثمر السكان بعض هذه الأراضي لزراعة الزيتون والأشجار المثمرة كما في بانياس، وجباتا الزيت ومجدل شمس وعين قنية.

- 2 -

الأهمية العسكرية والاستراتيجية:

تشكل هضبة الجولان عائقا طبيعياً ومنيعاً للتقدم نحو دمشق والعمق السوري من الجهة الجنوبية الغربية وبخاصة سلسلة التلال التي تتراصف وتمتد من الشمال إلى الجنوب من حدود جبل الشيخ الجنوبية والشرقية حتى نهر اليرموك، وسلسلة الوديان الصخرية التي تخترقها والأحراج التي كانت تغطيها. وهي الخط الأمامي للدفاع عن دمشق، والبوابة الرئيسة لفتحها، وتتألف من سلسلة من التلال والوديان شديدة الوعورة والانحدار، يحدها وادي اليرموك من الجنوب ووادي الأردن من الغرب ووادي الرقاد من الشرق، ولذلك اضطرت الجيوش المهاجمة إلى سلوك فتحات محددة في خانق بانياس ـ سهل بانياس ـ وخانق جسر بنات يعقوب وخانق البطيحة، لأن الأودية التي شكلتها مسايل المياه من جبل الشيخ لم تكن تصلح كممرات للجيوش المهاجمة بقدر ما تشكل مناطق محصنة مما يعطي المدافعين مزايا لصد الغزاة المهاجمين الذين يضطرون للانكفاء أو البحث عن طرق بديلة للالتفاف وتجاوز هذه العقبات الطبوغرافية. وكان الطريق إما إلى الشمال عبر لبنان إلى حمص، أو من خلال حوران(معركة اليرموك التي دمر فيها الجيش العربي بقيادة خالد بن الوليد جيوش بيزنطة وحرر سورية من الروم)إلى الشرق إلى دمشق.وساعدتهم هذه البنية الطبيعية على بناء القلاع والحصون والأبراج على أبواب هذه الفتحات أو بمحاذاتها مثل قلعة بانياس(الصبيبة) في الشمال وقلعة الحصن في الجنوب المشرفة على طبريا، وقلعة العال قرب فيق، كما شكلت أنهارها(الأردن واليرموك وبانياس حدوداً طبيعية صعبة المرتقى. ولذلك كانت الجيوش الغازية من أيام الفراعنة والأشوريين والحثيّن ثم الفرس واليونان والرومان تتحاشى الجولان في عبورها إلى الشمال نحو الداخل السوري أو الجنوب باتجاه فلسطين وتلتف من حوله كما أسلفنا.

أورد ياقوت الحموي في مؤلفه الموسوعي معجم البلدان: الجولان(قرية وجبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران، وذكر قول ابن دريد يقال للجبل: حارث الجولان جاء في شعر حسان بن ثابت في رثاء الحارث بن جبلة الغساني :

بكى حارث الجولان من فقد ربه وحوران منه موحش متضائلُ

وقال الراعي (هو الشاعر النميري معاصر جرير، شاعر أموي)

كـذا حـارث الجـولان يـبرق دونـه دسـاكر في أطـرافهن بـروجُ[1]

أدرك السلوقيون اليونانيون الذين ورثوا الإسكندر المقدوني وحكموا بلاد الشام والعراق أهمية الجولان في الدفاع عن إمبراطوريتهم في صراعهم مع بني جلدتهم البطالمة الذين تسلموا حكم مصر بعد الإسكندر وامتد نفوذهم حتى فلسطين فقاموا ببناء مدينة بانياس كقاعدة عسكرية رئيسة في استراتيجيتهم الدفاعية وإعادة بناء قلعتها الآرامية، لتصبح مدينة كبيرة على اسم القائد بانون الذي بناها تيمناً باسم الإله بان إله المراعي والحيوانات البرية لدى اليونانيين، وأصبح عدد سكانها أكثر من مئة ألف نسمة، وفي هذه الحقبة بدأ ت هجرة القبائل العربية من اليمن والحجاز إلى سوريا الجنوبية، وإلى الجولان بخاصة واستطاع الأنباط بعد تمركزهم في الأردن وبناء مدينتهم البتراء كعاصمة ومقر حكومتهم أن يتحرروا من الحكم السلوقي وأن يشكلوا قوة مهابة سيطرت على الجولان منذ القرن الأول قبل الميلاد وكان أشهر ملوكهم الحارث الأول والثاني والثالث، وعبيدة قبل الغزو الروماني وفي عهدهم شرعت القبائل سوريا في الهجرة نحو فلسطين وجنوب سوريا وإلى الجولان بخاصة قبائل قضاعة وسليح ثم الغساسنة الذين أقاموا دولتهم في حوران والجولان وتحت رعاية رومانية بعد الاحتلال الروماني لسورية بقيادة بومبي عام 62ق.م.

في العصرين الروماني والبيزنطي جرى الاستغراق في تعريب الجولان، وخضع لنفوذ الإمارات العربية، بعد انحسار نفوذ الهيروديين الذين ملكهم الرومان على فلسطين، و تتالت هجرات العرب من قبائل لخم وعاملة وكلب وكلهم من عرب الجنوب، وازدهرت بانياس التي سميت بقيصرية فيليبوس الإمبراطور الروماني وجاءها المسيح بحسب الأناجيل ليبشر فيها بدينه الجديد. وازدهر الجولان في عهد الغساسنة وعمرت أراضيه بالزيتون والكروم في شماله حيث تغطي الغابات مساحات واسعة من الشمال إلى الجنوب من جبل الشيخ حتى اليرموك وبخاصة غابات السنديان والبطم والبلوط والزعرور والصبار، وكانت مراعيه مليئة بالخيول والماعز الجبلي والأبقار الجولانية التي اشتهرت بها تلاله ووديانه وسهوله، و تزرع فيه الحبوب بأنواعها، أقيمت فيه معاصر الزيت والعنب[2] التي ما تزال آثارها باقية إلى اليوم .

وكانت معركة اليرموك في السنة الرابعة للهجرة636م التي جرت في ربوعه والتي هزمت فيها جيوش العرب المسلمين جيوش الروم وسحقتها في معركة الواقوصة فاتحة الفتوح والتي حررّت بلاد الشام من بيزنطة لتدخل في الدولة العربية الفتية ولتصبح دمشق إحدى عواصم هذه الدولة وعاصمة

---

[1] معجم البلدان ـ مجلد1 ـ ياقوت الحموي ـ ص 189

[2] جاء في التوراة (صنعوا من بلوط باشان مجاديفك)

الخلافة في عصر الأمويين، وظل الجولان في قلب جند دمشق الذي كان مركزه في الجابية في حوران على حدود الجولان التي انعقد فيه مؤتمر القادة العسكريين والولاة في سنة17هـ تحت رعاية الخليفة عمر بن الخطاب الذي جاء فلسطين ليوقع استسلام مدينة القدس ويعيد تنظيم إدارة الشام ووضع خطط فتح مصر موضع التنفيذ. وتضاءلت الأهمية الإستراتيجية للجولان، وإن ظل يلعب دوره في التطورات السياسية التي شهدتها الخلافة الأموية والعباسية. واستعاد أهميته من جديد في عصر الحروب الصليبية، فقد عرف الصليبيون الفرنجة المدى الحيوي لهذه المنطقة بعد احتلالهم القدس وتأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية فيها، والإمارات الأخرى في بلاد الشام وأهميتها في حروبهم المقبلة لتوطيد احتلالهم في مواجهة المقاومة العربية و وحروبهم مع الدويلات التي أنشأتها السلطنة السلجوقية التي تولت الحشد ضد هؤلاء الغزاة.

وبالمقابل أدرك قادة هذه الدول من أمثال نور الدين زنكي وطغتكين بوري ومعين الدين أنر وصلاح الدين الأيوبي الأهمية الاستراتيجية العسكرية للجولان والموقع الحصين للدفاع دمشق في وجه الجهد العسكري المستمر للصليبيين لاحتلال دمشق، الذين أعادوا بناء قلعة الصبيبة و جعلوها مع سلسلة القلاع الأخرى التي أقاموها قاعدة لعملياتهم ضد دمشق، فجهدوا لتحريرها منهم، وحصنوها وأعادوا ترميم الأبراج المهدمة في بانياس وما حولها وعلى خط التلال في زعورة ورعبنا وصولاً إلى قلعة الحصن المشرفة على طبريا، وبنوا قلعة في العال، واجتهد نور الدين زنكي لطردهم منها، وتابعه صلاح الدين الأيوبي بعد توليه السلطنة وتوحيد سوريا ومصر بعد إسقاط الدولة الفاطمية، فجعل الجولان مكان الحشد الرئيس ضد الصليبيين لخوض معركة حطين الفاصلة 1187م 583هـ التي أدت إلى تحرير بيت المقدس والقضاء على مملكة بيت المقدس الصليبية. وقام بعد ذلك ببناء قلاع وأبراج وخطوط دفاعية في مرتفعات الجولان، وبخاصة على فتحات العبور للهضبة وعلى طرق التقرب لصد هجمات فرسانهم ومشاتهم مستفيداً من طبيعة الأرض والأحراج، وبخاصة منطقة الشعراء شمال غربي الهضبة، ليظل الجولان البوابة الحصينة لساحات النزال بعد تحرير خط القلاع في لبنان وفلسطين وبخاصة تحرير صور التي استمرت بعد تحرير بيت المقدس قاعدة عسكرية وبحرية لأساطيل الفرنجة الغزاة.

ـ 3 ـ

ظل الجولان في عهد المماليك الذين ورثوا الدولة الأيوبية ومحاربة الفرنجة لتحرير ما تبقى لهم من قلاع ومرافئ بحرية وتصفية آخر مواقعهم في جنوب لبنان و فلسطين ظل القاعدة الرئيسة في المرابطة والحشد العسكري للدفاع عن دمشق.

ألم الخراب بالجولان بعد الاحتلال العثماني للبلاد العربية، بعد أن فقدت الهضبة أهميتها العسكرية نتيجة الاحتلال العثماني للمشرق العربي 1516 -1517م. وقد حاولت الإمارة المعنية في عهد مؤسسها فخر الدين المعني الثاني1572 -1635م في لبنان الذي سعى لإقامة إمارة عربستان بحيث تشمل بلاد الشام في إطار السلطنة العثمانية، فعمل على إعادة إعمار الجولان، فاعتنى بزراعة

التوت في المنطقة الشمالية لتربية دودة القز لإنتاج الخيوط الحريرية المطلوبة في الأسواق الإيطالية في تلك الفترة وكذلك زراعة بعض الأصناف التي زاد عليها الطلب بسبب ازدهار جمهوريات المدن الإيطالية في عصر النهضة الأوربية. ثم تباطأت هذه النهضة في عهد الإمارة الشهابية بعد معركة عين دارة 1711م بين القيسية واليمنية، والتبدل الذي جرى في العائلات الحاكمة في لبنان وفلسطين، والصراعات فيما بينها وبخاصة بعد قيام إمارة الشيخ ظاهر العمر الزيداني في عكا وامتدادها نحو الشمال والشرق، ثم محاولات أحمد باشا الجزار والي عكا لتأسيس منطقة نفوذ له بعد فشل الغزو الفرنسي بقيادة بونابرت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. أسهمت الأحداث التي جرت بعد ذلك على تاريخ المنطقة وأهمها : قيام محمد علي باشا والي مصر وابنه إبراهيم بضم بلاد الشام إلى الدولة الجديدة التي أقامها في مصر بعد فشل الحملة الفرنسية وإخفاق الإنكليز في السيطرة عليها، وقد دام لمدة عشر سنوات، استعاد الجولان خلالها أهميته الإستراتيجية العسكرية في الصراع الدائر بين القوى المتنافسة على وراثة الدولة العثمانية وإرث الرجل المريض، وشهد فترة من الازدهار وزيادة السكان. بعد معاهدة لندن 1840 وانتهاء فترة الاضطراب الكبير هذه وعودة بلاد الشام إلى الدولة العثمانية، استطاع الأمراء الشهابيون ترسيخ نفوذ إمارتهم الجديدة بعد سقوط الأمير بشير الشهابي الثاني مع سقوط حليفه محمد علي باشا وتراجعه إلى حكم مصر، وتوسيع سلطتهم لتشمل القسم الشمالي من الجولان، وإعادة ترميم قلعة الصبيبة وجعلها مركزاً عسكرياً مهماً للدفاع عما تبقى من إمارتهم الجنوبية بإقامة الأمير الشهابي الشتوية في القلعة بدلاً من راشيا .

زاد عد سكان الجولان بهجرة واستيطان الشراكسة والتركمان في الجولان الذين منحهم السلطان عبد الحميد الثاني أراضي واسعة من أملاك الدولة فأقاموا فيها قراهم ومزارعهم وعمروا مساحات من أرض الهضبة كانت مراع لعشائر عربية(الفضل والنعيم.. الويسية والرفاعية.) ولذلك اندلعت مواجهات على الأرض والسيادة والملكية بين المهاجرين الجدد وبين هذه العشائر وبين المهاجرين العرب الدروز من وادي التيم الذين شرعوا بتملك أراضي منحهم استثمارها الأمير الشهابي في شمالي الهضبة ثم صارت في ملكيتهم بعد إقامة عدد من القرى فيها وعملوا على زراعتها ودخلوا في التحالفات العشائرية المتنازعة على النفوذ والأرض. كان هدف السلطنة العثمانية من وراء إسكان هؤلاء في الجولان أن تجعل منهم الحراس الساهرين على الأمن والنظام.[1] وبعد سلسلة من المعارك والحروب المحلية استقرت الأمور وشرعت هذه التشكيلة من القرويين والعشائر والمهاجرين أن تجنح إلى السلم وتعمل على إعمار الهضبة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع عصر الإصلاحات ثم في فترة الاستبداد الحميدي الذي يبدو أنه شعر بمخططات الصهيونية الرامية إلى استعمار فلسطين من خلال شراء الأراضي في فلسطين والجولان والجيدور - لإقامة المستعمرات على طريق

---

[1] الجولان دراسة في الجغرافيا الإقليمية - د - أديب يوسف باغ - ترجمة د - يوسف خوري - د.عبد الرحمن حميدة - د. محمد حرب فرزات - د. محمود رمزي - نشر اتحاد الكتاب العرب - ص267.

إنشاء دولتهم المزعومة، ولذلك شرع بتشجيع هجرة قبائل وعشائر عربية تركمانية وجراكسة للسكن في الجولان.

لم يخلط العرب بين الجولان، وحوران، بحسب ما أورد الدكتور أديب باغ في كتابه (الجولان) فاسم الجولان ظل يتردد في الأدب العربي قبل الإسلام كإقليم والأمراء الغساسنة وعلى رأسهم الحارث الكبير كانوا يعتبرون الجولان ضمن الأقاليم التي تحت حكمهم وكان عربياً قبل أن تكون الدولة عربية -إسلامية بقرون عدة. وقد أثر موقع الجولان كمفترق طرق وممر للعبور بين الشمال والجنوب والشرق والغرب على تاريخه وجغرافيته، ولكنه لم تؤثر على هوية سكانه الذين هم عرب منذ القدم كما ينقل عن الدكتور عزة النص(إن الأساس المتوسطي -العربي السامي القديم لسكان سورية لم يتأثر إلا جزئياً وبصورة منفردة وسطحية بالغزوات التي تعرضت لها البلاد، فهم من عرق عربي عاش في هذه المنطقة منذ ما قبل الميلاد بقرون، فقبائل الأزد والغساسنة ولخم وتنوخ وطي استوطنت هذا الإقليم قبل الإسلام، واستقرت فيه وأنشأت دولاً (الأنباط) وإمارات(الغساسنة وسليح والضجاعمة[1]. وقد تفاعلت هذه الهجرات مع الهجرات التي جاءت بعد ذلك وشكلت النسيج الوطني لأهل الجولان في العصور الحديثة. لكن احتلال العثمانيين لبلاد الشام ومصر والقضاء على دولة المماليك جعل دور الجولان يتراجع كإقليم مرتبط بدمشق، ليتبع حيناً لوالي عكا وأحياناً لوالي صيدا فأهملت قلاعه وخربت أبراجه ومنشأته وتخلفت زراعته وأصبحت أراضيه مراعيَ.

- 4 -

في التاريخ الحديث برز الجولان من جديد في حمى مرحلة الاستعمار الغربي ـ الإنكليزي والفرنسي الذي استخدم مشروع إقامة دولة يهودية في فلسطين منذ حملة بونابرت على مصر 1798م وسيلة للهيمنة والاستعمار ورسم خرائط جديدة للوطن العربي، وقد باشرت جهات يهودية وإنكليزية وأمريكية وفرنسية لتأسيس جمعيات علمية ودينية غايتها المعلنة هي التنقيب عن الآثار ورسم خرائط للمواقع الدينية الواردة في التوراة مثل جمعية أحباء فلسطين وغاياتها السرية هي دراسة اقتصادية واجتماعية واستراتيجية وسكانية، والشروع في شراء أراض واستعمارها وتأسيس مزارع حديثة للفلاحين اليهود الذي كانت الخطط تعد لتهجيرهم إلى فلسطين، ثم تأسست المنظمة الصهيونية العالمية بعد مؤتمر بال(1897م)التي أعلنت مخططاتها لإقامة دولة استعمارية لها في فلسطين، وحصلت خلال الحرب العالمية الأولى على وعد من الحكومة الإنكليزية وهو المشهور بوعد بلفور باسم وزير خارجية بريطانيا وقتذاك 1917م بمساندة هذا المسعى وتقرر في إطار اتفاقية سايكس ـ بيكو سيئة الصيت أن تكون فلسطين في حصة بريطانيا /فلسطين وفي هذا الإطار قامت المنظمات اليهودية الصهيونية بشراء الأراضي في فلسطين والجولان وحوران تمهيداً لفتح الهجرة اليهودية إلى

---

[1] راجع المرجع السابق ص 258 وما بعد

فلسطين التي منذ أواخر القرن التاسع عشر. وأصبح الجولان منذئذ محط أطماع الصهاينة ليضموه إلى دولتهم أو للهيمنة عليه كخزان مائي هام وكموقع استراتيجي ومنطقة سياحة واصطياف وكأراضي خصبة.

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى وانكشاف أسرار معاهدات الخزي والعار التي عقدتها الدولتان الاستعماريتان بريطانيا وفرنسا لاقتسام الولايات العربية التي تحررت من الاحتلال العثماني وساهم الجيش العربي بتحريرها وكان يجب أن تؤسس فيها دولة عربية موحدة بموجب تعهدات بريطانيا للشريف حسين قائد الثورة العربية التي أعلنت 1916م، شرعت هاتان الدولتان باقتسام هذه الولايات والعمل لتنفيذ وعد بلفور، تحول الجولان إلى قاعدة للمقاومة في مواجهة الجيش الفرنسي الذي تقدم من الجنوب لاحتلال دمشق لتنفيذ اتفاقية سايكس - بيكو وتساندت قوات الجيش العربي و قوات الثوار من أهالي الجولان بقيادة أحمد مريود، و أجبرته على توقف زحفه في معركتي مرجعيون الأولى والثانية في جنوب لبنان1919م. وبعد ميسلون 1920م ودخول الجيش الفرنسي إلى دمشق واستشهاد البطل يوسف العظمة وإعلان غورو قائد الجيوش الفرنسية في الشرق العربي وأول مندوب سام فرنسي وضع سوريا تحت الانتداب وتقسيمها إلى أربع دويلات تحول الجولان بقيادة أحمد مريود إلى قاعدة ثورية ضد الاحتلال الفرنسي وظل إقليماً مشتعلاً بالثوار وكان ذروتها المحاولة الجريئة التي استهدفت قتل الجنرال غورو 1923م على طريق القنيطرة التي كانت الشرارة التي أشعلت الثورة السورية الكبرى عام 1925م بقيادة سلطان الأطرش في جبل العرب، بعد أن التجأ إلى داره في القريا أدهم خنجر أحد أفراد هذه العملية البطولية، لكن الفرنسيين لم يراعوا حرمة داره فهاجموها وقبضوا على أدهم وأعدموه. وظل الجولان إقليماً ثورياً حتى 1926م عندما عاد أحمد مريود من منفاه في العراق إلى قريته جباتا الخشب بعد أن حكم عليه بالإعدام 1920م، عمل على تجميع ثوار الجولان، لنصرة الثورة في الغوطة والجبل ولكن الفرنسيين لم يمهلوه وهاجموه بغتة فاستشهد وعدد من رفاقه الثوار بعد معركة حامية في جباتا الخشب، فحملوا جثمانه وألقوه في المرجة تشفياً وانتقاماً وتخويفاً لدمشق الثائرة ومنعوا دفنه لعدة أيام.

ـ 5 ـ

الجولان بعد كارثة فلسطين وقيام دولة الصهاينة 1948م:

أصبح الجولان قضاء تابعاً لمحافظة دمشق بعد الاستقلال 1946م، وصار مقر الجبهة الجنوبية الغربية في مواجهة العدو الصهيوني، وانتشرت على حدوده المطلة على فلسطين وفي تماس معها وعلى طول خط الجبهة الذي يمتد من وادي العسل شمالاً حتى وادي اليرموك جنوباً ومن القنيطرة شرقاً إلى نهر الأردن غرباً بطول 71كم وعرض 27كم، منطقة عسكرية تتمركز فيها قوات الجيش العربي السوري. وصارت الهضبة والمرتفعات المتصلة بجبل الشيخ منطقة جيوبوليتيكية متميزة للجمهورية العربية السورية، في مواجهة دولة العدوان التي استولت على القسم الأعظم من

فلسطين وشردت أهله وارتكبت المذابح بحقهم، فصاروا لاجئين في البلاد العربية من حولهم. خاض الجيش العربي السوري الحديث معارك باسلة في مواجهة العصابات والجيش الصهيوني الذي زودته الدول الاستعمارية بأحدث الأسلحة والمعدات وأمدته بالمهاجرين المدربين على القتال في الحروب الحديثة من الذين كانوا في عداد جيوشها المقاتلة في الحرب العالمية الثانية. فكانت معارك كعوش وتل العزيزيات، وسمخ والنقيب وتل القاضي وجسر بنات يعقوب التي صمدت فيها قوات الجيش وصدت هجمات العدو أو هاجمته لتحرير ما كانت قد احتلته قواته من قبل وحالت دون احتلال منابع المياه في بانياس والحمة. وكانت الحركة الصهيونية قد طالبت أن يشمل وعد بلفور ضم الجولان إلى الدولة الصهيونية التي تريد إقامتها في فلسطين، وناور ممثلوها في مؤتمر الصلح في فرساي 1919م لكي يفوزوا بهذه الغنيمة غير أنهم فشلوا. وهكذا أصبح الجولان من جديد الهضبة الإستراتيجية الأهم في الصراع العربي الصهيوني بعد فلسطين للدفاع عن دمشق عاصمة سوريا الحديثة المستقلة ضد أطماع الصهيونية بعد قيام دولتها في فلسطين والتي جعلت من احتلال الجولان والوصول إلى جبل الشيخ الخزان المائي الأكثر أهمية لأمنها المائي وجعل قمته العالية التي ترتفع إلى 2814م عن سطح البحر هدفاً محورياً في سياساتها التوسعية لإقامة دولتها الكبرى من الفرات إلى النيل. كي تجعل سورية والأعماق العربية تحت مراقبتها وفي مرمى مدفعيتها وصواريخها ورصد حركات جيوشها والتحكم بالحوض المائي السطحي والجوفي الذي يمدها بالمياه. وأصبحت القنيطرة محافظة في 1964م بعد أن ألحق بها قضاء فيق (الزاوية) الذي كان ملحقاً بمحافظة درعا. وكانت الحرب العدوانية في حزيران 1967م التي خططت لها بالتعاون والتنسيق مع راعيتها الدولة العظمى الولايات المتحدة الأمريكية لتوجية ضربة قاصمة لحركة التحرر العربية في مصر وسورية، والاستيلاء على الجولان وسيناء وما تبقى من فلسطين وفي قلبها مدينة القدس، وكانت الجائزة الكبرى التي حصلت عليها هزيمة حركة التحرر العربية في عاصمتيها القاهرة ودمشق.

وبالإضافة إلى الأهمية العسكرية لهضبة الجولان فإن الأهمية الاقتصادية تجعلها أكثر حيوية إذ تتحكم بمصادر المياه والحوض المائي شريان الحياة الذي يمدها بأكثر من مليار و200مليون متر مكعب من المياه اللازمة لها ولزراعتها وزيادة عدد سكانها وتطوير صناعتها حيث تقدر كمية مخزون المياه بأربعة مليارات متر مكعب. إن جبل الشيخ هو أبو المياه الحقيقي لفلسطين ولا يمكن فصله عنها دون إنزال ضربة جذرية بكمياتها، والدولة التي تسيطر على منابع الليطاني وبانياس واللدان واليرموك هي التي تملك تقرير مصير الحياة في هذه المنطقة[1].ولذلك كثرت المشاريع التي تقدمت بها الجهات الصهيونية وإن اتخذت صفة مبادرات ومشاريع اقتصادية أمريكية لاقتسام المياه في الجولان والمثال الأبرز كان مشروع أيريك جونسون الوزير الأمريكي في 1953/10/16م، ويتضمن إقامة أنظمة ري وإنشاء سدود ومجمعات مياه، وأقنية لنقل وتوزيع وتنظيم وتحديد حصص المياه لكل دولة بين سورية والأردن وإسرائيل، وكان الهدف السياسي أكبر من الاقتصادي، وهو الاعتراف الضمني بدولة الصهاينة المستعمرة لفلسطين ودمجها في الإطار الإقليمي العربي. وقد

---

[1] تصريحان لحاييم وايزمن وإيغال آلون في 29\12\1969م نشرة كلنا شركاء الإلكترونية 25\9\2007م

رفضت الدول العربية وبخاصة الجمهورية السورية هذه المشاريع واعتبرتها محاولات بائسة من العدو المستعمر وحماته لنيل الاعتراف الضمني وسرقة المياه العربية لمزيد من التوسع الاستيطاني على حساب الشعب العربي الفلسطيني المشرد من أرضه. نزح أهالي الجولان من قراهم ومدنهم خلال الحرب العدوانية التي شنها العدو الصهيوني في 5حزيران 1967م على مصر وسورية والأردن، وبعد دخول قوات الجيش الصهيوني إلى الهضبة واحتلالها في الحادي عشر من حزيران 1967م، بسبب سياسات الاحتلال الصهيوني القائمة على تهجير وطرد السكان بقوة السلاح، وتهديم بيوتهم ومزارعهم ليأتي بالمهاجرين اليهود من أنحاء العالم، ويقيم لهم المستوطنات والمستعمرات، لأغراض استعمارية عسكرية وسياسية، وقد بلغ عدد القرى والمدن المهدمة أكثر من 133مدينة وقرية. وأبقت القوات المحتلة على خمس قرى هي (مجدل شمس وعين قنية ومسعدة وبقعاثا والغجر)، كان عدد سكانها عند الاحتلال 6396نسمة وقد وصل عددهم إلى أكثر من اثنين وعشرين ألف نسمة في عام 2000م. وبلغ عدد النازحين من قراهم ومدنهم 140 ألف نسمة، ويبلغ عدهم اليوم أكثر من نصف مليون من النازحين الذين توزعوا على محافظات دمشق وريف دمشق ودرعا وفي القسم الذي ظل محرراً من الجولان. بينما بلغ عدد المستعمرات الصهيونية في الجولان حوالي الأربعين مستعمرة يسكنها عشرون ألف مستوطن.

بعد الاحتلال الإسرائيلي للجولان حولته دولة الاحتلال إلى جبهة محصنة وحفرت خطاً دفاعياً من الشمال إلى الجنوب سمته خط إيغال آلون، وأقامت مرصداً كبيراً في جبل الشيخ مجهزاً بوسائل الرصد الحديثة التي تؤمن لها الاستطلاع والتنصت والتجسس على المواصلات السلكية واللاسلكية والإلكترونية ومراقبة وكشف تحركات القوات العسكرية حتى جبال القلمون ووسط سورية وإلى الحدود الأردنية والعراقية في الجنوب والجنوب الشرقي. ومنذ اتخذت الكنيست الصهيونية الإجماع في 14 كانون الأول 1981م قراراً بضم الجولان إلى الدولة الصهيونية، تمارس سلطات الاحتلال على الأرض والسكان سلطات سيادية تخالف شرعة الأمم المتحدة التي تمنع الاستيلاء على الأرض بالقوة. قامت بفرض الجنسية الإسرائيلية على العرب السوريين أهالي القرى الخمسة (مجدل شمس ومسعدة وبقعاثا وعين قنية والغجر) في الجولان، وأجبرتهم على حمل هويات إسرائيلية وشرعت بتطبيق القوانين الإسرائيلية عليهم، رفضت الأكثرية هذه السياسات وتصدوا لها ومزقوا بطاقات الهوية المفروضة عليهم، وأعلنوا إضراباً عاماً مترافقاً بعصيان مدني تمثل بعدم الامتثال لتلك القوانين، ونظموا المظاهرات احتجاجاً على هذه الممارسات مطالبين بإلغائها وتمسكهم بجنسيتهم العربية السورية وأن الجولان جزء عضوي من سوريا. مما اضطر سلطات الاحتلال التي لم يعترف بقرارها ذلك أحد، ورفضه وأدانه مجلس الأمن الدولي والجمعية العامة للأمم المتحدة إلى التراجع عن إجراءاتها التعسفية لكنها أبقت على قرارها باعتبار الجولان جزءاً من دولة العدوان. وتمارس كامل السيادة على الأرض والمياه والموارد الطبيعية والزراعية والحيوانية، وتقيم المستوطنات في أراضيه التي بلغت ثلاث وثلاثون مستعمرة، تنافس السكان في القرى الباقية على المياه وتمنع عليهم التصرف حتى بجمع مياه الأمطار وألا يحفروا حفرة في الأرض تزيد عن ثلاثة أمتار، إلا برخصة، وتفرض

عليهم الغرامات وتصادر الأراضي تحت ذريعة أنها من الأملاك العامة أو من أملاك الغائبين الذين هجرتهم وجعلت أراضيهم وما يملكون غنائم حرب لها.

إن سياسات القوة الغاشمة التي تنتهجها الدولة المستعمرة المخالفة لكل الأعراف والقوانين الدولية، وتساندها الدول الاستعمارية التي أقامتها بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، جعلتها لا تبالي بحقوق العرب الفلسطينيين والسوريين في تحرير أرضهم التي لا يمكن استردادها إلا بالمقاومة المسلحة. وقد تأكد ذلك من خلال المفاوضات التي دخلت فيها الدول العربية منذ مؤتمر مدريد 1991م بعد الحرب الأمريكية الأطلسية على العراق وتدمير قواته المسلحة فيما سمي بحرب تحرير الكويت وفرض الحصار عليه، فهي لا تتنازل عما تسميه مصالحها الحيوية في المياه والمناطق العازلة منزوعة السلاح تحت رقابة دولية وبوجود قوات تابعة للأمم المتحدة، والمناطق التي تشكل عمقاً استراتيجياً للاستطلاع والإنذار المبكر في جبل الشيخ. ولذلك لم تتوصل المفاوضات التي جرت بعد ذلك سراً وعلناً بين وفود إسرائيلية وسورية تحت رعاية أمريكية في شيفردزتاون shepherdstown في الولايات المتحدة الأمريكية في كانون ثاني 2000م ثم في جنيف في آذار2000م برعاية الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون إلى أية نتيجة.

كانت حرب حزيران 1967م حرباً من أجل المياه شنتها دولة الاحتلال بعد أن قرر مؤتمر القمة العربية الأول الذي انعقد في القاهرة كانون الأول 1964م المباشرة في تحويل روافد نهر الأردن في الدول العربية التي تنبع منها أو تجري فيها هذه الروافد وإقامة مشاريع ري للاستفادة من المياه العربية في الجولان في سورية وفي الأردن وفي لبنان، وقد بدأ العمل في هذه المشاريع منذ1966م وارتفعت وتيرة العمل فيها منذ بداية 1967م بمشروع تحويل مياه نهر بانياس لري أراضي الجولان رداً على مشروعات الكيان الصهيوني تحويل مجرى نهر الأردن وضخه لري النقب في جنوب فلسطين المحتلة وزيادة رقعة الأراضي الزراعية المروية على حساب حصة الأقطار العربية التي تجري فيها هذه الروافد والينابيع. وقد بدأت حرب 1967م فعلاً عندما شرعت بتدمير الآليات والمعدات التي باشرت حفر المجرى الجديد للنهر في نيسان 1967م وانطلقت تهدد وتنذر بالحرب وتغير على القطعات الأمامية للجيش العربي السوري في عمليات استفزازية كان لا بد من الرد عليها. واتخذت من ذلك ذريعة لحشد قواتها على الجبهة السورية مهددة باحتلال دمشق وإسقاط النظام الذي يسمح للفدائيين الفلسطينيين بالانطلاق منها لمهاجمة قوات الاحتلال الصهيوني. هذا ما جعل القيادة في جمهورية مصر العربية بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر وقد أدركت النوايا العدوانية الصهيونية لشن الحرب تعلن تعبئة الجيش العربي المصري بحسب اتفاقية الدفاع المشترك بين القطرين الشقيقين وإرساله إلى سيناء لردع العدو الصهيوني. وكانت الحرب العدوانية بالتواطؤ مع الولايات المتحدة الأمريكية في الخامس من حزيران 1967م التي كان هدفها الرئيس احتلال الجولان والوصول إل جبل الشيخ والتحكم بخزان المياه وينابيعه، و قد أعلنت بعد ذلك أنها لن تنسحب من الجولان إلا إذا ضمنت سيطرتها على الحوض المائي فيه، وهذا ما يجب أن يعلمه كل مواطن عربي سوري، ويدرك أن لا حل سلمياً مع دولة الاحتلال لاستعادة الجولان.

❑❑

الحوار لا يكون إلا مع الآخر ، وقد يكون المتحاورون أفرادا أو مجموعات ، وهو يهدف إلى شرح وجهة نظر أو تبيان معطيات أو إفهام وجهة نظر للآخر ثم التفاهم ، ولا يتحقق ذلك من دون أن يتسع الأنا للآخر فكلما سما الإنسان وترفع عن أنانيته أوجد للآخر مكانا أرحب . والحقيقة ليست في الأنا بل إنها تتكامل مع الآخر حتى في نسبيتها .

والحوار مع الآخر اكتشاف للأنا وإضاءة واسعة على النواقص التي لا تخلو منها شخصية إنسانية ، يقول جان بول سارتر : (الآخر هو وسيط بيني وبين نفسي ، وهو مفتاح لفهم ذاتي والإحساس بوجودي) .

إن الحوار بحد ذاته أحد أهم عناصر الاحتكاك الفكري والتكامل الثقافي والتدافع الحضاري بين الناس ، ومن دون ذلك يركن الذهن ويفقد التعطش إلى المعرفة ، وتتحول مساحات الفكر بحيرات آسنة . فالاختلاف بين الناس وما يشكله من تدافع هو احد أهم موجبات عدم فساد الأرض . ويتميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية بهذه الخاصية ، مما يسهل انتقال الخبرات وتبادلها بين الأجيال ويتم ذلك من خلال عملية الإرسال (المتحدث) والاستقبال (المستمع)

في البداية لابد من التمييز بين الحوار والجدال رغم أنهما كلمتان لهما دلالة متقاربة تدل على تبادل الحديث بين اثنين أو أكثر .

□ هيثم دقاق

الحوار كلمة جميلة رقيقة تدل على التفاهم والتفاوض والتجانس،

تعني حديث يجري بين اثنين أو أكثر في العمل القصصي أو بين الممثلين على المسرح والتحاور يعني التراجع في الكلام بين المتحاورين. وهو يعني الطرق التي يسلكها المحاور لإقناع السامع لاستمالته والتأثير فيه. وفي القرآن الكريم (قال له صاحبه وهو يحاوره). [الكهف 37] .

بينما تأتي كلمة **الجدال** : من جَدَلَ الحبل إذا فَتَلَه ؛ وهي تستعمل في الأصل لمن خاصم بما يُشْغِل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، ثم استعمل في مُقابَلَةِ الأدلة لظهور أرجحها .ومن المجادلة : جادله مجادلةً ، وجدالاً : ناقشه وخاصمه . تجادلا في الأمر تخاصما . وفي التنزيل العزيز : (وجادلهم بالتي هي أحسن).

وعليه فان الحوار الجيد البناء لا بد أن يستمر حوارا مؤدباً مهذبا راقياً ، ومتى انتفى الأدب في الحوار يصل إلى الصدام والطرق المسدودة . ويصبح جدالا وفي هذه الحال يفضل أن يتوقف الجدال وعدم الاستمرار لأنه يولد الشحناء والتباغض .

وأدب الحوار يعني أدب تجاذب الحديث بشكل عام ، أي تراجع في الكلام بينهم . والمحاورة : الجواب ومراجعة النطق .

والخلاف في الرأي والتفكير واقع بين الناس في مختلف الأزمنة والأمكنة ، وهو سنَّة الله في خلقه، فهم مختلفون في ألوانهم وألسنتهم وطباعهم ومَداركهم ومعارفهم وعقولهم ، وقد نبَّه القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ). [الروم:22]. وهذا الاختلاف الظاهريّ دالٌّ على الاختلاف في الآراء والاتجاهات والأغراض . وكتاب الله العزيز يقرر هذا في أكثر من آية ؛ مثل قوله سبحانه : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِكَ لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ). [هود:119].

أهمية الحوار: للحوار أهمية كبيرة فهو وسيلة التفاهم بين البشر على أن يكون الحوار حراً لا حدود تقف في طريقه إلا حدود العلم والأدب.

غاية الحوار : إقامةُ الحجة، ودفعُ الشبهة والفاسد من القول والرأي، فهو تعاون من المُتناظرين على معرفة الحقيقة والتَّوصُّل إليها ، ليكشف كل طرف ما خفي على صاحبه منها ، والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق . يقول الحافظ الذهبي : (إنما وضعت المناظرة لكشف الحقِّ، وإفادةِ العالِم الأذكى بالعلم لمن دونه ، وتنبيهِ الأغفل الأضعف) . هذه هي الغاية الأصلية ، وهي جليَّة بيِّنة ، وثَمَّة غايات وأهداف فرعية أو مُمهِّدة لهذا الغاية منها :

- إيجاد حلٍّ وسط يُرضي الأطراف .
- التعرُّف على وجهات نظر الطرف أو الأطراف الأخرى ، وهو هدف تمهيدي مهم .

- البحث والتنقيب ، من أجل الاستقصاء والاستقراء في تنويع الرُّؤى والتصورات ، من أجل الوصول إلى نتائج أفضل وأمْكَنَ ، ولو في حوارات تالية .

أما عوائق الحوار فهي كثيرة ومنها: الخوف، الخجل، المجاملة، الثرثرة، الإطناب، التكرار والإعادة، التقعر، استخدام المصطلحات غير المفهومة مثل الإنجليزية، أو الفرنسية، أو غيرها أمام محاور لا يفهم معانيها، رفع الصوت من غير موجب، الصراخ، التعصب، وإظهار النفس، وعدم الرغبة في إظهار الحق. ويقول الإمام الشافعي في هذا: ما حاورت أحداً إلا تمنيت أن يكون الحق إلى جانبه.

مكونات الموقف الحواري:

المُحَاوِرْ أو الخطيب أو المرسل أو الباث: يجب أن يكون عارفاً بموضوع الحوار، وبما سيحاور، قادراً على التعبير، حليماً واسع الصدر، يتمتع بسرعة البديهة، واستحضار الشواهد، والذكاء، ويجمعها: "الحكمة"، بمعنى: العلم والفهم والتعبير، ومثال ذلك حكمة نبي الله إبراهيم عليه السلام في حوار النمرود إذ ألزمه الحجة: (قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهْتَ الذي كفر). [البقرة:258].

المُحَاوَرْ أو المتلقي أو المستقبل أو المستمع: هو من يتوجه إليه الخطاب بغاية التأثير علية. وعلى الخطيب أن يكون على علم ومعرفة مسبقة به لكي يتحكم بانفعالاته التي يجب إثارتها فيه، وبالتالي السبل والوسائل التي يجب اتباعها لقيادة المتلقي في الاتجاه الذي يريده.

موضوع الحوار: قد يكون علمياً بحتاً مختصاً بعلم معين موجهاً للمختصين بهذا العلم، أو موضوعاً عاماً موجهاً للجماهير بشكل عام.

<u>الخلاف في الرأي والتفكير.</u> على قسمين :

أ - خلاف تنوع: وفيه يتم الاتفاق على الأصول والكليات والاختلاف في الفروع والجزئيات .

ب - خلاف تضاد: وهو الخلاف في الأصول والكليات وهو المذموم لا تلاقي فيه.

<u>مستويات الحوار</u>. ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة مستويات :

1. **حوار داخلي مع الذات** : يساعد الإنسان على تقييم نفسه والتعرف على سلبياته وإيجابياته من وجهة نظره الخاصة ، ويمكّنه من تقدير إمكانياته لمحاورة الآخرين، ويقسم إلى قسمين :

- يتم التركيز فيه على الفرص والأساليب البناءه في معالجة التحدي وإتباع الأساليب المؤدية للنجاح .
- التفكير في المعوقات والجوانب السلبية في القضية وكيفية الانسحاب والهروب منها .

ويرى العلماء أن الفريق الأول أكثر حرصا على بذل الجهد والنجاح ...أما الثاني فهو لا يرى ضرورة لذلك لأنه يضع لنفسه معوقات كثيرة، فمن يفكرون في الفرص يفكرون دائما في الحل ...أما الفريق الآخر فدائماً يفكر في المشكله .

الفريق الأول يساعد الآخرين ... بينما يتوقع الثاني المساعدة من الآخرين .

الفريق الأول يرى الحل غير صعب لأنه ممكن ...والثاني يرى الحل ممكناً لكنه صعب.

الفريق الأول ينظر إلى المستقبل ويتطلع إلى ما هو ممكن .....والثاني ينظر إلى الماضي ويتطلع إلى تغييره.

2. **الحوار مع الآخر من أهل العقيدة الواحدة** : كل طرف من المتحاورين يكمل الطرف الآخر . انطلاقاً من القول: نصف رأيك عند أخيك، نتعاون فيما اتفقنا ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا عليه.
3. **الحوار مع الآخر المختلف** : هو نوع من الديالكتيك أساسه الثقافة ، يقتضي معرفة الآخر في خصوصيات حضارته وتفكيره وتطلعاته، ويتطلب التنمية الذهنية والاعتراف والاحترام المتبادل وحق الاختلاف والمغايرة .

ألوان الحوار:

ويمكن أن نقسم ألوان الحوار إلى قسمين: الحوار السلبي والحوار الايجابي ولنبدأ بعرض ألوان الحوار السلبي:

الحوار السلبي:

- **الحوار العدمي أو التعجيزي:** وفيه يرى المتحاورون السلبيات والأخطاء ويقفون عندها لينتهي الحوار إلى طريق مسدود.
- **حوار المناورة (الكرّ والفرّ):** ينشغل الطرفان أو أحدهما بالتفوق اللفظي وهو نوع لإثبات الذات بصرف النظر عن الثمرة الحقيقية لذلك الحوار .
- **الحوار المزدوج:** حيث يعطي المحاور ظاهر كلامه غير باطنه ويهدف إلى إرباك الطرف الآخر وهو نوع من العدوان الخبيث.
- **الحوار السلطوي:** (استمع واستجب) مثل حوار الأب المتسلط أو المدرس أو الأم أو المسؤول أو المراقب، وهو نوع شديد العدوان حيث يلغي أحد الأطراف كيان الآخر ويلغي القدرات الإبداعية للمقهور .
- **الحوار السطحي:** (لا تقترب من الأعماق فتغرق) حيث يصبح الحوار في الأمور الجوهرية محاطاً بالمخاطر فيلجأ أحد الطرفين لتسطيح الحوار طلباً للسلامة كوسيلة للهروب من الرؤية الأعمق.

- **حوار الطريق المسدود**: (لا داعي للحوار فلن نتفق) يعلن الطرفان أو أحدهما منذ البداية عن تمسكه بثوابت متضادة تغلق الطريق وهو نوع من التعصب الفكري وانحسار مجال الرؤية .

- **الحوار الإلغائي أو التسفيهي**: (أنا الصح والآخرون على خطأ) يصرّ أحد الأطراف أن لا يرى شيئا غير رأيه وينكر الرؤية الأخرى ويسفّهها وهذا النوع يجمع بين سيئات الحوار السلطوي وحوار الطريق المسدود .
- **حوار البرج العاجي**: ويقع فيه بعض المثقفين حين تدور مناقشاتهم حول قضايا فلسفية أو شبه فلسفية مقطوعة الصلة بواقع الحياة اليومية وغالباً ما يكون نوع من الحذلقة لإبراز التفوق على العامة.
- **الحوار الموافق**: (معك على طول الخط) وفيه يلغي أحد المتحاورين حقه في التحاور لحساب الطرف الآخر إمّا استخفافاً (خذه على قد عقله) أو خوفاً أو تبعيّةً لإلقاء المسؤولية على الطرف الآخر.
- **الحوار المتعاكس**: (عكسك دائما) حين يتجه الطرف الأول يميناً يتجه شمالاً وهي رغبة لإثبات الذات أو التميز ولو كان على حساب جوهر الحقيقة .
- **حوار العدوان السلبي**: (صمت العناد والتجاهل) يلجأ فيه أحد الطرفين إلى الصمت عناداً أو تجاهلاً أو رغبة في مكايدة الطرف الآخر دون التعرض لخطر المواجهة.

الحوار الايجابي الصحي:

هو الحوار الموضوعي الذي يظهر الحسنات والسلبيات في ذات الوقت والعقبات وإمكانية التغلب عليها. و هو حوار متفائل (في غير مبالغة) وصادق وعميق وواضح الكلمات ومدلولاتها وهو متكافئ يعطي كل طرف للآخر فرصة التعبير والإبداع . فالهدف النهائي له إثبات الحقائق وهذا الحوار الذي يمكن أن نسلكه في حياتنا سعياً للأفضل وارتقاءً بالمجتمع .. وهو يبني السلوك ويساعد في تشكل العلاقات والنهوض بالمجتمع والفرد والأمة.

أنواع الحوار:

أ - الحوار من حيث الشكل قسمان:

1 - حوار هادئ عقلاني منطقي.

2 - حوار متشنج يعتمد على الصراخ.

ب - من حيث المضمون:

1 - الحوار المتفتح وعكسه المتزمت المعتمد على المهاترة لا الرغبة في الفائدة.

2 - حوار العلماء وحوار طلاب الشهرة وفرق كبير بينهما.

وينتج من حوار العلماء فوائد عظيمة للناس لأنه يقوم على احترام الذات والآخرين، وتقبل الرأي الآخر مادام لا يمس الثوابت في العقيدة، وإدراك أن للحوار هدفاً يراد تحقيقه بعكس حوار طلاب الشهرة الذين يريدون الانتصار للذات والظهور.

ج - الحوار من منظور الأشخاص المتحاورين:

1 - الحوار بين العاقل والجاهل، فلا بد من حلم العاقل ليعلّم الجاهل.

2 - الحوار بين الشيوخ والشباب. فينبغي إدراك المراحل العُمرِية، واختلاف الأعراف، وتباين خبرة الحياة عند الشيوخ وجدة علم الشباب.

3 - الحوار بين المتخصصين وغير المتخصصين.

4 - الحوار بين الحاكم والمحكوم، وينبغي فيه احترام عقول الآخرين، واحترام قدر الحكام دون التنازل عن الموضوعية وإخلاص النصيحة بين الطرفين.

مقومات الحوار:

1ـ الإخلاص والتجرد:

على المحاور أن يتجرد من التعصب لفرقته ومذهبه وفكرته، فالواجب أن يعتبر نفسه مجتهداً قد يخطئ ، وللشافعي كلمة في هذا الشأن يقول فيها : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي خصمي خطأ يحتمل الصواب ، وقال أيضا : ما جادلت أحداً إلا وددت أن يظهر الله الحجة على لسانه، وكان يدعو لخصمه بالتسديد .

ومن مقولات الإمام الشافعي المحفوظة. (ما كلمت أحداً قطّ إلا أحببت أن يُوفّق ويُسدّد ويُعان ، وتكون عليه رعاية الله وحفظه . وما ناظرني فبالَيْتُ ! أَظَهَرَتِ الحجّةُ على لسانه أو لساني).

وعدم التعصب ولو كان للحق ، يقول الغزالي : (إن التعصّب من آفات علماء السوء ، فإنهم يُبالغون في التعصّب للحقّ ، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار ، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة) .

والمقصود من كل ذلك أن يكون الحوار بعيداً عن التعصّب خالصاً لطلب الحق ، خالياً من العنف والانفعال، بعيداً عن المشاحنات والأنانية والمغالطات البيانيّة، مما يفسد القلوب، ويهيج النفوس ، ويُولد النَّفرة ، ويُوغر الصدور، وينتهي إلى القطيعة. وهذا الموضوع سوف يزداد بسطاً حين الحديث عن آداب الحوار إن شاء الله .

وقال الشافعي – أيضا -: ما حاورني أحد فقبل الحق مني إلا عظم في عيني، ومن رد الحق سقط من عيني. فليكن القصد هو طلب الحق والحقيقة، سواء جاء على لسانك، أو على لساني، فمن قال لك الحق فعليك أن تقبل منه، سواء أكان صغيراً أم كبيراً، عظيماً أم حقيراً، امرأة أم طفلاً، كما قال عمر - رضي الله عنه - : أصابت امرأة واخطأ عمر، فقال ضالة المؤمن ، وكان بعض السلف يقول: رغم انفي للحق.

2ـ إحضار الحجة

والحجة إما أن تكون عقلية قاطعة، أو نقليه صحيحة، وصاحب الحجة قوي، فعلى المدّعي الدليل، وعلى الناقل الصحة، وليعلم الإنسان أن الحجة ليست برفع الصوت والمصارعة، فليست حالة الناس كحالة الثيران، إنما هم أناس مركبون على الاحترام والفطرة السليمة التي تقبل الحق، وتذعن له إذا كانوا راشدين موضوعيين، فالمطلوب منا هو إحضار الحجج والبراهين للناس، فلا تغضب ولا ترفع صوتك، فبعض الناس من قلة حيلته وحجته، وضعف بصيرته ودليله، يبدأ بالصراخ، وتقطيب الوجه، ثم يتحول إلى عالم السب والشتم، وهذا ليس من الحوار في شيء.

قال سبحانه وتعالى (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين). [البقرة:111] .

3ـالسلامة من التناقض:

من الواجب على المحاور أن لا يناقض كلامه بعضه بعضاً؛ لان بعض الناس – لقلة بصيرته - ، يأتي بكلام ينقض بعضه بعضاً.

4ـالحجة لا تكون هي الدعوى:

البعض من الناس يجعل دعواه حجة، ويقول: ما دمت قد قلت هذا القول، فقولي هذا حجة ودليل، ويزكي نفسه، ويقول: ألفت أربعين كتاباً، وشهد لي فلان وفلان، ودائماً الحق معي وأن لي من العمر كذا وكذا. يقال: إن شاباً وقف عند عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه - يريد أن يتكلم قبل الناس قال له: اجلس ، في الناس من هو اكبر منك سناً، فقال الشاب: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان غيرك من المسلمين أولى بالخلافة منك، فتبسَّم عمر بن عبد العزيز وأقرَّ له بهذه الحجة، فعمر بن عبد العزيز عمره -آنذاك – أربعون سنة، وفي الناس من عمره أكثر، ولم يتولوا الخلافة ، فالخلافة تأتي بالعقل والعلم والإيمان .

5ـ الاتفاق على المسلمات:

يتم تثبيت الأصول والثوابت المتفق عليها للتقريب بين المتحاورين ولا يُناقش فيها ولا تحاور، ولا نضيع الوقت بالجلوس لمناقشة الأصول الثابتة؛ فهذه مسلمات مجمع عليها، وفي مناقشتها تشويش على الناس، وتضييع للوقت وأوقات الآخرين، لان الحوار يكون في مسائل اختُلفَ بها، فمن أراد أن يحاور فليحاور في مسائل تقبل الخلاف والجدل، وهذا هو خلاف التنوع.

6ـ أن يكون المحاور أهلاً للحوار:

فلا تأت برجل مشهور عنه الجهل والنزق والطيش وتحاوره، لان هذا أذاه أكثر من نفعه، وقد يحرجك أمام الناس، ويتعرض لك، أو يتعرض لنفسه بالأذى، حتى أن حاتماً الطائي - وهو جاهلي ـ يقول:

وأُعرضُ عن سبِّ الكريم ادّخارَهُ وأعرض عن شتم اللئيم تكرُّما

يقول: أنا لا أسب الكريم لأني أدخره للازمات، واللئيم يسبني لأنه ليس له عرض يصونه، فأهل الحوار السليم هم أهل العلم وأهل البصيرة وأهل العقل، والمعروف عنهم التجرد وطلب الحق، والواجب إذا أردنا أن نحاور الآخرين أن نختارهم من العلماء الصالحين المتعمقين في موضوع الحوار.

7ـ نسبة القرب والبعد من الحق :

من المهم في هذا الأصل إدراك أن الرأي الفكري نسبيُّ الدلالة على الصواب أو الخطأ، وهو يندرج تحت المقولة المشهورة (رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي الآخر خطأ يحتمل الصواب).

فالأمر نسبي، لا يشترط دائماً أن يكون التوافق مئة بالمئة: إما أن يوافقني في كل شيء فهو معي أو يخالفني فهو عدوي وأتبرأ منه. وأهل العلم لا ينكرون على من خالفهم في مسائل الاختلاف، وكن متوسطاً في اختلافك مع خصمك ،فإذا رفض يبقى كل رأيه في المسائل التي تقبل الخلاف، فالألوان ليست أبيض أو أسود فقط، بل فيها رمادي وبنفسجي، وكذلك النسب مئة بالمئة أو صفراً بالمئة، يوجد ستون بالمئة، وأربعون بالمئة فمنهم من يقترب، ومنهم من يبتعد، وإن ظفرت بعشرة في المئة فأنت الرابح ؛لان بعض الناس يريد أن يحقق في إعماله الدعوية الرقم النهائي، وهذا ليس صحيحاً، بل اقبل باليسير وما تعسَّر فاتركه.

وبناء عليه؛ فليس من شروط الحوار الناجح أن ينتهي أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر. فإن تحقق هذا واتفقنا على رأي واحد فنعم المقصود، وهو منتهى الغاية. وإن لم يكن فالحوار ناجح إذا توصل المتحاوران بقناعة إلى قبول كلٍ من منهجيهما؛ يُسوَّغ لكل واحد منهما التمسك به ما دام أنه في دائرة الخلاف السائغ.

8ـ التسليم بالنتائج :

الرضا والقبول بالنتائج التي يتوصل إليها المتحاورون، والالتزام الجادّ بها، وبما يترتب عليها. وإذا لم يتحقق هذا الأصل كانت المناظرة ضرباً من العبث الذي يتنزه عنه العقلاء.

فإذا توصل المتحاورون في حوارهم إلى أمور، فعلى المغلوب أن يسلّم للغالب، وهذا من طَلب الحق. فالذي يريد الحق يسلّم بالنتيجة، ومن يكابر فهو لا يريد الحق ، ولا يريد أن ينصاع له، فالتسليم بالنتائج واجب ، سواءً على المحاوِر ، أو على المحاوَر، وهذا يسهل الاتفاق، ومن رأى أن يتقوى في الحوار فليتفق هو ومن يحاوره على مسائل خلافية، ويكون القصد هو الوصول للحق، بشرط: إذا كان الحق معي وظهر ذلك لك فعليك أن تتبعني، وإذا كان الحق معك اتبعتك.

أدب الحوار: إن الحوار ولين الكلمة وسماع الناس يتيح لك القبول من الآخر واكتساب احترامهم:

1ـ المحاورة بالحسنى:

ومن آداب الحوار كما يقول العلماء أن لا تتعرض لمن تحاوره بشخصه أو نسبه وحسبه وأخلاقه، وإنما تحاوره على القضية موضوع الحوار، لان بعض الناس يترك الكلام ويتهجم على خصمه المحاور أمامه، بل إن عليك أن تعرض تماماً عن كل كلام آخر إلا عن المسالة التي أمامك، والمحاورة بالتي هي أحسن (وجادلهم بالتي هي أحسن).[النحل:1257].

ومن الأفضل أن تختار لخصمك لقباً أو كنية ولو كان مخالفاً لك فتقول: يا أبا فلان! وتعطيه من الكلام المبجل المحترم الذي يليق بالناس، فمن احترم الناس احترموه، يقول بعض العوام العقلاء في المحاورة الشعرية أو القصائد: خصمك كالقنفذ فإذا أصبحت عند جحره أخرج لك إبَرَه التي فيه مستعدا لمقاومتك وإذا نهنهته ودعوته بالحسنى خرج واستقر وتشمس وأحس بالدفء معك. فهذا مثل المحاوَر.

فكر جيداً قبل أن تتكلم، ولا يكن همك مجرد الكلام، فالكلام عملية سهلة إذا نظرنا إليها كحركة ميكانيكية للسان، ولكن كل كلمة تتفوه بها لا تستطيع أبداً أن تستعيدها، فزن الكلام جيداً قبل النطق به، فحديث الإنسان ترجمان عقله ودليل فضله. تكلم بترو واتزان ، وخير لك أن لا تتكلم من أن تثرثر كثيراً بلا معنى ، قال سليمان الحكيم: "صاحب المعرفة يضبط كلامه، وصاحب الفهم وقور الروح"."يصمت البليد فتحسبه حكيما ، ومن ضم شفتيه تحسبه فهيماً " (أم 17: 27، 28). - لا تتكلم بحدة أو بصوت مرتفع، بل تكلم بصوت منخفض بقدر ما يسمعك سامعك، لأن الكلام بصوت عال أكثر مما يجب أمر لا يتفق مع الاحتشام. ويقول سليمان الحكيم:"الجواب الرقيق يصرف الغضب والكلمة الموجعة تثير السخط".

من حقنا جمعياً أن نختلف في الرأي، فالاختلاف في الرأي علامة صحة، وليس علامة مرض، ولكن لنظل دائماً أصدقاء، فالمثل الحكيم يقول: "الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية"، وليكن هذا الاختلاف على مستوى التنوع الذي يغني الفكرة ويثري المسيرة، وليس اختلاف تضاد وتنازع وإنهاك.

يقول إسحاق نيوتن: كل فعل له رد فعل يساويه في القوة ويعارضه في الاتجاه، فلذلك كل إنسان تحاوره ترفع صوتك يرفع صوته، ويوم تحترمه يحترمك، ويوم تكنيه يكنيك، فبقدر ما تحترم الناس يحترمونك. يقول أبو تمام:

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوءة اللقبُ

كذلك أُدبتُ حتى صار من أدبي أني وجدت ملاك الشيمة الأدبُ

وكنى النبي ﷺ صهيبا بأبي يحيى، وكنّى عليا رضي الله عنه بأبي تراب إلى كنيته بأبي الحسن، وكانت أحب كنيته إليه، وكنى أخا أنس بن مالك وكان صغيرا دون البلوغ بأبي عمير.

2ـ الإنصاف في الوقت:

فإذا حاورت أنسانا لابد أن تتفق معه على توزيع الوقت له خمس دقائق ولك خمس دقائق أو له نصف ساعة ولك نصف ساعة، ولا يقاطع أي منهما الآخر وتسمع مني حتى انتهي وكذلك أسمع منك حتى تنتهي. لان بعض الناس ظالم وجائر، يتكلم ولا يترك للآخر مجالاً لتتكلم، وإذا أردت الكلام تكلم هو، وهذا من أدب الحوار، بحيث ينصت الواحد منهم للآخر حتى ينتهي ولا يقاطعه أبدا.

ينبغي أن يستقر في ذهن المُحَاوِر ألا يستأثر بالكلام، ويستطيل في الحديث، ويسترسل بما يخرج به عن حدود اللباقة والأدب والذوق الرفيع .

يقول ابن عقيل في كتابه فن الجدل : (وليتناوبا الكلام مناوبة لا مناهبة، بحيث ينصت المعترض للمُستَدِلّ حتى يفرغ من تقريره للدليل، ثم المُستدِلُّ للمعترض حتى يُقرر اعتراضه، ولا يقطع أحد منهما على الآخر كلامه وإن فهم مقصوده من بعضه).

ومن المفيد أن تعلم؛ أن أغلب أسباب الإطالة في الكلام ومقاطعة أحاديث الرجال يرجع إلى ما يلي:

1 - إعجاب المرء بنفسه .
2 - حبّ الشهرة والثناء .
3 - ظنّ المتحدث أن ما يأتي به جديد على الناس .
4 - قِلَّة المبالاة بالناس في علمهم ووقتهم وظرفهم .

والذي يبدو أن واحداً منها إذا استقر في نفوس السامعين كافٍ في صرفهم، وصدودهم، ومللهم، واستثقالهم لمحدِّثهم.

3ـ حسن الإنصات:

كما تطلب من محاورك أن يحسن الإنصات، والاستماع إليك – وهو من الأدب – فعليك أن تستمع له إذا حاورك؛ لان بعضهم ينقصه حسن الإنصات، وحسن الإنصات من حسن الخلق، يقول أبو تمام يمدح الخليفة المتوكل :

وتراه يُصغي للحديث بقلبه وبلبِّهِ ولعله أدرى به!

ويقول احد العلماء: إني كنت أنصت للحديث وقد سمعته عشرات المرات كأنني سمعته لأول مرة، وهذا من الأدب، فإذا قص عليك إنسان قصة قد سمعتها من قبل فلا تشعره بأنك قد سمعتها،

بل أظهر له أنك لم تسمعها وأنك معجب بها، وإذا قال بيت شعر معلوماً لديك، فأظهر له أنك احتفيت به، فهذا من حسن الخلق، لان بعض الناس عبوس لا يريد إلا الذي عنده، وبعضهم إذا تكلمت لا ينصت لك أبدا، فتراه شارد الذهن، وهذا ليس من الاحترام، فمادامت تحاور فأقبل بقلبك وبعينيك إلى من تحاوره؛ ليعلم أنك تحترمه، وأنك تريد الحق.

المحاور الجيد يستمع باهتمام ويركز انتباهه كاملاً في المتكلم، ولا يبعثر اهتمامه هنا وهناك، كما يصغى إلى الكلام الملفوظ وغير الملفوظ، ففي بعض الأحيان لا يستطيع المتكلم أن يقول كل شيء علانية ولكن تلميحاً، وعلى المستمع أن يكون لماحاً، فالمثل يقول: "اللبيب بالإشارة يفهم". كما يجب أن يلاحظ في وعي الإشارات والإيماءات، فعلماء الاتصال يقولون إن الرسالة تصل إلى المتلقي حسب مضمون الكلام ونغمة الصوت وملامح الوجه.

حسن الإصغاء، ومن فوائده:

أ - إنه خطوة نحو الكلمة الصائبة لاختيارها.

ب - يزيد العلم ويعلّم المرء الحلم.

ج - الصمت بريد السلامة: "رحم اللّه امرءاً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم".

أما الإصغاء فهو أدب عظيم، وتقول العرب: رأس الأدب كله الفهم والتفهم والإصغاء إلى المتكلم.

وجاء في كتاب "الياقوتة" في العلم والأدب: "من حسن الأدب ألا تغالب أحداً على كلام، وإذا سئل غيرك فلا تجب عنه، وإذا تحدث بحديث لا تنازعه إياه، ولا تقتحم عليه فيه"، وقال أحد الحكماء: "أنصف أذنيك من فيك، فإنما جعل اللّه لك أذنين وفماً واحداً لتسمع أكثر مما تقول"... لقد أعطانا الرب أذنين وفماً واحداً، ليكون الإنسان "مسرعاً في الاستماع مبطئاً في التكلم" (يع 1: 19 - .أعلم أن الناس يحتاجون دائماً إلى أذن عطوفة أكثر من حاجتهم إلى كلمة مبهجة.

- لا تنشغل أثناء استماعك في تحضير الرد على من يحدثك.

- لا تقاطع المتكلم وأعطه فرصة ليكمل حديثه، ويقول ما عنده. - لا تتصيد الأخطاء لمن يحدثك. - إذا سئل غيرك فلا تجب عنه. - أنصت كثيراً قبل أن تتكلم، فإنك لو قضيت وقتاً أكبر في الاستماع ومعرفة الحقائق، فسوف تجد أخيراً شيئاً ذا قيمة تقوله.

فيطلب حُسن الاستماع ، واللباقة في الإصغاء ، وعدم قطع حديث المُحاور . ومن الخطأ أن تحصر همَّك في التفكير فيما ستقوله، ولا تُلقي بالاً لمُحدثك ومُحاورك، وقد قال الحسن بن علي لابنه، رضي اللّه عنهم أجمعين: (يا بنيّ إذا جالست العلماء ؛ فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلَّم حُسْنَ الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، ولا تقطع على أحد حديثاً – وإن طال – حتى يُمسك).

ويقول ابن المقفع: (تَعلَّمْ حُسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام؛ ومن حسن الاستماع: إمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه. وقلة التلفت إلى الجواب. والإقبال بالوجه. والنظر إلى المتكلم. والوعي لما يقول).

لا بدّ في الحوار الجيِّد من سماع جيِّد؛ والحوار بلا حُسْن استماع هو (حوار طُرْشان) كما تقول العامة، كل من طرفيه منعزل عن الآخر.

اتجه بجسمك كله لمن يتحدث لك، فإن لم يكن، فبوجهك على الأقل، لأن المتحدث يتضايق ويحس بأنك تهمله إن لم تنظر إليه أو تتجه له.

4ـ **لا تفسر كلام المتحدث من وجهة نظرك**، بل حاول أن تتقمص شخصيته وأن تنظر إلى الأمور من منظوره هو لا أنت، وإن طبقت هذه النصيحة فستجد أنك سريع التفاهم مع الغير.

بعد أن ينتهي المتكلم من حديثه لخص كلامه بقولك : أنت تقصد كذا وكذا.... صحيح؟ فإن أجاب بنعم تتحدث أنت، وإن أجاب بالنفي فاسأله أن يوضح أكثر، وهذا خير من أن تستعجل الرد فيحدث سوء تفاهم .

حاول أن تتوافق مع حالة المتحدث النفسية، فإن كان غاضباً فلا تطلب منه أن يهدئ من روعه، بل كن جاداً واستمع له بكل هدوء، وإن وجدت إنساناً حزيناً فاسأله عمّا يحزنه ثم استمع له لأنه يريد الحديث لمن سيستمع له .

عندما يتكلم أحدنا عن مشكلة أو أحزان فإنه يعبر عن مشاعره؛ لذلك عليك أن تلخص كلامه وتعكسه على شكل مشاعر يحس بها .

وتجنب الهزل في الحوار ، والتعليق ، والتنكيت ؛ لأن ذلك قد يُحمَل على انك تحتقر خصمك، وأنك لا تريد الوصول إلى الجدِّ والحق.

5ـ احترم المحاوَر:

احترام شخصية المحاور: ونعني ملاطفته لتجنب عداوته أو تخفيف حدتها، وألا نستهين به ابتداءً لأن الاستهانة تضعف الحجة وتثير الخصم. كذلك يجب الانتباه له، وعدم الانصراف عنه في أثناء حديثه، وأن نفسح المجال له لإبداء رأيه.

- في الحوار الفعال يجب أن يؤكد كل طرف للآخر مدى احترامه وتقديره، وهذا الاحترام لابد أن يكون عملياً قبل أن يكون شفهياً، وكلما أبدى المحاور مودة أكثر واحتراماً أعمق للطرف الآخر كان استمرار الحوار أكثر نفعاً وفائدة. لذا علينا تحاشى أي تحقير للطرف الآخر وتجنب السخرية والاستهزاء والألفاظ البذيئة.

6ـ المرونة في الحوار وعدم التشنج:

ينبغي مقابلة الفكرة بفكرة تصححها أو تكملها، وقبول الاختلاف، والصبر على فكرة المحاور حتى لو اعتقدنا خطأها منذ البداية، وهذا يؤدي إلى ترجمة التواضع، وعدم الاستعلاء على الخصم وفكرته.

وقد ذكرت أن الحق ليس بالصراخ؛ لأن بعضهم عنده فن في الزعيق والصراخ إذا فقد الحجة، أما صاحب الحق فيتكلم باطمئنان وبأدلة ميسرة، وبصوت هادئ وقور، وكما يقول لقمان عليه السلام: (واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) [لقمان:19].، ويقول عليه الصلاة والسلام : " ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان".

يقول سبحانه: (فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لَهُمْ ولَو كُنتَ فظاً غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ). [آل عمران:159]، وكان رسول الله يأمر أصحابه بأن يكونوا مبشرين لا منفرين ، وميسرين لا معسرين .

فلا تظهر لخصمك انك تحطمه تحطيماً، وتلقي عليه بالكلام الجاف الذي لا يليق به، يقال إن عيسى عليه السلام رأي كلباً تزاحم في طريقه، وأراد عيسى عليه السلام أن يدخل من الطريق، فقال عيسى للكلب مرّ بسلام ! قالوا: يا روح الله تقول للكلب مرّ بسلام ! قال: لا أريد أن أعود لساني البذاءة ولا الفاحش البذيء ". فالمحاور يجب أن يكون مثل النخلة ترميه بحجر فيرد عليك رطباً، وفي القرآن الكريم (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما). [الفرقان:63]. وانظر إلى حاتم الطائي الجاهلي ، فقد كان دستوره الأخلاق بالفطرة؛ يقول

وكلمة حاسدٍ من غير جرم سمعتُ، فقلت مُرّي فانفذيني
وعابوها عليَّ ولم تعبني ولم يندَ لها أبداً جبيني

فمن سبك فسامحه وقل:سلاماً؛ فإن الله سوف يعوضك بالمكانة والعزة، ويدافع عنك، لان الله يدافع عن الذين آمنوا ، والناس يقفون مع المشتوم ولا يقفون مع الشاتم. وفي سيرة الإمام الزاهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز– أنه قام يصلي الليل في مسجد بني أمية، وكان حينها خليفة المسلمين ويحكم اثنتين وعشرين دولة، وكانت السرج مطفأة، فداس برجله رجلاً نائماً فقام النائم وقال: أحمار الذي وطأني؟ قال : لا، أنا عمر بن عبد العزيز ولست حماراً !.

يقول سليمان الحكيم : "الجواب الرقيق يصرف الغضب والكلمة الموجعة تثير السخط " (أم 15:1)

7ـ اختيار المكان المناسب للحوار:

والأحسن أن يكون الاجتماع في حلقة ضيقة من أهل العلم والرأي السديد والرشد، ولا يكون في مكان عام : (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم من بين يدي عذاب شديد). [سبأ:46].

والمقصود إن يجلس الإنسان منفرداً ويفكر، لأنك إذا فكرت وحدك هدأ ذهنك ، وعاد لك الرأي ، وفكرت في القضية؛ ووضحت لك الصورة ، أو اثنين اثنين، (مثنى وفرادى). [سبأ: 46]، أنت وزميلك على حدة، ولذلك يستحب أن يكون الحوار في مكان مهيّأ يجتمع فيه أهل الرأي والعلم، وأهل الرشد والبصيرة، ولا يجتمع في الأماكن العامة، فيدخل الكبار والصغار والحمقى، فتحصل أمور منكرة، ثم لا يكون حوار بل شغب وفوضى ! هذا ليس محموداً .

8ـ تجنب سرعة الاستنتاج :

- تجنب سرعة الاستنتاج فكثيراً ما تكون هي السبب وراء عدم فهمنا للقصد الحقيقي للمتكلم، لذا قال سليمان الحكيم "من يجيب عن أمر قبل أن يسمعه فله حماقة وعار" (أم18 :13).

الخاتمة:

إن تنمية نهج الحوار يساعد الإنسان على إنماء معارفه وطاقات التفكير لديه والتعامل الناجح مع الناس وهذا ليس بالأمر الممكن إنجازه بين عشية وضحاها أو بمجرد التمني أو بإصدار قرار أو بجهد اتفاقي أو عشوائي من قبل طرف أو آخر ، بل يتطلب الأمر اهتماماً واسعاً وجهداً علمياً جماعياً ومنظماً ومؤسساتيا يجمع وينسق بين الجهد الرسمي والشعبي والجهد الفردي والجماعي، ويشمل جميع مستويات الحوار ، ويستهدي ـ في مختلف مستوياته ـ باستراتيجيات شاملة تتناغم مع بعضها البعض .

إن الحوار وما أحاط به من مغالطات ومهاترات، من قبل محاورين غير مؤهلين، ودون مستوى ما تقتضيه القضية، لتخليص أبناء شعبنا من الفقر والتخلف والتبعية ومكامن الهجوم الاستعماري المركب على أمتنا ووطننا شوه صورة الحوار الوطني.

لابد للحوار من أن ينفتح على الواقع بشكل صحيح وصريح بالتحليل الموضوعي النقدي للخطاب السائد، من كل الأطراف، من اجل بيان آلياته وكشف أغاليطه، وأساليب المغالطة والضحك على المواطنين، ومساعدتهم لتكوين وعي بهذه الأساليب، وتكوين مناعة ذاتية لديهم تكشف الخداع، وتتعامل مع أصحابها بنقيض قصدهم.

وينبغي، في هذه المرحلة التاريخية التي تمر بها أمتنا العربية، أن ينخرط المثقفون والعارفون ببواطن الأمور ويتحملوا مسؤولياتهم في حماية الديمقراطية الجنينية، وعدم استغلالها لغايات رخيصة ومضمرة.

في وقت تفجرت به مجموعة كبيرة من الفضائيات العربية، المستقلة والمرتبطة، التي تبث برامج وحوارات سَاعِيَةً بكل الوسائل لتأويل الماضي الوطني والقومي والديني، وتشويه التجارب الماضية لمصلحة أطروحات سياسية صريحة أحيانا وضمنية أحياناً أخرى، وفي عمليات التأويل هذه تمارس كل الإنزلاقات الخطابية، التي تضع المواطن العربي مستهلكاً فقط من دون مناعة أو قدرة على كشف الخدع والأضاليل لعدم تسليحه فكرياً ليكشف الزيف.

يضاف إليها الركام من الصحف والمجلات التي تسمى بالمستقلة لكنها في حقيقة الأمر مرتبطة، تعتمد في غالبتها على اللعب بعواطف الناس وإثارتهم دون اعتبار أو احترام للحقيقة. وفي ذلك إفساد للمواطنين وللديمقراطية المطلوبة. معتمدة على تمويل خارجي من جهات رسمية أو غير رسمية لاستغلال وسائل الإعلام في التأثير على الرأي العام برسائله الموجهة، للقيام بأفعال مدفوعة بمصالح سياسية.

إن موضوعية الصحافة، وعدم إدخال وجهة نظر الصحافي في الموضوع المراد بحثه تعدّ مطلباً أساسياً وإلا كان " الانحياز " بعداً عن الهدف من البحث. فهل في إمكان الصحفي أو في مصلحته أو مسئوليته أمام القارئ الابتعاد عن الموضوعية؟.

وهل الصحفي مرآة للمجتمع ، يعكس ما فيه من إيجابيات وسلبيات، بدون إضفاء لمسة من قبله تضيف لتلك الإيجابيات أو السلبيات؟ أم أن الصحافي يجب أن يعمل كما يُمليه عليه ما يسمى بـ"أخلاق المهنة " بعدم تحريف المعلومة؟.

أجمعت أغلب البحوث على الدور المتعاظم لشبكات التواصل الاجتماعي ـ كأبرز وسائل الإعلام البديل أو الجديد ـ بالتحولات السياسية في البلدان العربية. فأشارت إحدى الدراسات إلى أن استخدام الإنترنت بوجه عام، والشبكات الاجتماعية بوجه خاص، قد أسهمت في إيقاظ الوعي العربي، حيث سمحت الشبكات الاجتماعية لملايين من الأفراد – ولأول مرة – بتنظيم تحركاتهم بسرعة ومهارة ومرونة تفوق بكثير الأبنية والأنظمة السياسية والاجتماعية والإعلامية التقليدية.

نخلص إلى أنّ هناك تفوقاً واضحاً للشبكات الاجتماعية في تكوين آراء الجمهور نحو الثورات العربية، نتيجة لسماح هذه الوسائل بحرية أكبر بكثير من الوسائل التقليدية، وقدرتها على تحقيق المشاركة بفاعلية. وبالتالي، فإن هناك حاجة ملحة لوسائل الإعلام التقليدية إلى أن تراجع أداءها المهني، في ضوء المعدل المتسارع لانسحاب الجمهور منها، واتجاهه نحو الشبكات الاجتماعية والوسائل الحديثة، مما يفرض عليها العمل معاً، والبحث عن طرق خاصة لتطوير أدائها؛ والاستفادة من التكنولوجيا الحديثة، بدلاً من الدخول معها في منافسة غير عادلة أو متكافئة.

وتعد الشبكات الاجتماعية فرصة ملائمة لمساعدة الدول العربية في مساعيها نحو الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، من خلال التوجه برسائلها عبر هذه الوسائل، واستقطاب الشباب بوسائل واقعية وملائمة؛ تحاكي حياتهم اليومية بلغة بسيطة، بعيدة عن التعقيد والتركيب.

أخيراً مراجعة التشريعات الإعلامية التي تكبل حرية تداول المعلومات، ومراجعة أوضاع المؤسسات الإعلامية المملوكة للدولة، اقتصادياً وسياسيا وقانونياً، بحيث تكون أداة إعلام المواطن.

قال الشاعر الإيراني محمد خاقاني في قصيدة (هيا نحاور):

صَاحِبِي قَلَّ الوَفَا هيَّا نُحَاور ضَاقَ صَدْرِي وَاشْتَكَى هيَّا نُحَاوِر
صَامَ قَلْبِي صَامِتاً رَدْحاً طَوِيلاً فَاضَ قَوْلِي وَانجَلَى هيَّا نُحَاوِر
أَنْتَ بُوذِيٌّ، يَهُودِيٌّ، مَسِيحِي أَنْتَ إِنْسَانٌ سَما، هيِّا نُحَاوِر
أَيهَا النَّاسُ انتهوا مِنْ لُجَةُ الحَرْ بِ الَّتِي عَجَّتْ بِنَا، هيَّا نُحَاوِر

❑❑

السلطة والأخلاق: نحو حكومة العلماء والحكماء والقديسين

تأليف بيتريم أ. سوروكين
أوليترا أ. لونينا
عرض وتدقيق د. فريد الشحف

ترجمة:
□ د. ثائر زين الدين

تُلاحظ بشكل خاص، من بين التغيّرات المستقبليّة،ثلاثة توجهّات في تحديث الحكومات .

أولاً:متطلبات متزايدة لناحية القدرات الفكرّية والمعرفيّة للحكام ، ولحكمتهم وسعة تجاربهم.

ثانيا: متطلّبات أكثر قساوةً ،وتتعلّق (بالنقاء الأخلاقي) للقادة والنزاهة ،حيث تطلب منهم القداسة تقريباً.

ثالثاً:ضغطٌ على الحكومات بهدف استبدالِ وجهات نظرها أو رؤاها من الضيقِ العشائري أو القبلي وما شابه إلى رؤى منفتحة على الإنسانية جمعاء.

دور العلم المتزايد في الحكومة :

التوجه الأول الذي ذكرناه يتجلّى في الدور المتنامي للعلماء والخبراء في مجالات التخطيط والتطوير والرقابة وتطبيق وإدارة الجزء الأكبر من المشاريع الحكوميّة والسياسات المفتاحيّة عملياً في الحياة .

الكثيرُ من رؤساء الحكومات والشركات والنقابات العاملة

منهم رجالاً قادة حقيقيّين ذوي إرادة قويّة. هذا الحكم المؤكّد ينطبق كذلك على تلك المجموعات القياديّة القويّة جداً مثل الحكومة السوفيتّية والمكتب السياسي ، وحكومة الولايات المتحدة الأمريكيّة، وقيادة البنتاغون. قد يتراءى للملاحظِ غير الدقيق أن القادةَ الأقوياء هم الذين يحدّدون مسار التاريخ حسب ما يرونَهُ مناسباً،إلا أن التحليل العميق يُظهر أن الجزء الأكبر من سياساتهم وأفعالهم ليست أكثر من تنفيذ الأوامر(الصامتة) الصادرة عن آخر الابتكارات والاكتشافات العلميّة. التي حذفت المعارف التي حَصَلَ عليها القادة منذ عقدين أو ثلاثة عقود في أثناء إعدادهم للقيادة، وحذفت في الوقت نفسه خطط الماضي القريب، وبهذا الشكل فإن القادة الحاليين يمارسون سياسة لا يعرفونَ ماهيتها.قناعتهم المسبقة فيما يخصّ استخدام الأسلحة النوويّة والصواريخ والأقمار الصناعيّة والاختراعات العلميّة الأكثر تطوّراً تؤكد ما ذكرناه آنفاً. لم يعلّمهم أحد أثناء الدراسة والنشاط الاختصاصي المبكّر مثل هذا النموذج من الأساليب السياسية والدبلوماسيّة والعسكرية.

لم يكن ترومَن ولا ستالين ولا إيزنهاور ولا خروّشوف والقيادات العسكرية العليا المختلفة يتوقعون قبل عام 1940السياسية النوويّة والهيدروجينية وغير الدنيويّة التي يمارسها الحكام المُعاصرون ، لقد أخبرتهم تلك الإنجازات العلمية الهائلة أن يعيدوا النظر جذريّاً بمخططاتهم، وأن يستبدلوها بسياسةٍ اقتصاديةٍ وعسكريةٍ ودبلوماسيةٍ جديدة... إلخ وفي هذا السياق فإن رجال الدولة والسياسيين الحاليين ينفذّون أكثر فأكثر وبصمت الأوامر التي يقدمها لهم العلم.

إن هذهِ "الأوامر" يقدّمها لهم في العادة الخبراء العلميّون والمستشارون، واللجان المختلفة فمن المعروف اليوم أن حول القيادات العليا للحكومات المختلفة توجَدَ عملياً لجانٌ علميةٌ هدفها إعداد التوصيات في التوجّهات الرئيسة لتنفيذ هذا الخط السياسي أو ذاك.

نادراً ما يقرّرُ القادةُ طرحَ رؤاهم أو تصوّراتهم الجديدة قبل إجراء استشارات مسبقة مع اللجنة العلميّة المختصة. مع العلم أن توصيات تلك اللجان العلميّة ليست نظرياً أكثر من نصائح ،لكن عملياً يتم اتباع تلك النصائح أكثر بكثيرُ من إتباع قرارات السياسيين أنفسهم. إن الحقيقة العلميّة التي تقدم وبغضّ النظر عن طبيعتها الاستشاريّة وغير الملزمة:هي مهيبة لا تُقْهَر،

أكثر من أية أوامر لحاكم مستبد. ولهذا السبب يتبع القادة التوصيات الدقيقة للعلوم الفيزيائية والبيولوجية أكثر مما يفعلون فيما يخص ما يقدّمه الخبراء في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة الأقل "دقة ". وعلى العموم فإن الجزء الأكبر من وظائف أو مهمّات السلطة بالنسبة للسياسيين الحاليين لا يزيدُ عن كونهِ تنفيذاً لأوامر العلم والتكنولوجيا فقط. وهناك من الحقائق ما يدعو للاعتقاد بأن هذا التوجّه سيزدادُ قوّةً حتى تبتلع وظائف الحكومة تماماً.

ينذر مثل هذا التوجه بقرب الاختفاء النهائي " للسياسيين الحكوميين " الموجودين حتى الآن، واستبدالهم "بحكومات العلماء والخبراء " وسيصبح القائد السياسي أقرب إلى الدمية أو إلى مجرد العمل الوظيفي.

لا يمتلك معظم السياسيين المعاصرين ورجال الدولة إعداداً علمياً كافياً، ربما باستثناء بعض المعارف في القوانين التطبيقيّة ومعرفة سطحية بمواد ((نصف علمية)) كالسياسة والاقتصاد ، وجلهم يعرفون بصورة سيئة النظريات الاقتصادية والسياسية والنفسية والاجتماعية والقوانين التطبيقيّة. لقد كانت حكومة السياسيين هي الشكل الوحيد المتاح للإدارة أو القيادة عندما كان العلم في الماضي غير متطوّر بما فيه الكفاية. أما اليوم فقد أثبتت النجاحات العظيمة للعلوم الطبيعية، وبدرجة أقل العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة الجديدة إفلاس السياسيين – الحكام الذين يجب - نظرياً – أن يعرفوا كل شيء عن أي شيء أما في الواقع فهم لا يعرفون شيئاً.

عندما تتقادم الحكومات أو النظام السياسي، فإنهما محكومان بالنسيان وقد بدأ التاريخ يكتب مأساةً مشوقةً " موت السياسي " تشبه كثيراً العمل الأدبي المعروف "موت التاجر - Death of a Salesman ". إن هذا التوجّه ذو عواقب مؤثرة جداً بما يعنيهِ من تغيراتٍ جديّة في بناءِ، وتركيبةِ ووظائف النخبة الحاكمة في الدولة، والشركات، والنقابات، والمؤسسات المماثلة المؤثرة – وهذا على سبيل المثال يستدعي تغيّراتٍ جديّة في الحقوق الدستوريّة والقوانين التي تحدّدُ أشكالَ الوراثة والانتخابات والتنصيب الذاتي للحكام. فعوضاً عن التقييدات الاعتياديّة للتصويت، والتعيين أو لاختيار الوظيفة بناءً على معايير أو مؤشرات قوميّة أو وطنية، أو عرقيّة، دينيّة، الوضع المادي، المواطنة – فإن القوانين الجديدة ستتطلّب من المصّوتين والمرشحين لمهمّات أو مناصب معيّنة مستوىً جيّداً، بل معرفةً عميقةً في مجال الإدارةِ والقيادة. ومن الممكن جداً أن يتمّ استبدال قانون الانتخابات العام للناس جميعاً بأن يطرح التصويت على لجنة محدّدة من الخبراء فيتم اختيار المؤهلين لإشغالِ مناصب قياديّة عليا.

إن المتطلّبات المتزايدة على الإعداد العلمي العالي للقياديين يمكن لها في النهاية أن تُلغي تماماً عملية نقل العروش أو المناصب القياديّة العليا بالوراثة، ولمن هو غير مؤهّل حتى ولو كان ذلك من حقّهِ منذ الولادة.

و بقدر ما يشتد هذا التوجه ويزداد قوة فإن بنية، وتركيبة ووظيفة الحكومة ستتغيّر بشكل جذري. في حكومة العلماء لن يبقى للقادة السياسيين حظٌ في أداء دور مهم.

أما الآن فما علينا إلا أن نتمنى لهم مزيداً من التمتع بوضعهم طيلة الوقت الذي سيستمر فيه النظام العالمي الحالي. وبعد عقودٍ معدودة ستصبح حكومة السياسيين من أجل السياسيين ولهم ظاهرةً نادرة كالفيلة البيضاء.

و ستحتل مكانها حكومة العلماء والخبراء ؛ لكن هل من المعقول أن تتحول هذه الحكومة بدورها إلى حكومة طغموية من العلماء وبالعلماء ولهم.

وسنناقش هذه المسألة في القسم الثاني

2 ـ حكومة العلماء

هل يمكن مثلاً أن تصبح حكومة العلماء حكومة طغموية " بالعلماء ولأجلهم " (كما كان الأمر في حكومة السياسيين، بهم ومن أجلهم)؟

من الصعوبة تماماً أن تتمكن حكومة علماء طغمويّة أن تعيش طويلاً، كما تقترح على البشرية مجموعة من أفضل الأنظمة السياسية.

إن حكومة من هذا النوع لا تستطيع أن تحمينا من الحروب اللامتناهية، ولن تتمكن من بناء سلامٍ أبديٍ، وتحقيق انسجامٍ مجتمعيٍ شامل.

إن العلم والتكنولوجيا في صيغتهما التجريبية – محايدانِ أخلاقياً واجتماعياً – وأي اختراع علمي تقريباً يمكن أن يستخدم لأهدافٍ نبيلةٍ ولمنفعة البشر، مثلما يمكن استخدامه باسمِ الشر.

الطائرة يمكن استخدامها لقصف السكان المسالمين كما يمكن استخدامها أيضاً للقيام بمهمة خيرية.

و اكتشاف الطاقة النووية واستخداماتها يمكن أن توجه لهدف تدمير البشرية، مثلما بالإمكان توجيهها لخدمة الاحتياجات السلمية للناس.

العلماء بدورهم مثلما خدموا سابقاً ويخدمون اليوم الأهداف النبيلة، كذلك تجدهم يخدمون أهدافاً دنيئة، وفي نهاية المطاف نستطيع أن نقول: إن معظم الاكتشافات والابتكارات الهدّامة ابتداءً من أسلحة العصر الحجري انتهاءً بالقنابل النووية الحديثة، والغازات السامة، والأسلحة الجرثومية والصواريخ... إلخ صنعها علماء متخصصون أو صناع مهرة تعلموا بأنفسهم.

وعلى مدى تاريخ البشرية كله وُجِدَ علماء ومخترعون معروفون ومجهولون عملوا عن قصد في خلق ابتكارات هدَّامة ومميتة وضد البشر - وقد فعلوا ذلك لأجل أنفسهم أو لأجل الدفاع عن مجتمعاتهم، أو بأوامر من السلطات العسكرية. المثال الساطع الكلاسيكي لهذا النوع من العباقرة هو ليوناردو دافينشي في تلك المرحلة من حياته عندما خدم الأهداف الدنيئة لِـ تشيزاري بوردج.

و في عصرنا لا نلاحظ نقصاناً في عدد العلماء والمخترعين بل العكس وبالتالي فالطريق نحو إدخال أنواع جديدة من وسائل التدمير مفتوحة للحكومات والشركات الخاصة. ولا سيَّما أن الكثير من هؤلاء منغمس في هذا النوع من العمل، ويفعلون كل ما في وسعهم لتحقيق أهدافهم. وفي كل الأحوال فإن عدد العلماء من هذا النوع يزداد كثيراً على عدد أولئك العلماء الذين يرفضون إجراء بحوث علمية باسم التدمير، فلحسن حظنا إذاً أنه يوجد علماء أخلاقيون، ومع أن عدد هؤلاء يزداد إلا أنهم ما زالوا باحثين قليلين ممن يتحملون مسؤولية اجتماعية ويبحثون عن الحقيقة قياساً إلى الغالبية العظمى من العلماء غير المسؤولين أخلاقياً والذين يستخدمون العلم لمنافعهم الشخصية.

إن ما يثبت حيادية العلم أخلاقياً هو غياب علاقة سببية أو إحصائيّة وثيقة بين نوعية الإنسان الأخلاقية أو جوهره الأخلاقي (أو الجرمي) وبين مستواه العلمي (المدرسي)، بين التقدم أو التطور

العلمي من جهة والحروب والثورات الدمويّة والجرائم من جهة أخرى.

لدينا في الوقت الحاضر (163000) حالة تُدرَس من وجهة نظر: هل هناك علاقة بين امتلاك المعرفة ووجود التعليم والجريمة، وجميع الحالات تثبت أن لا علاقة ثابتة أو لا ارتباط راسخ بين هذه العوامل. وإذا ما تحدَّثنا بلغةِ الإحصائيات فسنجد أن: مُعامل درجة العلاقة بين الجريمة والأمية يتراوح بين (0.09 -) و(0.24+). وبين الجريمة ومستوى التعليم يتراوح من (0.12 -)إلى (0.19+). وبين الجريمة أو الإجرام وعلامات المدرسة أو محصلة الدرجات في المدرسة من (0.46)حتى (0.52).

وبين الجريمة والمراتب العلمية حوالي (0,46-)، مع الأخذ بعين الاعتبار أن معامل درجة العلامة بين المؤشرات المذكورة ليس موثوقاً في التنبؤ أو التوقع لمستوى العلاقة التأثيرية المتبادلة بين تلك العوامل كمعامل ترابط موثوق.

إن مُعامل درجة العلاقة المذكور آنفاً يشير إلى عدم وجود تأثير متبادل واضح وقوي بين المستوى العقلي والمعرفي من جهة والإجرام من جهة أخرى [1] هذا يوضّح لماذا لا يختلفُ الملوكُ وقادة الدول العظماء والرؤساء الموهوبون عن العاديين وربما المتخلفين عقلياً من حيث السلوك الأخلاقي. بل إنَّ القادة العظماء والأذكياء أكثر ميلاً إلى التصرفات الجنائية وغير الأخلاقية من زملائهم الأقل ذكاءً، والقول نفسه يمكن تكراره بشأن أصحاب المراتب العسكريَّة العليا، وقادة الشركات الكبرى والنقابات والمؤسسات المماثلة.

لا يُقلل التقدم العلمي والتكنولوجي أبداً من عدد الحروب والثورات الدَّموية، بل يمكن رؤية مستوى قدرتها التدميرية من خلال ديناميكية تنامي الاكتشافات العلمية وعدد الجامعات من جهة، وعدد الحروب والثورات من جهةٍ ثانية ابتداءً من القرن الثاني عشر حتى القرن العشرين[2].

القرن	مؤشر حجم الحروب (محدد من حساب عدد الجرحى والقتلى لكلِ مليون إنسان من سكان أوربا)	مؤشر حجم الثورات في أوربا	عدد الجامعات والمعاهد، والمعاهد المتوسطة التقنية في العالم الغربي	عدد الاختراعات العلمية والاكتشافات
12	**من 2 إلى 2,0**	763	5	12
13	**من 3 إلى 5,0**	882	18	53
14	**من 6 إلى 9,0**	827	30	65
15	**من 8 – 11,0**	748	57	127
16	**14 - 16,0**	509	98	429
17	**45**	605	129	619
18	**40**	415	180	1574
19	**17**	766	603	8527
20	**52◆**	295	753	862❖❖

* **فقط من عام 1900 حتى 1925**

** **فقط من عام 1900 حتى 1908**

والأكثر من ذلك أن الجريمة لم تتناقص مع ازدياد النجاحات في المجال التعليمي والاكتشافات العلميّة والاختراعات منذُ القرن التاسع عشر حتى العشرين، بل حتى أنها ازدادت، وعدا ذلك فقد دلّت الإحصاءات أن الناس الأميين والجماعات والدول الأكثر أميّةً ليست أكثر اقترافاً للجنايات من تلكَ المجموعات أو الدول المتعلّمة تقنياً وعلميّاً.إن النخب المثقّفة المعروفة جيداً بعبقريتها العلميّة وبإبداعاتها تكاد خلال مئات السنوات الماضية لا تتفوق إلا قليلاً عن السكان العاديين في المجال الأخلاقي.

نحنُ نعيشُ في عصرٍ أكثر تطوراً من سابقيه في مجال الثقافة والعلم والتكنولوجيا، وفي هذا العصر بالذات تقع أكثر الحروب والثورات والجرائم دمويةً، وبعداً عن الإنسانية، بل إنها بالتأكيد أكثر إجراماً مما حدث في القرون الخمسة والعشرين التي مضت من تاريخ العالم الإغريقي – الروماني الغربي حتى الآن.

تبين محاكماتنا العقلية إذاً أن حكومة العلماء والخبراء يمكن أن تكون غير أخلاقية، وإجراميّة بالدرجة نفسها التي كانت عليها حكومة السياسيين، وبهذا الشكل فإن حكومة العلماء من الصعب أن تكون أكثر ضماناً للناس بدرء الحروب العالمية، والنزاعات الدمويّة من الحكومات الحالية المكوّنة من السياسيين الأغنياء، أو حكومات القوّة العسكريّة، وحكومات التجارة الطغموّية، ومزوري الانتخابات والحكومات الوراثيّة بإرادة اللّه، وحكومات القوّة العنيفة أو صاحبة الحظ في الوصول إلى السلطة....

إن حكومة العلماء، بالعلماء ولأجل العلماء يمكن لها أن تنهار تماماً عند محاولتها حلّ المشكلات الجديّة في المرحلة الانتقالية. ومعارف أي قائدٍ عالمٍ بمفرده – على أهميتها – هي متخصصة جداً وضيقة.

وبالتالي فمن الضروري امتلاك حكمة عظيمة قادرة على توحيد عديدٍ من الخبرات المتخصصة الضيّقة في نظامٍ موحّد واحدٍ قادرٍ على إقامة بنيةٍ اجتماعية عادلة جداً على هذا الكوكب. وبالإضافة إلى العلماء ستحتاج الحكومة العادلة في القريب العاجل إلى عدد من الحكماء، كي يتم بنجاح تنفيذ وظيفة تكامل المعارف التخصصيّة لكل عالمٍ – قائدٍ مع سواه ضمن نظام واحد.

3 ـ ضرورة وجود مبادئ أخلاقيّة عامة:

إن العلماء والخبراء العلميين – كما ذكرنا آنفاً – يمكن ألا يكونوا مثالاً حسناً للسلوك الأخلاقي العالي، ولذلك لا بدّ وأن يترافق حكمهم بمبادئ أخلاقيّة سامية وخالدة، تخدم الأهداف النبيلة لا الدنيئة، ومن دون مثل هذا " الدليل الإرشادي " فإن حكومات الخبراء العلميين قد تكون أكثر ترويعاً من حكومات السياسيين.

إن المبادئ الأخلاقيّة العامة الأزليّة كانت قد صيغت منذ زمن الوصايا التي نزلت في طور سيناء وما بعدها من المواعظ الأخلاقيّة والتعاليم الروحيّة والدينيّة.

الكثيرون ينظرون إلى هذهِ المبادئ كتجسيدٍ للقانون الطبيعي أو للقوانين الإلهيَّة هذهِ المبادئ الأخلاقيّة تدخُلُ في كل القوانين الجزائية المعروفة حالياً (ابتداءً من القوانين الأولى التي عرفتها البشرية مثل شريعة حمورابي وكذلك الأعراف المصريّة القديمة، وانتهاءً بالقوانين الجزائيّة المُعاصرة، المطبّقة في وقتنا الحالي. كما ظهرت مجموعة تابوات (محظورات) قانونيّة وأخلاقيّة عند جميع التجمعات البشريّة البدائية وفي خلافٍ واضحٍ مع الاعتقاد عند الجميع بالوصايا المُنزلة أخلاقيةً كانت أو قانونيّة يشيرُ بحثٌ تفصيلي في هذا السياق إلى أنهُ جنباً إلى جنب مع القوانين والقواعد المحليّة المتغيرة دائماً والتي تأتي في الدرجة الثانية فإن الديانات العظيمة، والأنظمة الروحية المتّورة، والقوانين الجزائية والتابوات الأخلاقيّة، والتقاليد الملزِمة للشعوب البدائية، ونظريات القانون الطبيعي – تمتلكُ عدداً من القواعد القانونيّة والأخلاقيّة غير القابلة للتغيّر، بل الأبديّة – إن صح التعبير – والعامة الناظمة للسلوك، كالوصايا المسيحيّة العشر. العنصر الوحيد المتغيّر في مثلِ هذهِ المبادئ الأبديّة كان دائماً حجم الجماعات التي طبقت هذهِ القواعد وآمنت بها. وهكذا فإن الوصيّة: " لا تقتل "، التي يمكن إيجادُها في القواعد الأخلاقيّة كلها، والقوانين التشريعيّة، وفي المحظورات، وتقاليد المجتمعات جميعها تُعدُّ مبدأً أبدياً وعاماً وهي في مصطلحات القانون الروماني: " quad natura omnia animalia docuit "

وقد قال شيشرون في هذا السياق:

" aetenum quiddam quad universum regeret imperandi prohibendque sapientia " إن هذا المبدأ يطبقُ على أفراد المجتمع فيما مضى وعلى الجماعات الموجودة حالياً، أي سواءَ كان المجتمع بدائياً أو قبيلة ما أو أسرة أو تجمّعاً أو مدينة أو دولة أو جماعة دينيّة وروحيّة، وسياسيّة واقتصاديّة وما إلى ذلك. وحتى الزمن الراهن لم تنتشر هذهِ الوصايا ولم تطبق خارج إطار مجموعة معيّنة أو لنقل قبيلةّ، ومع ذلك تبقى هذهِ المبادئ فعّالة بالنسبة للناس جميعاً، أولئك الذين يرغبونَ باتباع القواعد الأخلاقيّة الحقيقية، تماماً مثل " اثنان + اثنان = أربعة " الحقيقة الرياضية التي لا تتغيّر!ما الذي تغيّر إذاً في هذهِ المحاكمات العقليّة؟ الذي تغيّر هو العامل الخارجي وظروف تطبيقها. لم يعرفها أو يعيها الناسُ جميعاً. بعض الأفراد والجماعات لم يفهموها بشكلٍ صحيح، ولم يطبقوها بشكلٍ صحيح أيضاً، عددٌ آخر من الناس خَرَق تلكَ الوصايا والمبادئ عن قصد. أما غالبيّةُ الناس – فقد طبقوها على جماعة معيّنةٍ (عرقيّة أو إثنيّة أو ماشابه)، على عشيرة ما أو على عددٍ معينٍ من الموضوعات الماديّة.

والقول نفسه يمكن أن نقوله فيما يتعلق بالأوامر الأخلاقيّة الأساسيّة والمبادئ القانونية (3)،

فهي عامة وأبديّة لا تتغيّر بالنسبة لجميع من يرغب باتباع تلك القواعد الأخلاقيّة وكأنها قانون أساسي في المنطقِ أو الرياضيات. وهي أيضاً عامة وأبديّة لكل من يرغب بأن يفكرّ بشكل صحيح، ويطمئن للمعرفة المؤكدّة عن الظواهر العلميّة.

أما القواعد والأعرافُ من المرتبة الثانية سواء كانت أخلاقيّة أم علميّة زمانيّة فهي أرضيّة بمعنى ما، وتتغيّر دائماً، وزد على ذلك فإن هناكَ كثيراً من الناس الجاهلين للكثير من الحقائق الروحيّة والعلميّة التي تنتهكُ دائماً عن قصد أو غير قصد. ومع ذلك فإن تلك العناصر المتغيّرة في الحقائق الأخلاقية والعلميّة والظواهر والقيم لا تُلغي قوّتها الأبديّة والشاملة. أصبَحَ التعليم العام ومعرفة المبادئ العلميّة الأساسيّة في المرحلة المعاصرة من تطور البشريّة أمراً ضرورياً وإلزاميّاً للناس كلهم. إن التعليم الإلزامي والعام يَنشُرُ بشكلٍ دائم المعرفة، والمعارف العلميّة الأوليّة. هذهِ المعارفُ القاعِديّة أصبحت اليوم مطلوبةَ الوجود ليس فقط عند الأقليّة الأوتوقراطيّة، بل عند السكانِ كافةً، وقد انتقلت عملية انتشارها من الخاصة إلى العامةِ ولتشمل البشريّة كلها.

لقد حَصَلَ مثل هذا الانتقال من المبادئ الأخلاقيّة الخاصة إلى العامة في تاريخ البشريّة.

الانتقالُ من المعرفةِ القبليّة وانتشار المبادئ الأخلاقيّة في هذهِ القبيلة فقط إلى المعرفةِ القبليّة وانتشار المبادئ الأخلاقيّة في هذهِ القبيلة فقط، إلى المعرفة العامة وتطبيق الحقائق الأبديّة على البشرية كلها احتلَ هذا الانتقال إذاً مكاناً مهماً في المجتمع الكوكبي وأصبَحَ يعبّرُ عن نفسهِ بوضوحٍ تام منذُ قرونٍ عِدّة. لقد جعَلَ تطور وسائل المواصلات ومنظومات الاتصال طوال هذهِ المدّة من الزمن البشريّةَ شديدة الارتباط بعضها ببعض، ولأوّل مرّة في التاريخ يأخذ مصطلح" البشرية " معنىً أكبر بكثير من" مجموع الأفرادِ كلهم" إنهُ يعني الآن واقعاً مُغايراً تماماً؛ إنهُ يعني بالتحديد مجموعاً موحّداً ومترابطاً بعضه ببعض بشكلٍ ملموس، الجزءُ فيه مرتبط بشدة بالنوع البشري كلّه، والنوع بدورهِ مرتبطٌ بأجزائِهِ المنفصلة. وبكلماتٍ أخرى لم تعد البشريّة تعدداً بسيطاً لمجوعات غير مترابطة بعضها بعضاً، والتي كانت غالباً منعزلة بعضُها عن بعض، ولا يعرفُ هذا الجزء شيئاً عن غيره، لقد انتقلت من تلك الصيغة إلى صيغةٍ هي أقرب إلى الجسد الموحّد الجامع لمكوّناتِهِ كلها.

إن الأخلاق القبليّة التي كانت ترتكزُ على الانتماء العرقي أصبحت في المرحلة الحالية العامة من تاريخ البشرية المترابطة فيما بينها؛ متقادمةً أكثر بكثير حتى من العلاقة القبليّة بمعرفةِ وتطبيق المبادئ العلميّة الأساسيّة.

لم تعد الأخلاق القبليّة تخدم تلكَ الأهداف التي كانت تخدمها عندما كانت البشرية غير موحّدة في تشكيلة واحدة مترابطة الأجزاء. ففي الوقت الحاضر أيُ تطوّر لمجموعة على حساب

مجموعة أخرى هو أشبه بمحاولةِ علاجِ جزءٍ ما أو عضوٍ ما من الجسد على حسابِ عضوٍ آخر. وبما أن البشرية الآن – كما قلنا – أصبحت تشكل بنية موحدّة مترابطةَ الأجزاء بصورةٍ ملموسة فإن محاولات الإصلاح (اقتصادياً أو سياسياً) للوضع الخاص داخل المجموعة، جالبة الضرر للأجزاء الأخرى من كياننا الموحد، ستؤدي لا محالة إلى نتائج هدّامة للجنس البشري كلّه. ولمجموعتنا بصورةٍ خاصة. وهذا ما ينطبقُ أيضاً على التعاملِ مع القوانين الأخلاقيّة الأبديّة العامة؛ ذلك أن هذهِ القوانين إذا ما استخدمت من قبل مجموعة ما على أساسٍ قَبَليّ فإن النتائج الهدّامة لمثل هذا السلوك القديم المندثر سترتد مباشرةً على المعتدي نفسهِ، الذي سيوجّه في الحقيقة ضربةً للبشرية كلها بشكلٍ عام.

هل حققَ أحدٌ ما في الواقع أية فوائد من حروبٍ مثل: الحرب الكوريّة، الاندونيسيّة، الإسرائيليّة العربية، البريطانيّة – اليمنيّة الخائبة! الفرنسية – الجزائريّة، أو من الحروب المماثلة " التي لا مبرر لها "؟ لقد فقد كل طرفٍ من الأطراف المتحاربة عدداً كبيراً من الموارد البشريّة، والاقتصاديّة والسياسيّة والأخلاقيّة والثقافيّة، ومن القُدرات الإبداعيّة، والنبل الأخلاقي، وكذلك الإحساس بالأمن والسعادة. لقد سقطَ ظِلُّ **تيميزيدا**[1]❖عملياً على كلِ الثوراتِ القبليّة الوحشيّة، والفتن والخلافات السياسيّة والدينيّة. وسترتَدُّ في وقتٍ قصيرٍ جداً النتائج الهدّامة لهذهِ الفظائع الداخلية على المبادرين إلى اقترافها والمشاركين فيها، وسَيَتّحولُ مباشرةً منتصرو اليوم إلى خاسرين ومهزومينَ.

وخلاصة القول: لقد كان التعليم في السابق محصوراً بالأقليّة الأرستقراطيّة، لكنّه تبدّلَ فيما بعد ليصبحَ تعليماً إلزاميّاً عاماً للجميع، كما تبدّل الاستخدامُ القبلَيَ للمبادئ الأخلاقية تدريجياً لتتحوّل إلى قوانين عامة مُلزمة للناسِ جميعاً. لم يعد هذا الاستبدالُ أو التحوّلُ ببساطة مُجرّد نيّة، بل أصبَحَ ضرورةً مُلحّةً للبشريّة.

4 ـ ضرورة القيادة الأخلاقيّة:

توضّح الحالاتُ المذكورةُ آنفاً لماذا تحتاجُ حكومةُ العلماء والخبراء إلى دليلٍ أو مرشدٍ فعال (قيادةٍ فعّالةٍ) فيما يتعلقُ بالتعاليمِ الأخلاقيّة الأزليّة العامة.

يمكن التوصّلُ إلى مثلِ هذهِ الرقابة على الحكومات العلميّة بوسائل عِدّة، وبمساعدةِ عوامل أخلاقيّة مختلفة. لقد وجدَتْ بينَ العلماءِ دوماً فئةٌ ذاتُ خصالٍ أخلاقيّةٍ كريمة، ومعظمُ هؤلاء يضطلعون بمهامهم بأخلاقيّاتٍ عالية إزاء المجتمع، متّبعين الوصايا الأخلاقيّة العامة الخالدة، رافضين أن يصنعوا أسلحةً مدمرة، ومحتجيّن دوماً ضد الحروب،

---

[1]• **تيميزيدا**: ربّةُ الانتقامِ والجزاء والعقاب في الأسطورة الإغريقيّة / المترجمان /

والنزاعات الداخلية، وضد استخدام الطاقة النوويّة لأغراضٍ عسكريةٍ، هؤلاء العلماء يقودونَ مجموعاتٍ من الناس تناضِلُ لأجل تطبيق المبادئ الأخلاقيّة الأساسيّة، وضد الشر الكبير الذي يعصفُ بالكون الإنساني، وضد التأويل غير الصحيح للوصايا الأخلاقيّة الخالدة، وضد القوانين الكاذبة، وأيديولوجيّات الانحلال الخُلُقي. يمكن لمثل هؤلاء العلماء؛ المسؤولين أخلاقياً، أعضاء الحكومة المستقبليّة، القادة ومؤسسي الرأي العام أن يسهموا بالقسط الوافر في قيادة الحكومة والمجتمع بشكلٍ عام.

إن فعّالية رقابتهم الأخلاقيّة يمكن أن تزيد من اكتشاف طرائق علميّة جديدة لتحوّل وتطوّر الإنسان أخلاقيّاً، وتطوّر الكون المُنتج(4)

يزدادُ عَدَدُ مِثل هؤلاء العُلماء يوماً بعدَ يوم وعندما سيشكلونَ الأغلبيّة الساحقة سيصبحونَ بالتأكيد إحدى الوسائل الأساسيّة في رفع الشأن الأخلاقي للبشرية. يمكن أن يقوم بالقيادةِ الأخلاقيّة والرقابة على الحكومة المذكورتين آنفاً بالإضافة إلى العلماء الخلوقين،المنظمات الدينيّة وزعماؤها، وبخاصة الأبطال المقدسين، والمعلمين الروحيين في مجال الحب غير القائم على المنفعة. لقد حققَّ القادة الروحيّون والمؤسسات الدينيّة على الدوام قيادةً روحيّة للحكومات والرؤساء ورقابةً أخلاقيّةً عليها وعليهم. كان التفوقُ واضحاً للسلطة الروحيّة على نظيرتها العلمانيّة في الثقافةِ المثاليّة أمّا الحكومات التيوقراطيّة في مثل هذهِ المجتمعات فقد تشكلت بصورة عامة من الزعماء الدينين (5). إن تأثير الزعامات الروحيّة والدينيّة في الثقافات الحسيّة والتكاملية أقل بكثير منهُ في الثقافات **المثاليّة**، ومع ذلك فهو محسوس جداً فيها. أما تأثيرُ أنصار الحب فيبقى هو الأشد سواء في المجتمع التكاملي أو الحسي.

إن سبب تراجع فعاليّة الرقابة الأخلاقيّة للزعماء الدينيين على الحكومات والمجتمع بشكلٍ عام، هو انحلالهم الروحي والأخلاقي. عندما تركزّت السلطتانِ الروحيّة والماديّة في أيديهم ضمن نطاق الثقافة المثاليّة، أخذ هؤلاء التيوقراطيون يذعنون للتأثير الهدّام للسلطة، وبدؤوا يخرقون أكثر فأكثر المبادئ الأخلاقيّة الأساسيّة، التي كانوا يغطونَ الناس بها. ولعلّ المسؤول الرئيس عن انحلالِ القيم الروحيّة والأخلاقيّة للزعماء الدينين في الثقافة الحسيّة هو قيمهم الماديّة والداعية إلى الملذات الجسديّة والمتع الحسيّة، فبدل أن يناضلوا كما ينبغي مسترشدين بقيم ملكوت الرب أخذوا يناضلون بنشاط لأجل القيم الماديّة الصرفة لهذا العالم: السلطة،والثروة، والراحة الماديّة، والاستمتاع، والملذات، والمجد، والسيط... إلخ. وأخذوا يسترشدونَ بقيمٍ ويتبعونَ وصايا مختلفة تماماً (بل ومتناقضة أحياناً) مع ما تدعو إليهِ القيم الأخلاقية الخالدة. فعلى سبيل المثال بَدّل بعض رؤساء الكنائس المسيحيّة وبعض زعماء الديانات العالميّة وصيّة " لا تقتل " بـ " اقتل "،واحتلَ مثل هذا

التحريف مسوّغاً بأشياء غريبة مكاناً مؤثراً في جميع المؤسسات الدينيّة، تلكَ التي نمت في الإمبراطوريات الكبيرة القويّة، بترتيبات خاصة وعقائد قاسية وطقوس محدّدة تفصيليّة.

عندما كرّسَ الزعماء الروحيون أنفسهم بشكلٍ كامل لخدمةِ القيم الأخلاقيّة الحقيقيّة كان لهم تأثيرٌ كبيرٌ جداً على أخلاق المجتمع، أكثر بكثير مما آلت إليهِ أحوالهم في مرحلة انحطاط روحانياتهم الخاصة

فيما مضى كانَ تأثير الزعماء الأخلاقيين والدينيين من أمثال غاندي، وفينوبا باخفي، وبيرلابيّ، وألبرت شفيتسير، وآخرين من خادمي الحُبّ المؤسس الصافي والشامل أكثر قوّةً، وقد قاموا بدور المرشد الأخلاقي للحكومات وللبشريّة الجليلة. ولم يكن تأثير هؤلاء وليدَ وجودِ عيوبٍ أيديولوجيّة أو روحيّة محيطة، ولا نتيجة تسنّمهم مناصب علمانيّة أو روحيّة رفيعة، ولا نتيجة تأليفهم نظريات علميّة في مجال الأخلاق، أو بحوث علميّة في فيزيائية الأخلاق، أو إحصائيات في التقاليد، أو بحوثٍ في علم النفس حولَ " شيزوفرينيا الخير والشر "، إذاً لم يكن تأثيرهم بسبب كل ذلك بل من طاقةِ الحبِ غير المصْلحي العظيمة الطافحة، التي وهبهم إياها الله، والتي نثروها دونَ كللٍ عبر أفكارهم وكلماتهم وتصرّفاتهم مع الآخرين. إن تأثيرهم هذا منطلقٌ من المصدر نفسه الذي جَعَلَ من يسوع المسيح، وبوذا ورسل الحب المماثلين أكثر البشر تأثيراً بين الزعماء الذين عرفتهم الأرض جميعاً.

" وأخيراً فإن يسوع المسيح، وبوذا، وماخافير، ولاو – تسيزي أو فرانتسسك أسسزسكي لم يكن لديهم أسلحة، ولا قوى جسديّة خارقة، ولا ثراء مادي، ولا أيّة وسائل دنيويّة للتأثير على الملايين، وتحديد المصير التاريخي للأمم والثقافات، وهؤلاء لم يستخدموا الحقد أو الحسد والبخل وما شابه من خصالٍ يتصف بها البشر. وحتى أن أجسادهم لم تكن مبنيّة على طريقةِ رافعي الأثقال ومع ذلك فقد تمكّنوا وقِلّة أخرى من أتباعهم من تغيير وعي وسلوكِ ملايين البشر البائسين. أعادوا تشكيل وبناء ثقافات كاملة ومنظمات ومؤسسات اجتماعيّة. وحدّدوا بشكلٍ نهائي مسار تطوّر التاريخ. ولا يمكن لأي فاتحٍ عظيمٍ أو قائد ثوري أن يقارنَ من قريبٍ أو بعيد بهؤلاء بأنصار الحبِ هؤلاء، من حيث أهميّة واستمراريّة تلك التغيّرات التي أحدثوها"(6)إن أي شخص تختارُهُ الغبطةُ الوفيرة للحب الأعلى غير المنفعي، يستمرُ في التأثير بشكلٍ بنّاء وفعال على الإنسانيّة، كما لم يفعل رُسُلُ الحُبِّ من قبل. تحظى إرشاداتُ رجال الدين الكبار الروحيّة بالقبول والأثر الطيب لأن هؤلاء ما عادوا يحاولون تقديم تلكَ الإرشادات كما لو كانوا يرفعونَ الساطور الأيديولوجي، وما عادوا يدخلونَ تعاليم وعقائد غير مقبولة من قبل العلماءِ وغير المؤمنين.

العلماء والفلاسفة والزعماء الدينيون والأخلاقيون لمختلف الأديان والطوائف وحتى ـ الملحدون – جميعهم قابلوا التأثّر بالبهاء المُدهش للحُبِ المؤسِّس، المنبعث عَبرَ تجسُّداتِهِ الدنيويّة.

الحُبّ – هو الحلقة الرابطة والقيمة المتعارف عليها من قبل الجميع، ويتقاسَمُهُ العلماءُ والفلاسفة ورجال الدين والمتشائمونَ من غير المؤمنين وربما البشر جميعاً ما عدا فريق من أنصار الكُرهِ والعداوةِ والشر، الذين يحاولون حتى الآن أن يضللوا البشريّة فتنحرف عن طريق الحب المؤسِّس.

وبالإضافة إلى أنصار الحُب فإن القيادة الأخلاقيّة لحكومة العلماء وللناس يمكن أن يقوم بها وبفعالية أصحابُ المراتب الدينيّة والروحيّة العليا، إذا لم يُخلّوا بالمبادئ الأخلاقيّة الخالدة، ولم يكيّفوها ويصنعوا لها مفاتيح كاذبة ولم يخرقوها دوماً في أفكارهم، وكلماتهم وتصرّفاتهم، وأن لا يُبدلوا انتشارها الحقيقي بدعايةِ أيديولوجيّة أو طقوسيّة أكثر بساطةً وملاءمةً لواقع الحال. وغالباً ما ابتعدَ زعماءُ الطوائف الدينيّة عملياً حتى وقتنا الحاضر عن تنفيذ التزاماتهم الروحيّة والدينيّة الحقيقيّة.

في مثلِ هذهِ المراحلِ من اللامبالاة الروحيّة والتعب والإجهاد الروحي من الطبيعي أن يتقلّص ويضعف التأثير الأخلاقي للسياسيين الدينيين، وتتحوّل أحياناً قيادتهم إلى قيادة للفساد الأخلاقي والروحي.

في زمننا هذا تحدثُ في الكنيسة عمليّة إعادة استقطابٍ أخلاقيٍ وديني، وهو أمرٌ يظهَرُ بشكلٍ منتظم في مرحلةِ الكوارثَ التي تعيشها المجتمعات.تتجلى أهمية الاستقطاب الديني – الأخلاقي فيما يأتي: **في مرحلة الكوارث نرى أن معظم الزعماء الدينيين والأخلاقيين (بل معظم السكان أيضاً) الذين هم في العادةِ لا يرتكبونَ الذنوب بكثرة، وقد لا يكونونَ طاهرين إلى درجةٍ كبيرة ينقسمونَ إلى مجموعتين متناقضتين:** يصبحُ بعضهم طاهرين مؤمنين، بينما بعضهم الآخر يصبحُ ملحداً وفاسداً أخلاقياً " " أصحاب ذنوب ". وبهذا الشكل فإن الناس في الزمن العادي يتحركون كذلك تدريجياً باتجاهِ أحد هذين القطبين " المذنبين والطاهرين " (7).

في بضعةِ العقود المأسويّةِ الماضية أصبَحَ هذا الاستقطابُ واضحاً وسَطَ الزعماء الدينيين – الأخلاقيين، وربّما وسط البشر جميعاً.

بدا واضحاً وسط القادة الدينيين الرسميين نمو وتبلور سياسيين متدينين، و" بهلوانيين "أخلاقيين؛ ابتداءً من الملحدين والمنافقين والمستهترين، وانتهاءً بأصحابِ الطقوسِ العقيمة، والمتعصبين وغير المبالين أخلاقياً من الزعماء، وخادمي " أفضل وأكبر الشركات الدينيّة "؛ ومع كل ذلك يُلاحظ في الآن نفسه نمو الزعماء الدينيين والأخلاقيين الحقيقيين.

- وفي الوقت الذي يتمكن فيه السياسيون الدينيون بصعوبة من التأثير الإيجابي الجدي على الحكومة والمجتمع عموماً، يؤدي رجال الكنيسة الدينيون – الأخلاقيون الحقيقيون دوراً مهماً ومستمراً في القيادة الأخلاقيّة والرقابة على الحكام والناس الذين يقعون تحتَ نفوذهم.

إن التأثير الأخلاقي الكبير تؤديه في النهاية المجموعات الكبيرة من الناس الوسطيين الذين يمارسونَ نمط حياة عادي ويتعاملون بشكلٍ طبيعي مع المقربيّن منهم. إن هؤلاء غير المدّعين أو المتشدقين " بالحراثةِ " الأخلاقيّة والروحانية لا يطمحونَ إلى قيادةِ أحد أو إعلان أنفسهم أفضل من الأقرباء. إنهم في الواقع متواضعون جداً وينتقدونَ أنفسهم، يراقب الكثيرونَ منهم الجانب الأخلاقي من سلوكهم ودون قصد مسبق، وهنا يتمثّلُ جوهرهم الثاني بكل ما تحملُهُ الكلمة من معنى. يتعاملون مع الصعوبات في المجال الأخلاقي بهدوءٍ ودونَ تذبذب، ويتجاوزونَ تلك الصعوبات دون إحداثِ أي خللٍ في مبادئهم الأخلاقيّة الخاصة، بينما يضطر الباقون لبذلِ جهودٍ جبّارةٍ من أجلِ تحقيق الرقابة الأخلاقيّة الذاتيّة، وقد يفشلون أحياناً، لكن وبغض النظر عن ذلك يتمكنون من حلِ هذهِ المهمّة الصعبة أي تحقيق الرقابة الذاتيّة والتغيير الذاتي الأخلاقي(8).

يعدُّ هؤلاء " منتجي وصانعي " المحصول الأخلاقي، الأساس الاجتماعي الحقيقي للأخلاق والقيم الروحيّة في المجتمع. ويمكننا أن نرى هؤلاء في الطبقات والشرائح أو التجمعاتِ كلها، وعددهم يتفاوتُ بالتأكيد من مجتمعٍ إلى آخر حسب المرحلة. إنهم حصنُ النظام الأخلاقي في المجتمعات المُعافاة، وفي جميع الأزمنة، وهم يدعَمونهُ بوحدتهم الأخلاقيّة كونهم يسترشدونَ في حياتهم بالقيم الحقيقيّة.

إن ربّة المنزل التي تعملُ في المشفى مُمرّضة طوعيةً لمرتين في الأسبوع ومن دون أية مكافأة، والنّجار والحجّار والطبيب والتاجر الذين يعطون وقتهم وقوتهم وما يستطيعون للمحتاجين من دون أن يعوّلوا أيضاً على المكافأة أو العطاء المقابل أو أي شهادة – هؤلاء أمثلة ساطعة على " صانعي ومنتجي " جنّة عدنٍ الأخلاقيّة المتواضعين. ولما كان في المجتمع العدد الكافي من أمثال هؤلاء الناس، الذين يشكلونَ الركيزة الأخلاقيّة للنظام الاجتماعي فإن التصّرفات غير الأخلاقيّة لبعض أعضاء المجتمع لا تستطيع أن تفسد حياته كلها!

وسيكون بالإمكان تقوية الحكومة المستقبليّة لعلماءِ الدولِ جميعها، والحكومة العالميّة في حكمتها ونواظمها الأخلاقية وذلك بضم مثل هؤلاء الحكماء والخبراء الأخلاقيين إلى أعضائها. إن وجود هؤلاء لا يسمح للحكومات بأن تُقدم على ارتكاب هفواتٍ أخلاقيّة، بل سيزيد من حكمةِ أعضائها ويحسّن من أخلاقهم، ويعمّق النظام الروحي والأخلاقي العام في هذا الكون.

وعدا عن اضطلاع هؤلاء البنّائين المؤسسين للقيم الأخلاقيّة بالقيادة الأخلاقيّة للحكومات، فإن باستطاعتهم أن يؤثّروا تأثيراً شديداً على البشرية جمعاء بصورةٍ عامة وذلك حين يؤدون الأدوار والمهمّات التالية:

أ- أمثلة حيّة للأخلاق البطوليّة.

ب- مؤسسو القيم الأخلاقيّة الجديدة.

ت- المدافعون عن النظام الأخلاقي.

ث- أكثر المربيّن الأخلاقيين حظاً في البشريّة، بتقديمهم مثالاً مجانيّاً من خلال سلوكهم الخاص الخالي من الأخطاء.

إذا ما أصبح هؤلاء القادة وأنصار القيم الأخلاقيّة العامة الخالدة موحّدين ولو بشكلٍ ضعيفٍ في فيدراليّة عالميّة ***حُرّة***، فإن تأثيرهم الروحي يمكن أن يكون حاسماً في تجنّب الكثير من الكوارث، ورفع مستوى البشرية إلى نظامٍ أخلاقي جديد، وأكثر حداثةً في الكون البشري!

إذا ما تمّت مساندة اتحاد القوى الأخلاقيّة في مؤسسات السلطة جميعها والعلماء والحكماء والمبدعين في البشريّة بانضمام أكثر رجال الفن شهرةً (الأدب، المسرح، الموسيقا، العمارة، الفن التشكيلي، النحت) إلى الحكومة، وتوحيد خالقي الجمال مع صانعي الحقيقة والأعمال الطيّبة خارج الحكومة فإن مثل هذا الأمر، ومثل هذا الاتحاد لمبدعي قيم الحقيقة والخير والجمال العظمى على كوكبنا سيقدّم للبشريّة الحكومةَ والنظامَ الاجتماعي الأفضل من كل ما هو ممكن من حكوماتٍ وأنظمةٍ اجتماعيّة.

إن مشاركة عباقرة عظماء في الحكومة أمثال: باخ، وبتهوفن، وفيديا، وميكيل آنجلو، ورافائيل، وليوناردو ودانتي وشكسبير، يؤثّر تأثيراً شديداً على مقدرةِ وإمكانيات مثل تلك الحكومة إبداعياً، ويغني حكمتها الوجدانيّة وينظّفها من الابتذال ويشفي " جسدها وروحها، بإشعاع الجمال الأبدي.

يكمن الخلل الأكبر في الحكومات الحسيّة التي شكّلت حتى وقتنا الحاضر في فصلِها القيم العظيمة ومؤسسيها أحدهما عن الآخر. لم يُعطَ لفرسان القيم العظيمة تلك إلا دور ضئيل جداً في تحديد وتوجيه سياسة الحكومة.

ونادِراً ما وِجدَ في الدوائر العُليا لحكومات السياسيين الحسيّة مبدعون عظماء للحقيقةِ والخير والجمال. لقد تشكّل هذا النوع من الحكومات الحسيّة بالأساس من الناس الذين لم تكن لديهم قدرات إبداعيّة ولا علاقة وطيدة مخلصة مع القيم الأخلاقيّة العليا.

وإذا أردنا أن نحدد أكثر فسنقول إن عبقرية معظم السياسيين الذين يحكمون اليوم تتجلى في: قدرتهم على بناء الخزينة، وإتقان فن الحصول على المال بكل الوسائل المتاحة، والاستخدام غير المبدئي للقوة الخشنة من أجل تلبية متطلبات غطرستهم، امتلاك " ضميرٍ مَرن "، يمكن أن يغفر لهم بسهولة الجرائم المرتكبة من قبلهم، امتلاك عبقرية التصنع الدبلوماسي، والكذب الفاضح، والشر وانعدام الإحساس.

لذلك يمكن القول بأن الغالبيّة العظمى لحكومات السياسيين الحسيين الموجودة هي من أنصار الماكيافيليّة * بجوهرها.

لقد كانت الدولة من بين المجموعات المهمّة الأخرى " المؤسسات الأسريّة، والدينيّة والعلميّة والروحيّة وغيرها " هي الأكثر رياءً واستهتاراً في سياستها " لخدمة الدولة "، والإستراتيجية العسكريّة وفي استخدام قاعدة " الأقوى دائماً محق ". ممثّلو مثل هذه الحكومات أو الدول عظماء في غدرهم وعدميّتهم وفي تجسيد السياسة المكشوفة للقوّة الخشنة.

ليس مهمّاً مقدار نبلهم في حياتهم الخاصة، ماداموا يتصرفون كممثلين للحكومة ويصبحون أدواتٍ لتلك القوّة الخشنة المدعومة بالكذب.

ما من شك في أن ماكيافيلي قد ضخّم الصفات القبيحة للحكّام الحسيين، ولكنه مع ذلك أشار بدقّة إلى أهم تلك القباحات.

* نسبةً إلى مدرسة ماكيافيلي التي تنطلق من عبارة : "الغاية تبرر الوسيلة " انظر : كتاب " الأمير " . /المترجمان/

المراجع

[1] P. Sorokin, Reconstruction of Humanity, pp. 74. Также см. C F. Chassell, The Relationship Between Morality and Intellect, New York, Columbia University Press, 1935.

[2] Источник этих данных и показателей см. в P. Sorokin, Social and Cultural Dynamics, vol. II, ch. 3 и vol. III, ch. 9-14; или ch. 13, 14, 32-35 в сокращённом,однотомном издании данной работы; W. A. Lunden, The Dynamics of Higher Education, Pittsburgh, Pitts-burg Printing Co., 1939, ch. 15.

[3] Детальный анализ духовных систем и уголовных кодексов с этой точки зрения см. в P. Sorokin, Social and Cultural Dynamics, vol. II, ch. 13, 14, 15; в сокращённом издании данной работы, ch. 24, 25.

[4] أنظر. P. Sorokin, The Ways and Power of Love; P. Sorokin, Forms and Techniques of Altruistic and Spiritual Growth; и P. Sorokin, Studies, of Harvard Research Center in Creative Altruism.

[5] أنظر. Dynamics, vol. III, ch. 5: в сокращённом издании, ch. 28.

[6] P. Sorokin, The Ways and Power of Love, pp. 71

[7] О “законе поляризации” в период катастроф см.: P. Sorokin, Man and Society in Calamity, New York, E. P. Dutton & Co., 1943, ch. 9-12; P. Sorokin, The Ways and Power of Love, ch. 12; О законе поляризации среди военнопленных см. W. A. Lunden, "The Crucible of Captivity," The Deltan, VOL. XXVII, No. 3, 1957, pp. 4-14.

[8] По поводу этих двух видов: “удачливых” и “неудачливых” альтруистов: P. Sorokin, The Ways and Power of Love, ch. 9, 12.

❑❑

الإبادة الصامتة – التمرد الداخلي – التدخل المباشر!

قراءة في الكتاب
"الامبريالية بقناع إنساني"
تأليف "جون بريمون" ترجمة "عبود كاسوحة"

عرض:
□ غسان كامل ونوس

يتجاوز بعض الكتب التي تصدر في جهات أخرى من العالم، ويكتبها أجانب، الحال الراهنة آناء طباعتها، وتمتد في الزمان خلفاً لاستنباط العبر من أحداث التاريخ، ومستقبلاً للتكهن بما يمكن أن يجري، بناء على ما جرى وعلى الوقائع المعاصرة التي تغص بها الأيام والسنين.. وأهمية هذه الكتب أنها تخرج عن تهمة الانحياز، لأن انتماءات مؤلفيها تعفيهم من ذلك، وعملهم وشواهدهم ومراجعهم تثبت اهتماماتهم المنصبة على الفهم والوعي والقلق على المصير العام للإنسانية الذي سيصيبهم بشظايا انفجاراته، وهم بذلك يعبرون عن إحساس بالمسؤولية، لكي لا يتحولوا إلى شهود زور أو شياطين خرس؛ من دون أن ننسى أنهم قد لا ينجون من تهم مدمرة يدبرها لهم أعداء البشرية ولا سيما الصهاينة في ما تدعى "معاداة السامية" في عقر دارهم، كما حدث للمفكر الفرنسي الذي رحل مؤخراً روجيه غارودي، وسواه!

ومن الكتب الهامة في هذا السياق، وقد صدر مترجماً عن اتحاد الكتاب العرب عام 2009م: "الامبريالية بقناع إنساني" لمؤلفه البلجيكي أستاذ الفيزياء الحديثة "جون بريمون" عام 2005م، متناولاً موضوعاً أثر بخطره على العالم، وما يزال يؤثر، وسيستمر في ذلك، إذا لم يجد هذا التحرك الغربي الأممي الموقد بأيد محلية من يكبحه في الغرب، كما يقاومه الشرفاء الوطنيون في الشرق وبقية العالم وإن كان ذلك يقتضي إثارة الرأي العام العالمي..

ومن الأهمية بمكان استرجاع ما حواه الكتاب في هذا الظرف بالذات، مع ما تشهده سورية من أحداث، وما تواجهه من مخاطر، تؤكد الكثير من أفكار الكتاب واستنتاجاته، وتستدعي التنبه إلى ما يرام وما يخطط له، بالطريقة ذاتها التي حدثت وتكررت منذ أكثر من ستين عاماً، في بقاع العالم المترامية، وقد تكاثفت إلى قبضة صغيرة في أيد مجنونة تحركها الشرور والغايات الآثمة..

ولا بدّ من الإشارة إلى أن عرضنا للكتاب –بدهياً - لا يشمل أفكاره كلها، ولا يأخذ بالضرورة بترتيب فصوله وموضوعاته، كما أن هناك الكثير من الوثائق التي لا يمكن استعراضها، وقد تمت الإشارة إلى بعض الفقرات المنصوصة مع أرقام صفحاتها، فيما تم تجاوز ذلك في حالات أخرى؛ إذ لم يُعتمد الاقتباس الحرفي الوارد في الكتاب. وقد قمنا باختيار الأفكار والفقرات التي تفيد في مقاربة حالتنا المعاصرة في سورية، سابقاً وحاضراً وآتياً، راجين أن لا يكون هذا الآتي كما تريده القوى المعادية لبلدنا والتطلعات الحقيقية للشعب في البناء والإصلاح والحفاظ على الأرض والحقوق والقرار الوطني المستقل والمقاومة لتلك القوى المتربصة بنا، العاملة على استعبادنا واستخدامنا مطايا وقرابين لأهدافها السوداء..

ينظر الكتاب في موضوع التدخلات الغربية بعد عام 1945، ولا سيما من قبل الولايات المتحدة، فيرى أن السياسة الغربية حيال العالم الثالث تتسبب في أربعة أشكال من التأثيرات:

1ـ الضحايا المباشرة: فـ "الهولوكوست الأمريكي" حسب تعبير وليام بلوم الموظف السابق في الخارجية الأمريكية، يتحمل مسؤولية ملايين القتلى في العالم بشكل مباشر عن طريق الجيش الأمريكي، أو عبر صنائع من الدكتاتوريين والمتمردين والأنظمة والدويلات كالكيان الصهيوني.

2ـ قتل الأمل:

"... هو عالم (ثالث) كان للحركات العلمانية في العالم العربي أن تواصل تحديث الشرق الأوسط من غير أن تكون مرغمة على مواجهة العوائق المزدوجة المتمثلة بالصهيونية والظلامية

الإقطاعية، وكلتاهما مدعومة من الغربيين. عالم كان التمييز العنصري سيمنى فيه بالهزيمة منذ زمن طويل، مع تفادي النكبات والحروب التي أثارها" ص 42.

وللمقارنة بين كوبا الدولة التي تتعرض للحصار الخانق والتآمر المستمر من جانب أمريكا وأخواتها في المعسكر الغربي، والدول الأخرى المجاورة، نجد في الكتاب:

"يزيد متوسط الأعمار في كوبا ستة أعوام عنه في عموم القارة الأميركية. أما وفيات الأطفال فتقل أربع مرات عن المعدل الوسطي." ص44.

".. فالسياسة الأمريكية قامت في أغلب الأحيان على مناهضة الحركات التي كانت في معظمها "تحديثية" منها على سبيل المثال تلك التي تفرعت عن مؤتمر باندونغ، والتي كانت تسعى فقط وراء تسهيل الطريق أمام مجتمعاتها للانتفاع بمزايا العلم، وفي بعض الحالات اعتماد الديمقراطية منهجاً كما بالنسبة لكل من مصدق وغولارت وأربنتز وأييندي. ولنشر أيضاً إلى أن السياسات التي انتهجها أييندي أو أربنتز، لم تكن في واقع الحال أكثر راديكالية من سياسات الاشتراكيين السويديين بعد عام 1931 أو حزب العمال البريطاني بعد عام 1945. لكن الأولين واجها منذ البداية معارضة أجنبية أكثر شراسة مما واجه الآخرون." ص45

3-ظاهرة الحاجز: لقد تم التخويف من خطر الشيوعية في الماضي، ويخوفون من الخطر الإسلامي الآن؛ وهناك تهمة شائعة جداً في أوربا وهي العداء لأمريكا، وقد كانت السياسة السوفياتية دفاعية حتى التطرف، ويبدو رد العالم الإسلامي اليوم في صورة لا عقلانية! كما أن في أمريكا ذاتها تهمة العداء لأوربا. وعادة ما تأخذ ردود الأفعال شكل التطرف.

يتبجح الغرب بالانتصار في الحرب الباردة، ويحلمون بانتصار مماثل على الإرهاب، متناسين أن شعور الاتحاد السوفييتي أنه مهدد أخّر إصلاحاته الداخلية، وليس العكس. قال جورج كينان السفير الأمريكي في موسكو ومهندس نظرية "إقامة سد" حول الاتحاد السوفييتي في عام 1992: إن التأثير العام للتطرف في الحرب الباردة هو الذي أدى إلى تأخير التغييرات الكبرى التي حصلت في الاتحاد السوفييتي، بدلاً من أن يسرعها". وهذا الأمر نفسه ينطبق على معظم الدول التي تخلصت من الاستعمار: الكوريتان والجزائر وفييتنام والشرق الأوسط.

4ـ مخاطر المستقبل:

أمريكا وأوربا تابعتان للعالم الثالث وليس العكس؛ فهو الذي يقدم المواد الأولية من خلال المستعمرات بالمفهوم الاستعماري السابق، والحكومات المطيعة في الوقت الذي تلا، أو من خلال الاستعمار الحديث، وهذا النظام أضعف بكثير من سابقه، كما أن هناك نضوباً في الموارد الطبيعية، والصراع عليها يمكن أن يولد حروباً أخرى.. والعالم الثالث هو الذي يزود الغرب بالمادة الرمادية: الأدمغة! في الجامعات والمخابر ولا سيما في الصناعات الحربية. فهناك هبوط حاد في عدد الطلاب الذين يتابعون دراسات علمية أو هندسية.. وأنظمة التعليم في البلدان الفقيرة هي التي تسد

بصورة متزايدة العجز الحاصل في البلدان الغنية.

ويرى المؤلف أن مجلس الأمن مسؤول مباشرة عن النتائج المترتبة على عقوباته التي تؤدي إلى تدمير كلي أو جزئي؛إنها الإبادة الصامتة التي تسببها العقوبات الاقتصادية: (نقص الغذاء وفقدان الأدوية).

ويستعرض سلسلة من الوقائع التي تدخلت فيها السياسات الغربية في أحداث العالم الثالث.

• الانقلاب على مصدق:

"في عام 1953م نظمت وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA انقلاباً على حكومة مصدق، وهو قومي ايراني محافظ، أخطأ في إظهار عزمه على كفّ يد الشركات الانغلو اميركية عن مواصلة نهب النفط الإيراني وتحويل كافة عائداته لصالح بلاده." ص54

"لقد انتقل العميل الاميركي كيرميت روزفلت، بعد الانتهاء من قلب نظام مصدق في ايران، ليزاول "نشاطه" في سورية لكنه أخفق، أما كوبا فبقيت وما تزال صامدة حتى بعد عقود من قلب نظام أبيندي." ص54

❖ "في واقع الأمر يسعنا أن نعتبر المآسي نتيجة سياسات تدخلية سابقة: وصول الخمير الحمر إلى السلطة في كمبوديا كان بسبب استجرارالولايات المتحدة تلك البلاد إلى الحرب، على أثر عمليات القصف الجوي السرية والمكثفة، وانخراطها في الانقلاب على الأمير سيهانوك لكي تقيم بدلاً منه نظاماً ديكتاتورياً لحسابها. أما بشأن رواندا، فالسياسة الاستعمارية البلجيكية كلها اعتمدت مبدأ "فرق تسد"، بخلقها مجابهات بين التوتسي والهوتو." أما إذا ما وقعت في المستقبل حرب طائفية أو عرقية في (الشرق الأوسط)، فقد يصرخ ذوو النزعة الإنسانية في الغرب، من بربرية المتقوقعين داخل بدائية ثقافتهم القومية والدينية، متغافلين عن كل ما فعله الأميريكيون بقصد أو من دونه لتسعير هذه المواجهة.

❖ لم يبذل جهد للتدخل في القسم الشرقي من الكونغو، وكانت المذابح لا تقل دموية عن رواندا، لأن الغرب لم يكن راضياً عن النظام الوطني هناك، فتركوه يتزعزع.

إضافة إلى أن ذلك التدخل كان سينهي النزاع وسيظهر فعالية أممية لا يريدها الغرب الذي **يحب إظهار فشل أممي ليكون التدخل الأحادي من خارج المنظمات الدولية "مشروعا" أو ضرورياً.**

• تعدّ مذبحة سريبرينتسا المسوغ الممتاز للتدخل أحادي الجانب، ولفشل الأمم المتحدة، وقد كان التحريض الأمريكي سببَ الحرب في البوسنة، التي كانت المذبحة أحد وقائعها؛ فقد انقلب عزت بيغوفيتش على اتفاقية ليشبونة التي كان قد وقعها مع كاراديتش وبوبان ممثلين للجاليات الإسلامية والصربية والكرواتية.

"..فنحن لا نتوصل إلى التوفيق بين المسلمين. والخطأ الكبير في ذلك أن المسلمين لن يتزحزحوا

ما داموا يظنون أن واشنطن يمكن أن تأتي لتقف إلى جانبهم في أي وقت كان..".

كما تستخدم مجازر رواندا وعدم التدخل لمنعها حجة للتدخل في أما كن أخرى يريدون التدخل فيها!

• درس غواتيمالا:

انتخب الرئيس أربنتز عام 1950، وأقر قانون الإصلاح الزراعي عام 1952، وأنشئ صندوق للقروض الزراعية بفوائد مخفضة، وقدمت حوافز للفلاحين لمحو الأمية، وشقت الطرقات لمساعدة المنتجين على نقل منتجاتهم إلى مواقع التصدير.

"لو تركت غواتيمالا وشأنها، لشهدت تحسناً في ظروف معيشة مواطنيها وتقدماً اجتماعياً واقتصادياً. كانت رئاسة أربنتز ستنتهي وفقاً للدستور في آذار عام 1957، على أن تخلف مثالاً لأفضل إدارة ديمقراطية شهدتها أمريكا الوسطى طوال تاريخها. وكانت المنطقة بأكملها ستجني شيئاً من ثمرات ذلك النجاح" ص 69.

لكن أربنتز طرد من الحكم في 1954/6/27، إثر انقلاب عسكري من تدبير وكالة الاستخبارات الأميركية التي كان يرأسها آلان دالاس، الذي كان له مع أخيه جون فوستر وزير خارجية الرئيس ايزنهاور علاقات مهنية مع شركة اتحاد الفواكه مالكة المساحات الشاسعة من الأراضي المزروعة في البلاد.

كانت الولايات المتحدة تزعم أنه زعيم أحمر "يهدد الديمقراطية الأمريكية". ألغى العسكريون الإصلاحات، وأغرقوا غواتيمالا في الديكتاتورية الدموية والبؤس عقوداً مع مذابح لعشرات الآلاف من الفلاحين.

• الكونتراس في نيكاراغوا:

قلب الساندينيون نظام الديكتاتور –سوموزا - الموالي للأمريكيين في نيكاراغوا عام 1979م، وأجروا أول انتخابات ديمقراطية، وفازوا بها، ففرضت امريكا حصاراً على البلاد، ونظمت فيها حرب عصابات عرفت باسم الكونتراس، أضعفت الحكومة ولا سيما على الصعيد الاقتصادي، فخسر الساندينيون الانتخابات، وخرجوا من الحكم عام 1990؛ فرفعت امريكا حصارها الذي أدينت عليه من قبل محكمة العدل الدولية عام 1986، ورفضت التعويض عن ذلك حسب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة.

إن ذلك تجسيد مثالي لـ"الدفاع عن الديمقراطية" في العالم كما تمارسه القوة العظمى في أميركا، ويتميز بالنقاط التالية:

- **وصم المعارضين**: بالشيوعية في ما مضى، والإرهاب في العصر الحالي.
- الجهل والصلف: معرفة واشنطن عن البلدان الأجنبية تأتي عن طريق الشركات الكبرى

المستغلة لتلك البلدان، أو من اللوبيات الرجعية المرتبطة بها.

الامتثالية الإعلامية: وسائل الإعلام الأمريكية تقبل الرواية الرسمية للأحداث، أما تفسيرات الخصم فهي ترهات!

-**الاجتماع "الثنائي الطرفين" للطبقة الحاكمة**: الديمقرطي والجمهوري.

وتم الازدراء الكلي للقانون الدولي، مع تهديد لمن أراد تنفيذه: فرنسا وبريطانيا امتنعتا عن التصويت. داغ همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك قال عن العرقلة الأمريكية لمشكلة غواتيمالا: إنها "أقسى ضربة وجهت حتى الآن إلى المنظمة." وتكررت الضربات بعدها.

وماذا عن المدافعين عن حقوق الإنسان؟!

- نجح الرئيس كارتر بسذاجة سياسية بعد وقاحة نيكسون وكيسنجر وهزيمة أمريكا في فيتنام، بعرض حقوق الإنسان على أنها "روح السياسة الخارجية الامريكية".وفي الخطاب أصبح الدفاع عن حقوق الإنسان ضد الدول الاشتراكية، والأنظمة المنبثقة عن ثورات معادية للاستعمار في العالم الثالث، اللازمة المتكررة والحجة الرئيسة، مع الانعطافة الكبيرة لليسار الفرنسي والأوروبي الذي بدأت أوهامه الثورية بالتبدد.

- الصيغة المعتدلة لهذه الإيديواوجية الاحتجاج والتظاهر وإرسال الرسائل ضد منتهكي حقوق الإنسان في أماكن أخرى، والصيغة القاسية المطالبة بالعقوبات الاقتصادية والدبلوماسية، فالتدخل الغربي العسكري.

- ما من شيء في سياسة الولايات المتحدة يدل على أدنى اهتمام صادق بتطوير حقوق الإنسان والديمقراطية؛ أما أن يجعلوا منها الوكيل الممتاز لتحقيق تلك القيم، فهو أقل ما يقال فيه إنه مفارق. إضافة إلى التساؤل عن الجيش الذي سيقوم بحرب من أجل حقوق الإنسان من دون أن ينتهكها!!

- إن المجتمعات التي تمارس الديمقراطية بشكل ما فيما بين سكانها، ليس من المحتم أنها تمارسها مع سواها، ولا سيما في المستعمرات أو في مناطق هيمنتها؛ بل قد يكون ذلك سبيلاً لشرعنة مشاريعها الاستعمارية.

- إنه لنفاق أن يدعو الغرب للتدخل لإنقاذ حقوق الإنسان؛ إذ ليست الديمقراطية فقط أو السوق الحرة أو احترام حقوق الإنسان جعلت الغرب يصل إلى الحالة الراهنة من الحضارة؛ إن الحروب والاستعمار وعمل الأطفال والتسلط وعمليات النهب تشكل جزءاً من تاريخ الحضارة الغربية.

"إنه ليبدو تناقضاً كبيراً أن تقتل 100 ألف إنسان لأنك تعتقد أن حقوق البعض منهم مخروقة". "وكما أن هناك الكثير من الأفعال السيئة ترتكب باسم الإسلام وديانات أخرى، كذلك فإن أفعالاً أشد سوءاً ترتكب باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان". مهاتير محمد في المؤتمر حول حقوق الإنسان2005/5/9.ص96

- يحتوي الإعلان العالمي لعام 1948 حول حقوق الإنسان بالإضافة إلى الحقوق الفردية

والسياسية، على حقوق اقتصادية واجتماعية، مثل الحق في الصحة وفي التربية وفي الأمن الاجتماعي. لكنها لا تأخذ المستوى ذاته من الاهتمام الذي تأخذه تلك الحقوق الفردية والسياسية. في الوقت الذي تقوم دولة مثل كوبا تتهم بالاستبداد وتطالب بالديمقراطية، باتباع سياسة تهتم بالرعاية الصحية وانتشار التعليم أكثر بكثير من سواها في باقي دول امريكا اللاتينية؛ حيث تقوم الديمقراطية التي يطالبون بإحلالها في كوبا، واستمرت في ذلك بعد توقف المساعدات من الاتحاد السوفييتي، رغم الحصار القاسي وأعمال التخريب المدعومة من أمريكا، ما يتطلب موارد إضافية للدفاع ومحاربة التجسس.

- التدخل السوفياتي في افغانستان: على حد قول بريجينسكي استدرجت امريكا الاتحاد السوفييتي للتدخل في افغانستان في 24 كانون الأول عام 1979 لتوريطه قي "حربه الفييتنامية"، بعد أن دعمت المعارضين للنظام الموالي للسوفييت في 3 تموز 1979.

- استقبل ألبان كوسوفو جماعة الحلف الأطلسي استقبالهم لمحررين، وانتهى الأمر بالصرب إلى اختيار حكومة تلائم أذواق المعتدين. إذ إن التعدد الطائفي أو الإثني في كوسوفو مثلاً أقل مما كانت عليه الحال قبل الحرب، في حين أن الحفاظ على هذا الطابع كان يشكل الهدف المزعوم لشنها.

الدفاع عن القانون الدولي:

- إن مهمة القانون الدولي المعاصر وفق مقدمة شرعة الأمم المتحدة، "وقاية الأجيال القادمة من وباء الحرب". وبالتالي يقول المبدأ الأساس على أنه مامن بلد يملك الحق في إرسال جيوشه إلى بلدان أخرى من دون موافقة حكومته. وكلمة حكومة لا تعني "حكومة منتخبة" أو "تحترم حقوق الإنسان"؛ بل تعني فقط "الحكومة التي تسيطر عملياً على القوات المسلحة".ص111

- القانون الدولي لم يزعم قط وضع حل لجميع المعضلات؛ بل إنه يسعى فقط مثلما هي الحال العملية للقوانين كلها، إلى أن يكون الشر الأدنى حيال انتفاء القانون نهائياً.

- هناك أكثر من 70٪ من الجنس البشري يدين جميع أشكال التدخل أحادي الجانب؛ بدءاً من فرض الحصار إلى إنزال العقوبات إلى شنّ الحروب. يظهر ذلك في كل اجتماع يضم دول عدم الانحياز، وكل اجتماع قمة لدول الجنوب، كما يظهر ذلك في أثناء عمليات التصويت في الجمعية العامة للأمم المتحدة.

- "يؤكد رؤساء الدول أو الحكومات مجدداً تعهد الحركة بدعم التعاون الدولي في سبيل حل المشكلات الدولية ذات الطابع الإنساني، مع الالتزام التام بميثاق الأمم المتحدة، ويكررون في هذا المجال رفض حركة البلدان غير المنحازة، لما يسمى بـ "حق" التدخل ذي الصفة الإنسانية، والذي لا أساس له في ميثاق الأمم المتحدة أو في القانون الدولي.".

الوثيقة الختامية للمؤتمر الثالث عشر لرؤساء الدول أو الحكومات للبلدان غير المنحازة، في كوالالامبور من 24 -25 شباط 2003م.

- إن الناس الذين يستخدمون حقوق الإنسان لزعزعة القانون الدولي باسم "حق التدخل" لم يقوموا بأي عمل لتحقيق سيادة حقوق الإنسان في البلدان التي كانت تحت سيطرتهم. لعل هذا من الأسباب الرئيسية التي تجعل الحق في التدخل موضع شجب شديد من بلدان الجنوب.
- حين غزت اندونيسيا في كانون الأول عام 1975م تيمور الشرقية، المستعمرة البرتغالية السابقة، وقفت منظمة الأمم المتحدة عاجزة، وفي البوسنة وجه اللوم إلى المنظمة بأنها كانت غير فاعلة. الجواب في مذكرات سفير الولايات المتحدة لدى المنظمة الدولية آنذاك، باتريك موينيهان، الذي أفاد بأن مهمته آنئذ كانت جعل كل إجراء يمكن للأمم المتحدة أن تسعى للعمل به، غير ذي جدوى على الإطلاق! وهذا السفير نفسه كان واحداً من ستين شخصاً وقعوا على "رسالة أميركا: أسباب القتال"، التي سوغت الحرب على افغانستان بوصفها حرباً عادلة.
- صرح الرئيس الأميركي رونالد ريغان، لدى إدانة الأمم المتحدة للغزو الأميركي لجزيرة غرينادا عام 1983، قائلاً: "إن مئة أمة من هيئة الأمم المتحدة غير متفقة معنا عملياً، حول جميع النقاط المتعلقة بتدخلنا، إلا أن ذلك لم يعكر علي حتى تناول فطوري". ص117
- وهناك عشرات القرارات في الأمم المتحدة التي صوتت عليها غالبية دول العالم، وعارضتها أمريكا واسرائيل وحدهما.
- ما الذي سيحدث لو طبق بلد ما أفكاراً "مدافعة عن عولمة بديلة" أو رفض تسديد الديون، وقرر العودة إلى استملاك الموارد الطبيعية، وبناء خدمات عامة قوية أو إعادة بنائها، وفرض نظام ضرائب أكبر على الأرباح.. سيكون الرد كما كان على أيبندي وكاسترو ومصدق ولومومبا وأربنتز وغولارت وغيرهم كثير. وسوف يحصل الرد في أوقات متعددة: سيبدأ أول الأمر بتخريب اقتصادي، قد يكون سريعاً إلى حدّ ما: هروب رؤوس الأموال وتوقف توظيفها ثم وقف "المساعدات" .. وإذا ما تبين عدم جدوى ذلك كله، فسوف يكون هنالك تشجيع على قيام تمرد داخلي، تثيره مجموعات داخلية اجتماعية أو عرقية أو دينية، تكون لها مطالب نوعية تصعب تلبيتها. إن كل قمع لهذه المجموعات، حتى لو كانت نشاطاتها غير شرعية، وكانت مثيلاتها عرضة للقمع في أمكنة أخرى، سوف تدان باسم حقوق الإنسان. إن التعقيد الاقتصادي والسياسي للوضع سوف ينسى. لكن سوف يوازيه تهديد دائم بوقوع انقلاب عسكري، انقلاب قد يقابل بالتأييد من جانب قسم من السكان، الذين قد ضاقوا ذرعاً بالفوضى. وإذا لم يجد ذلك كله نفعاً فسوف يقع تدخل عسكري مباشر من قبل الولايات المتحدة أو من حلفائها. ينبغي أن نفهم حق الفهم أنه ما لم يتم اتخاذ هذا الإجراء الأخير على

الفور حيال الأزمات كافة، فسوف تشكل على الأقل خلفية للإجراءات الأخرى كافة. إذا لم تكن العقوبات الاقتصادية أو القلاقل الداخلية كافية، فعندئذ سيكون هنالك خليج خنازير جديد، أو فييتنام جديدة أو كونتراس جديدة." ص 120

- **الحرب الوقائية:** هناك ذريعة للتدخل تقول إن الغرب تأخر كثيراً في التدخل ضد هتلر، مما تسبب بقتل اليهود، ثم يقال: يجب التدخل لإنقاذ ألبان كوسوفو، والأكراد في العراق، والنساء الأفغانيات... متناسين أن هتلر قد أسبغ الشرعية على حروبه بوصفها شرعية أو لحماية الأقليات: السوديت في تشيكوسلوفاكيا، الألمان في دانتسيغ؛ بل إن هيئة الأمم المتحدة أنشئت تحديداً ضد هذا المفهوم الأخير الذي عده ايزنهاور نازياً. ثم إن شرعنة حرب كهذه (الحرب على يوغوسلافيا) عام 1999م سيمنح الشرعية على حروب كثيرة أخرى للحجة ذاتها.

❖ هناك ثلاثة أسس ممكنة شرعياً للتدخل العسكري: حماية النفس، أو التدخل بصفة إنسانية، أو بموجب قرار من مجلس الأمن. وجميعها لم تكن موجودة في حالة العراق.

❖ هناك وثيقة انكليزية "سرية وشخصية حصراً" تعرض المناقشات التي جرت في 8/23/ 2002م في لندن حول القرار الأمريكي بشن الحرب على العراق، وهناك مذكرات تسبق ذلك بأشهر، وهي سابقة بكثير للمجادلات المتعلقة بنزع سلاح العراق.

* لقد تمت مضاعفة أرقام الجثث من ضحايا النظام في العراق نحو ثمانين مرة، لتسويغ التدخل الأجنبي.

❖ "ما أن تؤكد لنا وسائل إعلامنا أن فظائع قد ارتكبت من قبل زعيم أو حركة سياسية في "الجنوب"، حتى يكف التقدميون الغربيون، في غالبيتهم، عن طرح أية تساؤلات على أنفسهم، على الإطلاق. ولئن كانت الأكاذيب حول الصلات بين العراق والقاعدة، أو حول أسلحة الدمار الشامل العراقية قد أضحت معروفة نسبياً (في أوروبا على الأقل)، فإن مظاهر أخرى منظمة من دعاية الحرب، حول حقيقة ما جرى في كوسوفو مثلاً، قبل عمليات القصف التي قام بها حلف شمال الأطلسي، أو حول حقيقة العلاقات بين الإسرائيليين والفلسطينيين، تستحق معرفة أفضل وأن تقدر حق قدرها، على نحو يولد شكاً معقولاً حيال مزاعم مستقبلية لوسائل الإعلام حول جرائم الآخرين التي سوف تبرر حروباً جديدة." ص162

وهذا يظهر أن من الأهمية بمكان أن يتحقق الإعلام الغربي من الوقائع التي يشيعها أصحاب المصلحة في التدخل العسكري، ونظام الدعاية الغربي.. والتفهم السياسي حيال دول الجنوب وحركاتها وقادتها، بدل أن تشارك في التمهيد له.

ولا بد لهذا الإعلام من إظهار النتائج الكارثية للتدخل، كما عليه زيادة الاتصال مع الطرف

الآخر المستهدف، لعرض وجهة نظره، ومعرفة رأي الناس العاديين بما يجري.."فكم من الناس تمنوا معرفة رأي المواطنين العرب "العاديين" أثناء حرب الخليج الأولى أو حتى الثانية؟! .. أو لسماع وجهة نظر الصرب أو اليونانيين أيام حرب كوسوفو؟! أو الدخول في نقاش مفتوح مع المثقفين الذين ينعتونهم اليوم بصفة إسلاميين، أو معرفة حقيقة ما جرى في فلسطين عام 1948؟!

وعلينا أن نصغي تحديداً إلى الذين تهاجمهم وسائل إعلامنا أكثر من سواهم، وأن ندخل في مناقشات معهم. وأن تقام أقنية مباشرة بين الشعوب، أقنية تحل محل الشكل العجيب من "التضامن"، الذي يقوم اليوم على توجيه الدعوة إلى الحكومات الغربية كي تبادر إلى التدخل أكثر مما هي مستعدة لفعله، في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى؟!

في الفلوجة مثالاً ذات الـ300 ألف نسمة، عطشت وأظلمت، ثم هجر سكانها إلى تجمعات قصفت فيما بعد! من دون أن يتساءل أحد عن عدد الضحايا!!

هل بين أنصار "المجتمع المدني" من يتولى التذكير بأن ويلات الفلوجة بدأت، بعد الغزو بقليل، حين تظاهر أهلها سلمياً، فأطلق الأمريكيون النار على الجماهير فقتلوا 16 مدنياً؟!" ص169

❖"كانت أيديولوجية التدخل باسم حقوق الإنسان مثالية من أجل تدمير حركات السلام والحركات المعادية للامبريالية؛ وهذا التدخل حين يجري حقاً، وعلى نطاق واسع، فإن حقوق الإنسان أو اتفاقيات جنيف تخرق على أوسع نطاق أيضاً" ص171

التحجج بالحرب الأهلية: يتم الحديث عن التدخل بحجة الخوف من وقوع حرب أهلية، وبعد التدخل، يؤخر الانسحاب خوفاً من أن يؤدي هذا الانسحاب إلى حدوث حرب أهلية!

"فإذا ما قبلنا بأن يقوم كل بلد على التدخل في الشؤون الداخلية لبلد آخر، كلما قدر وجود تهديد بقيام حرب أهلية فيه، وصلنا إلى حرب الجميع ضد الجميع" ص173

"ومن بعد، فهل تتمتع الولايات المتحدة الأمريكية بالحق، أو هل لديها الكفاءة أو حتى واجب القيام بمنع حرب أهلية في العراق؟!" ص173

❖ "إن المسائل السياسية ليست بصورة عامة معقدة فكرياً. ولنأخذ فلسطين مثالاً: يمكن بكل بساطة المطالبة بتطبيق جميع قرارات الأمم المتحدة، ولا ريب في أن ذلك سيكون الحل الأكثر عدلاً، والذي لا يتطلب على كل حال جهداً فكرياً خاصاً. الأكيد أن ذلك مستحيل تحقيقه. لكن السبب يعود إلى علاقة القوة.وهنالك تحديداً تكمن المعضلة الحقيقية."ص177

❖ يتضاعف عدد المنظمات المتمركزة في الدول الغنية أساساً، وهي تراقب فتشجب خرق حقوق الإنسان في البلدان الفقيرة، ولا تقارب آيةإدانة لما تسببه الحروب العدوانية العسكرية من أي خرق لحقوق الإنسان، ويتذرعون بأن ذلك ليس حقل عملهم. في حين ينددون بخرق حقوق الإنسان التي تستجرها تلك الحروب،ولا يشمل عملهم المحرضين على الحرب التي تسبب الويلات.!!

❖ "شكلت حرب كوسوفو، بشكل خصوصي، ذروة عِقْدٍ من التطاحن لصالح "التدخل بصبغة إنسانية"... وكان من نتيجتها رؤية ازدواجية للصراعات اليوغسلافية، مع ميلوزيفيتش بوصفه الشرير الرئيس. فقبلت وسائل الإعلام وأوساط الرأي العام الغربية، ضمن هذا السياق، ودونما تردد، فكرة أن الإنذار الأخير الموجه إلى الصرب في رامبوييه، كان نتيجة "المفاوضات"، التي يعود فشلها إلى رغبة رئيس البلاد الواجب قصفها، وأن المعارك بين قوات الأمن والمتمردين المسلحين إنما هي "تطهير عرقي"، وانطلقت حرب لترغم الرئيس اليوغسلافي على تسليم بلاده للاحتلال من قبل الحلف الأطلسي.. فأضحت خلال مرحلة القصف.. حرباً ضد "إبادة" لم يكن لها من وجود قط. ص 163.

• غالباً ما يشار إلى موضوع خرق حقوق الإنسان بدلاً من الإشارة إلى القانون الدولي أو قرارات الأمم المتحدة؛ لكن احتلال الأراضي يولد دائرة من العنف ومن القمع الذي لا ينسجم مع حقوق الإنسان. وبالتالي فإن مبدأ العدالة الشاملة سيجعل السلاح هذا يرتد ضد الدول القوية، وضد أناس مثل شارون وربما بوش وبلير وسواهما. إن على ايديولوجية حقوق الإنسان أن تكون مصحوبة بإعادة كتابة التاريخ..

والمفارقة أنه كلما تقدمت الأخلاق نحو شمولية حقيقية، بما في ذلك أيديولوجيات حقوق الإنسان، توجب على السلطة أن تكون منافقة! لكن هذا النفاق يستلزم التنديد بالنفاق، وإزالة الوهم والضلال، ومواجهة وسائل الإعلام والمثقفين المسيطرين بالنقد.

وعلى الرغم من ظهور أمريكا قوة عظمى وحيدة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، فإن ظواهر عالمية تشير إلى أن هناك قوة عظمى أخرى هي الرأي العام العالمي الذي يواجهها. إن سلاح النقد يبرز ضد قوة الأسلحة، فإلى إي حد سيحظى بالنجاح؟!

والمشكلة هي كيف سيقبل الأمريكيون فقدان هيمنتهم؟! بهدوء أم بانفجار عنيف نووي؟!والتاريخ يشير إلى سقوط حتمي وكارثي للامبراطوريات، والخوف من هذا يطيل عمرها!

إن نظرة متفحصة للتاريخ البعيد تظهر أن الاستعمار على الأقل، باستثناء استعمار فلسطين، قد ألقي به في حاويات قمامة التاريخ بكلفة ملايين القتلى، وهذا أعظم إنجاز اجتماعي للإنسانية في القرن العشرين.

إن الرسالة الحضارية للشعوب التي استعمرت أوربياً، جعلت الاوروبيين ـ بتحررها من نيرهم ـ أقل عنصرية وأكثر تواضعاً وإنسانية؛ لعل ذلك يستمر، وينسحب ذلك على الأمريكيين أيضاً!

• "لقد شاءت المصادفة أن تقع تلك الاعتداءات في 11 أيلول؛ أي في ذكرى الانقلاب على أييندي، الذي لم يحدد فقط نشوءأول حكومة ليبرالية جديدة، هي حكومة بينوشيت، وإنما أيضاً بداية النهاية للحركات القومية والاستقلالية في العالم الثالث - أي بالإجمال الحركات التي نشأت

عن مؤتمر باندونغ - والتي سوف تنتهي كلها بالخضوع لإملاءات الولايات المتحدة وصندوق النقد الدولي. تذكرنا هذه المصادفة بأن النصر الذي حققه الغرب على الحركات السياسية المستقلة في العالم الثالث كان بوسائل قلما هي ديمقراطية: هناك بينوشيت طبعاً، لكن هناك أيضاً سوهارتو، واغتيال لومومبا، والجيوش الإرهابية في أميركا الوسطى، وأخيراً وليس آخراً، دعم المسلمين الأصوليين "الأخيار" في المملكة العربية السعودية وفي أفغانستان. والواقع أنه مادام ممكناً استخدام القوى الظلامية والإقطاعية، ضد اليسار السياسي، فقدكانت تستخدم بإفراط، وإذا ما تأكدت الاتهامات الموجهة ضد تلك القوى، فسوف يكون ملائماً أن نُعمل الفكر قليلاً حول هذه المهزلة العجيبة من التاريخ.".

ربما لم يكن في الأمر مصادفة، لأن الغرب لم يتورع عن التخطيط لقلب أية أنظمة حكم لا يراها تخدم أهدافه، أو يجد فيها تهديداً لمصالحه التي لا تهتم بمصير الشعوب وخياراتها الوطنية وخلاصها الأرضي، ولا يتوقف عن السعي في السر والعلن للإطاحة بأي حاكم يحاول الوقوف في وجه الأوامر "العلية"، وتختلف الوسائل، وتتعدد الطرق، وتتشعب الأدوات من الاغتيالات المباشرة، إلى التهم الحقيقية أو المفبركة، إلى الادعاء بحماية السلم العالمي، إلى حماية الأقليات، والقيام بالحصار الخانق الذي لا يطال عادة سوى الشعب المحدود الموارد والإمكانيات، والمقيد في الحركة والاحتمالات، ومروراً بتهييج فئات من الناس بحق ومن دون حق، وتحريضهم على التمرد السلمي والمسلح، مع دعمهم إعلامياً وسياسياً وميدانياً بالوسائل المتنوعة من اتصالات إلى أجهزة ومعلومات، ومن ثم السلاح، وتفعيل الخلافات الداخلية فتنوياً بإثارة الخصومات المذهبية والطائفية والعرقية، وتحمية الخلافات مع الدول المجاورة بإشعال الفتائل النائمة أو القائمة، وصولاً إلى التدخل الخارجي المباشر بقرارات من "الشرعية الدولية"، أو من دونها!

❑❑

قراءة في كتاب العقم الفكري الثقافي العربي

للدكتور

عبد اللطيف ياسين قصاب

□ نبيل فوزات نوفل

كما هو بارع ودقيق في تشخيص الأمراض واستئصال الخبيث منها من أجساد البشر ووصف الدواء المناسب للأمراض التي يعانون منها كذلك هو في كتابه الجديد العقم الفكري الثقافي العربي المكون من /318/ صفحة من القطع العادي والصادر في دمشق عام 2012م حيث رصد بعين الباحث المقتدر أمراض الأمتين العربية والإسلامية وشخص الأمراض المزمنة التي تعانيان منها ووصف الدواء المناسب الذي لم يستورده بل أخذه من صيدلية الأجداد الذين امتلكوا البصيرة والصدق والإيمان الحقيقي بأمتهم وقيمهم العربية والإسلامية، وراح الكاتب يجول بنا في تاريخ الأمتين العربية والإسلامية ويغوص في تفاصيل الواقع ليكشف لنا عن العقم الفكري والثقافي الذي أودى بالأمتين العربية والإسلامية إلى هذا الواقع المتردي القاتم والقاتل الذي نعيشه اليوم فمن خلال حديثه عن الإنسان بين الكم والكيف يرى: إن العقم الفكري هو أخطر بكثير من العقم الجنسي ويؤكد انه إذا اجتمع الكيف والكم في أمة، كان النجاح في الأمة مؤكداً! (ص7) ويدعونا إلى دراسة تاريخ امتنا العربية الإسلامية القديم، وكيف كان الفكر العربي الإسلامي في قمة النضوج ومن ثم بدأ بالتراجع حتى صار عقيماً ؟

ويستعرض حالة الأمية الثقافية التي تتفشى في المجتمع العربي والمتمثلة بقلة القراءة والإنفاق على البحث العلمي إذا ما قورنت بالبلدان الأخرى ويدعونا للتمسك باللغة العربية، ويؤكد على أهمية العلم والكتاب من خلال ضرب أمثلة على لسان كبار العلماء والحكماء العرب والأجانب مؤكداً **أن معركتنا الثقافية مع العدو لا تقل أهمية عن المعارك العسكرية والسياسية والاقتصادية .**

وفي حديثه عن الجاهلية والأدب الجاهلي وعن الخلفاء الراشدين ونضوج الفكر العربي الإسلامي يستشهد ببعض المواقف الخالدة والمعبرة التي تنمُّ عن عمق التفكير والنظرة المستقبلية لهؤلاء العظماء . **ثم ينتقل بنا الباحث ليحدثنا عن الدولة الأموية وفتوحاتها:** فيتحدث عن محاولة فتح القسطنطينية وشمال أفريقيا وبلاد ما وراء النهر، وبلاد الصين وبلاد السند وبلاد شمال أفريقيا والأندلس. ويرى الباحث أن انتصار بني أمية ، وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للارستقراطية الوثنية وهي التي جعلت الخلافة ملكاً" كسروياً " مستشهداً بقول معاوية " أنا أول الملوك" ويؤكد أن معاوية هو أول من جعل الخلافة وراثية في بيته ، بعد أن كانت بالانتخاب في قريش إبّان عهد الخلفاء الراشدين ويتحدث عن أهم رجالات الدولة الأموية وإنجازاتهم من أمثال: عبد الملك بن مروان و الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز و يزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك و مروان بن محمد ليصل بنا للحديث عن **أسباب سقوط الدولة الأموية :** والتي يراها المؤلف في تعصب الأمويين للعرب والعربية حيث أخذوا ينظرون إلى الموالي نظرة الاحتقار والازدراء مما أيقظ الفتنة بين المسلمين وبعث روح الشعوبية في الإسلام (43ص)

لينقلنا بعدها للحديث **عن الدولة العباسية وفتوحاتها** فيذكرنا بخلفاء العصر العباسي وأهمهم هرون الرشيد مؤكداً انه لم يكن على وجه الأرض دولة تضارعها في عظمة السلطان، وضخامة الثروة ونشر العلم والأدب وشيوع النعيم والترف ،واستتباب الأمن أما في العصر العباسي الثاني فقد تفوق العنصر غير العربي في الدولة حيث جاءت دولة العباسيين فارسية الصيغة من أول أمرها ولم يكن الفرس ولا الأتراك يخلصون للعباسيين خاصة ولا للإسلام عامة بل كانت لهم نزعات سياسية ودينية من شانها إضعاف الدولة العباسية إلى جانب سوء الحالة الاقتصادية وظهور الدويلات المستقلة وهذا برأي الكاتب من عوامل العقم الفكري الذي أصاب الأمة ويتمنى على العرب اليوم أن لا يقعوا في نفس الخطيئة من خلال الاستعانة بالأجنبي للحفاظ على كراسيهم وهذا ما يحدث الآن في العراق وفلسطين والسودان والآتي أعظم وأسوأ على بقية الدول العربية وحتى الإسلامية من تفتيت وتقسيم، إذا لم يتوقف العقم الفكري الثقافي عن استمرايته المأساوية، مع ضرورة انضواء الأمة العربية بكل طوائفها وأحزابها وإقليمياتها تحت راية واحدة، هدفها الوحدة العربية والقومية العربية بكل تصميم وقوة وتضحية ،(58). ثم يتحدث عن الفتوحات العباسية وصراعهم مع البيزنطيين وفتح مصر وبلاد المغرب والأندلس وبعدها يخصص بحثاً مهماً للحديث عن المفاهيم والأفكار العقيمة عن المرأة وكيف صححها الإسلام وبخاصة ما يتعلق بوأد المرأة، وعن الأنواع المتعددة للزواج ليصل إلى نتيجةٍ مفادها أن موقف العرب في الجاهلية من الأنثى كان موقفاً سلبياً قبيحاً (71) ثم

يتحدث عن رؤية الإسلام للمرأة بالشكل الحقيقي وليس كما صوره بعض الذين لم يفهموا الدين بشكل حقيقي حيث يؤكد أنه ليس في القران خط فكري يفصل بين الرجل والمرأة في المسؤولية ويذكرنا ببعض النسوة اللواتي كان لهن دور بارز من أمثال سمية أم عمار بن ياسر التي شاركت في الحرب واستشهدت في معركة اليرموك وكانت أول شهيدة في الإسلام ويرى إن هناك تكاملاً لا تماثلاً ولا تفاوت بين الجنسين(81) وإن تاريخ الواقع الإسلامي الحالي، وليس الإسلام الحقيقي، أبعد المرأة عن حركة الحياة وأهملها، وحصرها في دائرة حاجة الرجل (81) ويؤكد أن العادات السيئة لا تمت للإسلام بصلة ويدعو إلى التكامل لا التماثل بين الرجل والمرأة ولا ينسى في سياق بحثه الحديث عن تعدد الزوجات في الإسلام والمبررات التي أوجبت ذلك وخاصة تعدد الزوجات بالنسبة للرسول (ص).

وتحت سؤال هل يعيد التاريخ نفسه وما زال العقم الفكري العربي والإسلامي في ازدياد.. يحاول المؤلف الإجابة من خلال تذكيرنا بمناقب القادة العرب والمسلمين الذين كان لهم الدور الأساس في صنع الحضارة العربية وانتصارات العرب والمسلمين من أمثال **صلاح الدين الأيوبي** والذي تبين عند موته أن السلطان لم يكن يملك عقاراتٍ ولا بيوتاً ولا أراضي ولا جنائن ولا ذهباً ولا فضة في خزائن ما خلا ستة وأربعين درهماً نصيرياً أي اقل من ليرة إنجليزية (103) ويشير إلى الدور القذر الهمجي الذي قام به المستعمرون عبر التاريخ من أمثال هولاكو وجنكيز خان والتتر وكيف دمروا الحضارة العربية في بغداد ودمشق وأحرقوا المكتبات وكلّ القيم الحضارية ولا ينسى أن يذكرنا بالخونة الذين كانوا عاملاً مساعداً على الاحتلال . في الكثير من مراحل تاريخ الأمتين العربية والإسلامية ليخلص متسائلاً: هل يتعلم العرب والمسلمون من هذه الدروس؟ ويذكرنا الكاتب بكتاب جورج بوش (الجد الأكبر لجورج بوش الحالي) الصادر عام 1830م الذي تهجم فيه على الرسول الكريم والدين الإسلامي ومؤتمر كامبل 1905م الذي كان بمثابة مؤامرة العصر على العرب والمقررات التي نتجت عنه ما زالت تطبق حتى اليوم ويكشف الدور التآمري للدول الاستعمارية فرنسا وبريطانيا على العرب وقيام الكيان العنصري الصهيوني ، ويشير إلى أهم الوسائل التي اتبعتها الدول الاستعمارية لتحقيق مشاريعها على الأمتين العربية والإسلامية وأبرزها :نشر ثقافة الاستهلاك الجوفاء والمعلومات الفارغة وإثارة النعرات الطائفية والخلافات البسيطة وتضخيمها وإقامة الندوات والحوارات حولها وإلهاء الناس والمجتمع بقشور فكرية مضمونها التفريق وتفكيك البنية الاجتماعية للمجتمع العربي بمظاهر خداعة من ثرثرة بمصطلحات تحت عناوين تحديد النسل والانفجار السكاني والانفتاح على الأخر والحوار والمشاركة ويقود ذلك مجموعات مدربة نفسياً ومهنياً لإدخال المخططات والمفاهيم الثقافية الغربية المتصهينة لجعلها تسود المجتمع بعد تقويض مفاهيمه وتراثه وثقافته وهذا ما تم بالفعل والعقم الفكري العربي في حالة ازدياد (119) **ويشير إلى أهم عوامل التخلف عند** العرب والمسلمين، وأهمها: الكسل، وعدم إتقان العمل، وضعف الشعور بالقانون والنظام والمسؤولية تجاه المجتمع، وتبديد الوقت وجفاء العلم

والقراءة؛ وانحسار الوعي الحضاري والتركيز على الرد المنقذ؛ إضافة للفساد في مؤسسات الحياة كافة وبخاصة القضاء والعدل؛ والتعصب المذهبي المقيت؛ والإقليمية الضيقة مع ضعف توهج العقل وإصابته بالجمود ،مع الاعتماد على اليأس والاستهلاك وتمزق وحدة المسلمين والعرب وغير ذلك (132) ويتساءل ما **هو المخرج، وما هو العلاج؟ ويقترح بعض الآراء التي يراها سبيل الخلاص وأهمها أنّ وجود جبهة ثقافية قومية فاعلة ضرورة حيوية من أجل القيام بدور مؤثر في تعزيز الهوية ومقوماتها والدفاع عن خصوصية الثقافة العربية وقيمها ، ومتابعة تطوير القدرات العلمية والمعرفية والمعلوماتية واستمرار مواكبتها للعصر وتوفير الإمكانيات والأدوات العصرية للتعامل باقتدار مع التحديات المطروحة ومنها التغيير والإصلاح والتطوير والتحديث في البنى التربوية والتعليمية والإدارية والمالية وفي الخطاب الثقافي والسياسي والإعلامي والديني(134)**

وتحت عنوان ليتعلم العرب الدرس حتى يخف ويتراجع العقم الفكري الثقافي العربي

يقف محللاً تاريخ وأفكار بعض المفكرين الغربيين ذات التوجه الاستعماري العدائي للعرب والمسلمين وأكثرهم خطورة والتي تعد البوصلة لمراكز صنع القرار في الدول الاستعمارية فيبين **وثيقة برنارد لويس** في تقسيم الدول العربية والإسلامية حيث بدأ المؤرخ الصهيوني المتأمرك بوضع مشروعه الخاص بتفكيك الوحدة الدستورية لمجموعة الدول العربية والإسلامية جميعاً كلاً على حدة، ومنها العراق وسورية ولبنان ومصر والسودان وإيران وتركيا وأفغانستان وباكستان والسعودية ودول الخليج العربي ودول الشمال الأفريقي وتفتيت كل منها إلى دويلات وكانتونات عرقية ودينية ومذهبية وطائفية ولقد وافق الكونغرس الأمريكي على هذا المشروع عام 1983م ويتابع المؤلف في كشف خفايا هذا المشروع وخطره على الأمتين العربية والإسلامية بالتفصيل كما يستعرض بعض الأبحاث والكتب المهمة لكبار الباحثين الغربيين من أمثال بول فندلي من خلال استعراض بعض الكتب المهمة له والتي تبين التآمر الإمبريالي الصهيوني على الأمتين العربية والإسلامية ، وكذلك يستعرض بعض كتابات المفكر الأمريكي بول كينيدي وتصريحاته التي تؤكد أن أمريكا دولة استعمارية معادية للعرب والمسلمين وبعد هذا يتوصل الكاتب إلى نتيجة يلتقي بها مع بعض المحللين الكبار مفادها أن القوة العظمى تتوجه للانحدار وان أمريكا لن تبقى قوة القطب الأوحد نتيجة صعود قوة كبرى جديدة مثل روسيا والصين والهند ودول أخرى بالإضافة إلى ما تعانيه من مشاكل على الصعيد الداخلي وخاصة في الاقتصاد والبنية الاجتماعية والأخلاقية وغيرها

وتحت عنوان: العقم الفكري الثقافي العربي وقافة الاستسلام

يرى الكاتب أن العرب اليوم، نتيجة عقمهم الفكري الثقافي، ونتيجة مصالحهم الزائفة وأنانيتهم، أصبحوا على هامش التاريخ، فالدولة القطرية المتكونة و نتيجة استعداد المسئولين العرب للتقسيم وغياب الوعي القومي الفكري عندهم تعيش عهر الحضارة وبؤس الثقافة وتتنافى مع أرومة العروبة والإسلام و وتتناقض مع سير التاريخ الإنساني المتحضر (179) ويتحدث عن بعض الكتاب العرب المصابين بالعقم الفكري والثقافي وثقافة الاستسلام من أمثال **صالح الشايجي، وسالمي النصف وسعيد عقل والكاتب العراقي كنعان مكية وحازم صاغية وصالح بشير وعفيف الخضر** وغيرهم من هؤلاء الذين يدعون إلى التطبيع مع الكيان العنصري الصهيوني ويهاجمون العروبة واللغة العربية ويتنازلون عن فلسطين . وبعدها يخلص إلى سؤال: من هو المثقف الذي تريده الأمة ، ويعرفه بأنه الذي يؤمن إيماناً صادقاً بتاريخ أمته وتراثها، لا أن يؤمن بعكس ذلك وإلا أصبح أخطر على أمته من أشد الأسلحة فتكاً، والمثقف هو الذي يوظف ثقافته في مصلحة أمته لا أن يملكها فقط أي يتطرق إلى الحرية والديمقراطية التي تبيح له أن يُعبر عن نفسه بكل وضوح وصراحة ثم ينهي كلامه عن العقم الفكري الثقافي وثقافة الاستسلام فيما تناوله بعض المخلصين لبلدهم وقوميتهم من أبناء الأمة العربية.

وتحت عنوان اغتيال العراق أمريكا والعراق وكذب ونفاق بوش

يبين الكاتب الهدف الرئيس لاحتلال العراق وتدمير قوته وهو خدمة الكيان العنصري الصهيوني في فلسطين والاستمرار في السيطرة على مصادر الطاقة في الوطن العربي ويؤكد كذب ما ذهبت إليه الإدارة الأمريكية وحلفاؤها ضد العراق وقيادته مستشهدا بالعديد من المقالات والكتب لمفكرين وصحفيين غربيين ويؤكد على الدور الصهيوني في الحرب على العراق وقتل علمائه وخبرائه وسرقة أثاره وعلى استخدام أمريكا وبريطانيا لشركات المرتزقة الخبيرة بالقتل والتدمير والإجرام. وتحت **عنوان المخطوطات العربية تراث تلقفه الغرب بعدة وسائل** يتحدث الباحث عن كيفية خسارة العرب مخطوطاتهم العربية ويذكر وسائل عدة أهمها: جيوش الاستعمار و البعثات البابوية ورغبة ملوك الغرب باقتناء المخطوطات، والطرق الدبلوماسية ورحلات الاستشراف، والإهداء الذي قام به سلاطين بني عثمان، ونقل العرب مخطوطاتهم بأنفسهم وبيعها للغرب، والقرصنة والسرقة وتجار وسماسرة المخطوطات، وهواة جمع الآثار والتحف وخيانة أمناء المكتبات حيث يتحسر الكاتب في ختام بحثه على كنوزنا التي سرقها الغرب ونحن نيام إنها مصيبة كبرى ورزية عظيمة أصابت الأمة ويتساءل بمرارة: فهل هناك عقم فكري وثقافي عربي أكثر من هذا؟! ويفرد بحثاً **بعنوان العبث العلمي والأخلاقي والإنساني ونهاية القطب الأوحد أمريكا** يكشف فيه

عن الانحدار الأخلاقي التي وصلت إليه بعض المجتمعات الغربية من خلال حمل الرجال الذي يسميه عبث شيطاني (258) ويبين أن الحضارة الغربية همشت المرأة إلى حد أصبحت عضواً أقل من عادي في المجتمع بل حتى في الوظائف ويكشف عن حالات التهور الخلقي وانتشار الزنا والاغتصاب، وانتشار تجارة الرذيلة والجنس في العالم حيث أصبحت مافيا الرقيق تنافس مافيا المخدرات، وهذا هو الوجه الآخر للولايات المتحدة الأمريكية وتحدث عن الاختراقات الصهيونية للمجتمع الأمريكي والأمراض التي تعاني منها الإمبراطورية الأمريكية ليصل على نتيجة أنها بدأت مرحلة الضعف ولم تعد القطب الواحد وإن الانهيار والإفلاس الأمريكيين قادمان، والمسألة مسألة وقت وفي الختام يؤكد الباحث أن أية حضارة تفقد عامل الإيمان والأخلاق والروح الإنسانية ، فإنها تذبل والغرب الآن (إسرائيل وحاضنتها أمريكا) بالذات، ليست لديه حضارة، وإنما عنده مدنية، وهي مؤقتة وتحمل معها عوامل التغيير والتبديل لأن الحضارة نمط من السلوك، مؤسس على مجموعة من المبادئ والمجتمع الغربي قد غرق في مستنقع الجريمة والانحلال والتفكك الاجتماعي بسبب طبيعة الأنظمة الاقتصادية التي تحكم الغرب.

في الختام نقول: لقد عبر الكاتب عن عمق انتمائه لأمته وقيمها العربية والإسلامية وصدق الوفاء فرصد بعين العُقاب مشاكلها ورسم الطريق للخلاص من الواقع العقيم ليس في الفكر فقط بل في محالات الحياة كافة من خلال ثقافة موسوعية وتجربة حياتية كبيرة ومعرفة عميقة بتاريخ أمته من خلال قراءة موضوعية بعيدة عن التعصب مليئة بالأمل ويؤكد أن أبناء هذه الأمة قادرون على النهوض بها والتصدي لكل العابثين بحضارتها ووجودها لقد اجتهد فأصاب ومن اجتهد وأصاب له أجران. إنه كتاب قيم يضاف للمكتبة العربية كتبه المؤلف بمآقي العيون ولهفة القلب على أمته وهو يستحق منا كل التقدير والامتنان .

❑❑

متابعات

خطاب الوطن

□ يحيى أحمد عيسى

تمهيد:

يعتبر خطاب الرئيس الأسد أمام مجلس الشعب بتاريخ 3 /2012/6 منهجاً ودليل عمل وبوصلة توجه ودستور وطن.

والخطاب خطابان (خطاب العقل وخطاب القلب) والعقل والقلب اختص بهما الإنسان ليسمو فوق سائر المخلوقات الأخرى، وخطاب العقل يعتمد على المعرفة والدراية ويتصف بالموضوعية والدقة والأمانة والبعد عن الأحكام المسبقة والوقائع غير المثبتة والمعلومات غير الموثقة وكذلك يعتمد على الحرية، حرية الفكر والرأي دون تأثر بهوى أو عاطفة أو موروث أو اعتقاد أو مذهب أو طائفة أو عشيرة وهنا يتطلب الأمر الجرأة في الخطاب والترفع عن كل ما يلوثه ويطعن في مصداقيته ونزاهته، وخطاب العقل بهذه الصفات والمقومات لا بد سيدخل عقول الآخرين وقلوبهم ويصبح هو المقبول.. والمرضي.. والمقنع ويصبح أيضاً المعلم والموجه والمصحح وإن بشكل نسبي لأن الخطاب لا يمكن أن يحيط بكل شيء ولا يمكن أن يرضي كل من يسمع أو يحتج أو ينتقد وعلى مبدأ أن إرضاء الناس غاية لا تدرك وخاصة بوجود المنكر والحاقد والمتآمر ومن لا يقبل التعلم.

وخطاب العقل يكون للأبناء في أسرة واحدة ويكون للتلاميذ والطلبة في حلقة الدرس ويكون لجماعة من الناس تعمل في مجال ما كالجيش والعمال والفلاحين أو التجار والأطباء والمحامين إلخ... ويكون الخطاب للوطن عندما يسمو إلى درجة الوطن الرفيعة وتكون كل كلمة فيه وكل عبارة تنبض بحب الوطن، تبنى على البناء وتؤسس للجديد، تتلمس مواضع الخلل بغية إصلاحه ومواضع الوجع كي تشفيه وتبعده ومكامن الفساد كي تجتث منابعه.. يكون الخطاب للوطن عندما يهدف إلى رفع شأن الوطن والحفاظ على مكوناته حاضراً ومستقبلاً ويكون للوطن أكثر عندما يشكل بوصلة لأبنائه تدلهم على الاتجاه الصحيح إذا فقد بعض أبناء الوطن اتجاههم بعيداً عنه.

ـ أما خطاب القلب فهو الخطاب الذي تغلب عليه العاطفة ويغلفه الحب وهو كذلك خطاب للأبناء والبنات وللجماعات الأخرى في ساحة الوطن ويكون خطاباً للوطن عندما يكون نابعاً من القلب، القلب المحب العاشق الصادق الفادي للوطن، الخطاب الذي يحرك العواطف الطيبة النبيلة لا الغرائز الدنيا الوضيعة ولا يوجد إنسان يمكن أن يتجرد من العاطفة فالقلب الإنساني تسكنه العواطف الإنسانية ولذلك فلا نأتي بجديد عندما نقول: أنه لا خير في القلوب القاسية، وعندما نقول: لا خير في عين لا تدمع ولا في قلب لا يخشع.. فالإنسان بالفطرة مجبول على المحبة وعلى الأنسنة والاجتماع وعلى التسامح والتراحم إلا قليل من بنيه فقدوا هذه الخصال الطيبة وتحولوا وحوشاً ضاريةً قد تؤذي نفسها إن لم تجد ما تؤذيه وهنا يكون دور وواجب القانون والقائمين عليه في ردع هؤلاء وكفّ شرهم عن المجتمع.

ـ توقيت الخطاب: الخطاب الذي مهدت للحديث عنه وربما تجرأت على ذلك لأنني لست بالناقد الذي يسمح له بالكلام عن العبقرية والإرث المعرفي والأخلاقي الرفيع لصاحب الخطاب، ولكن ليسمح لي ويعذرني الدكتور بشار الأسد إذا ما تناولت الخطاب مفنداً ومحللاً ما قدر لي في ذلك وأسعفتني ثقافتي وتجربتي المتواضعة، ورأيت أن أسميه خطاب الوطن.

لقد تابعت الخطاب كلمة كلمة ثم سمعته مرة ثانية وكأنني لم أسمعه من قبل ذلك أبداً.. دمعت عيناي ونظرت حولي تحسباً من أن يراني أحد أبكي ولا يعرف السبب ولا يدرك ما بقلبي من معانٍ وهواجس وآلام حركتها كلمات الدكتور بشار المؤثرة الكبيرة المقاصد والأهداف والموجهة إلى قلوب وعقول السوريين كل السوريين.

بكيت نعم، بكيت على وطني، على أهلي، على حالٍ صرنا إليها لا تسرّ صديقاً ولا تطرب إلا أعداء الله وأعداء البشر، بكيت على كل سوري لا يرى في الرئيس رئيسه ولا يرى في الوطن وطنه ولا يرى في السوريين كلّ السوريين أهله وذويه، بكيت على جهد وتعب وسهر الرئيس خلال سنوات مضت بقلب نقي ويد نظيفة وعقل منفتح ولسان صدق وإن كان لا يعجبني ولا يعجب الكثيرين من أهل سورية ما وصلنا إليه من فساد وإفساد؛ ولكنّ ما لا يعجبني ويروقني يجب أن يكون أقل بكثير

من قضية وطني فقضية الوطن مقدسة ولا شيء يعلو فوقها أو يرتفع إلى الدرجة السفلى من سلَّمِها، بكيت على جهد الرئيس وعلى نواياه ومصداقيته ونظافة مدرسته وإرثه العائلي والوطني حين توجه له أو لما بناه أو نواه أية إشارة سوء أو اتهام باطلة لا يستحقها فلا تزر وازرة وزر أخرى ومن عمل مثقال ذرة خيراً يره ومن عمل مثقال ذرة شراً يره.

وكي لا أُفهَم خطأ أقول: بكيت كما غنت فيروز لا حزناً ولا فرحاً بكاء المتفائل المؤمن بوطنه وأهل وطنه الشرفاء.. بكاء المدرك لهدوء الرئيس وثقته بنفسه ووطنه بكاء المطمئن على الانتصار وعلى الخروج بسورية أكثر أمناً وأكثر قوة ومضاءً وأكثر لحمة والتحاماً بين أهليها ومواطنيها.. جاء الخطاب بتوقيته في بدء الدورة التشريعية الأولى لمجلس الشعب السوري وبعد مجموعة من الإجراءات الإصلاحية الهامة بدأت بالدستور والتعددية السياسية ولن تنتهي بانتخاب مجلس الشعب الجديد الذي ضم مئتين وتسعة أعضاء جدداً بين عديده وتم ذلك في وقت تصاعد فيه الإرهاب وتكالب الأعداء وزاد سعارهم على سورية وشعبها فالخطاب جاء بعد أن تكشفت كل أوراق الاستهداف للوطن في الداخل والخارج وبعد أن تعرت الأهداف وبانت الحقيقة وتنخل الناس بمنخل الشرف والوطنية فسقط من سقط وسما من سما وعلى رأس من سما هؤلاء الشهداء العظام الذين قدموا أعز ما يملكون في سبيل سورية حرة سيدة مستقلة فلهم التحية ولهم الخلود.

جاء الخطاب بعد أن ظهرت الألوان البيض والسود والرمادية واتضح هدف الدعوة إلى الحرية من أشخاص يعرفون ويسعون لتحقيق أهداف تذهب بحرية الوطن كله إلى المجهول وأشخاص لا يعرفون المقاصد وآخرين ابتغوا أجر ما يدعون إليه وحسب...

جاء الخطاب بعد أن اتضح اللون الرمادي الذي لا يقل خطورة عن اللون الهدام العامل المتعمد للإطاحة بالوطن دولة ومؤسسات، اللون الرمادي الذي لا يميز بين الرمادية السياسية والرمادية الوطنية كما قال الرئيس إذ أن الرمادية السياسية أمر طبيعي الوجود أما الرمادية الوطنية فهي الخيانة بلبوس آخر فلا حيادية ولا رمادية حيال قضايا الوطن ولا حيادية ولا رمادية عندما يكون الوطن هو المستهدف فهل يعقل أن يتفرج إنسان على أهله وهم يذبحون أو على شرفه وهو يغتصب أو على وطنه وهو ينتهب؟!...

جاء الخطاب بعد أن اتسعت دائرة التآمر الداخلي والخارجي على سورية الوطن ولكن أشخاص الدائرة باتوا معروفين ويمكن الإشارة إليهم باللسان الفصيح وبالقلم والأكف ولم يعد لأحد عذر أو مبرر ولا لأحد حجة أو حاجة في استمرار ما يجري من دمار للوطن وللأسف أن تكون الأدوات في جريمة التدمير هم من أبناء الوطن...

وبعد أن اتضحت وظهرت بجلاء رموز المعارضة في الداخل والخارج ولا يجوز أن نقول معارضة إلا للوطنية الشريفة منها والرئيس أولها وسيدها وقد باتت واضحة جلية دلت على نفسها بنفسها ودخل نواب عنها مجلس الشعب الجديد كما قال الرئيس الأسد...

أما المعارضة الخارجية التي ارتهنت للأعداء ودعت لتدخّلهم في سورية فهي مجموعة عملاء أجراء لا يمتون للوطن بصلة فهم يقبضون المال لقاء التآمر على وطنهم وأهلهم وهم رخيصون محتقرون من قبل الشعب ولو جاؤوا إلى الوطن وخاضوا معركة الانتخابات لما نالوا صوتاً واحداً ولذلك هربوا عندما دعيوا للانتخاب وللحوار لا بل زادوا على ذلك إذ سخروا من الانتخابات وادّعوا أنها تمثيلية كاذبة وأن الشعب لم ينتخب وهم الذين دعوا وحرضوا لمقاطعة الانتخابات.

كما جاء الخطاب بعد أن بذلت كافة الجهود والأساليب للحفاظ على الدماء وإن كان على حساب دم الجيش والأمن والشرطة الذين لم يواجهوا بالسلاح إلا بعد انقطاع الآمال بعودة المنحرفين عن غيهم وشذوذهم وارتمائهم في أحضان من وعدوهم بالجنة وضحكوا عليهم وسخروا منهم وبعد أن صدرت أربعة مراسيم تقضي بالعفو عمن يحمل السلاح ويسلم نفسه ويتراجع عن خطئه...

جاء الخطاب بعد أن أصبح العدو الحقيقي للشعب في الداخل ولم يعد الأمر متعلقاً بإسقاط نظام أو تنحي الرئيس أو الحرية والإصلاحات كما رفعوا من شعارات كتبت لهم بل صار الأمر عداءً سافراً للوطن كله دولة ومؤسساتٍ؛ وإلا فلماذا ضرب أنابيب الغاز والنفط ولماذا ضرب سكك الحديد وحرق المؤسسات والمشافي وقطع الطرقات والسلب والخطف وغير ذلك من أفعال لا يقدم عليها إلا من أراد تدمير الوطن.

أصبح العدو في الداخل وتعرى.. عرف أشخاصه وداعميه وممولية وانكشفت أوراقهم وعوراتهم بالأدلة القاطعة والبراهين الصادقة، أدوات تفجر الوطن في الداخل وأعداء وعملاء يخططون ويسلحون ويمولون في الخارج وقد أشار الرئيس إلى ذلك بقوله: إن سورية تواجه حرباً حقيقية في الخارج ومشروع فتنة وتدمير للوطن أداته الإرهاب ويعني في الداخل .../انتهى الاقتباس/

ولم يعد لمجلس جامعة الدول غير العربية ولا لمجلس الأمن من مهام أو وظائف سوى الاجتماع لاتخاذ قرارات ضد سورية وشعبها وفي خطبهم يتباكون على الشعب السوري أما في الحقيقة فهم حاولوا يائسين تدمير سورية وشعب سورية من خلال المقاطعة والعقوبات وطرد السفراء وإغلاق السفارات وتمويل وتسليح المعارضات وعقد المؤتمرات التي أسموها مؤتمرات أصدقاء سورية وهم أعداؤها الحقيقيون.

حتى الإعلام السوري لم يسلم من شرهم وهم الذين يتهمون الإعلام السوري بالكذب فإذا كان كذلك كما يدَّعون فلماذا يعملون على إسكاته وإخفات صوته وإذا لم يكن الإعلام السوري يؤلمهم ويفضحهم ويقضّ مضاجعهم فلماذا يسكتونه ويمنعون وصوله للناس؟!..

وجاء الخطاب الرئاسي أيضاً بعد طول أزمة وطول معاناة، أزمة طالت وارتكب فيها التكفيريون ما لم يرتكب في التاريخ من مجازر وإجرام بحق سورية وشعبها وهنا يقول الرئيس: إن الأزمة طالت بما فيه الكفاية لكي يتعلم أي شخص ومن لم يفهم حقيقتها فهو غير قابل للتعلم... /انتهى الاقتباس/ نعم من يظن أن الهدف مما جرى ويجري هو الحرية والديمقراطية والإصلاحات

بعد كل ما حصل من قتل وهدم وتخريب فهو شخص غير قابل للتعلم، من يظن أن الهدف هو إسقاط الرئيس وليس إسقاط وتقويض سورية الوطن والتاريخ والإنسان فهو غير قابل للتعلم، من يظن أن ضرب خطوط الغاز والنفط والكهرباء وحرق المشافي والمدارس والمؤسسات هو في مصلحة سورية فهو جاهل أحمق غير قابل للتعلم أو مأجور موتور حاقد لن يتعلم ومن يظن أن تقسيم سورية وإشعال حرب طائفية مقيتة فيها هو في مصلحة سورية أو هو خارج مخططات أعدائها فهو شخص أبله غير جدير بحمل الهوية السورية وهو شخص غير قابل للتعلم.

جاء الخطاب بعد أن تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود وجاء مناسباً تماماً للمرحلة حيث وضع النقاط على الحروف ووضح للقاصي والداني حقيقة ما جرى ويجري ووضع السوريين في حدود مسؤولياتهم وواجبهم التاريخي وفرز الحنطة عن الزوان ووعد واثقاً كل السوريين بعودة الأمن والأمان ولذلك ليس صحيحاً القول وإن كان من قبل أشخاص وطنيين وقد ذهلوا بخطاب الرئيس واعترفوا بأن الخطاب رائع وكان مناسباً أن يُلقى قبل هذا الوقت ليعطي المفعول والمدلول أكثر... أقول جازماً إن توقيته صحيح ولا يمكن أن تقال الحقيقة إلا بعد جلائها.

الشهادة والشهداء في خطاب الوطن:

الشهداء مشاعل نور تهدي إلى الحرية والسيادة وتصون الأرض والعرض وتبذل غالياً نفيساً غير ما يبذله أوفى الأوفياء لوطنه ومهما بلغ ما يبذله... تبذل الدم وتقدم الحياة عربوناً لحياة الوطن وأبنائه، فالشهداء واحد في القيمة والكرامة ومقدار التضحية وإن اختلف العسكري ورجل الأمن عن المدني من حيث أن رجالَ الجيش والأمن قد احترفوا عملهم وسخروا أنفسهم له فهو واجبهم من باب أولى... الفرق ليس في الشهادة وبين الشهداء بل الفرق في أسلوب القتل وهدف القتل عند القتلة وقد تبين قذارة الأسلوب وانحطاط الهدف لدى الإرهابيين فهم لم يميزوا بين مدني وعسكري أو بين طفل وشاب أو شيخ وامرأة.. قتلوا دون تمييز وبغير رحمة وقتلوا لأهداف دنيئة جداً مثل قتلهم لأقاربهم وأبناء حيهم لأنهم لم يستجيبوا لرغبتهم في إعلان العداء للدولة وللقانون ولم يوافقوهم على الخروج للتظاهر الغوغائي المدان أو تقديم المال بحجة دعم الثورة التي ادعوها وقتلهم لأقرب الناس إليهم بحجة أنهم يتعاونون مع الأمن ثم قتلوا أبرياء لم يستجيبوا لرغبتهم في إغلاق محلاتهم أو أكشاكهم وإعلان إضراب قسري مزعوم وتصويره وإرساله لفضائيات العدو على أنه إضراب ضد الدولة... ثم تناولوا موظفي الدولة وقتلوا بعضهم بالرصاص وقتلوا بعض من رشحوا أنفسهم لانتخابات مجلس الشعب حتى أن بعض من المرشحين انسحبوا صوناً لدمائهم من الهدر على يد هؤلاء السفلة.

لم ينسَ الرئيس في خطاب الوطن شهداء الوطن ومنهم هؤلاء الذين استهل خطابه بالترحم على أرواحهم وهم الذين رشحوا أنفسهم للانتخابات في مجلس الشعب ولم ينسحبوا خوفاً من تهديد القتلة فقتلوا... استشهدوا في سبيل هدف نبيل هو تمثيل الوطن والدفاع عنه معارضة كانوا أم موالاة، أما

القتلة فقتلوهم لهدف دنيء قميء جبان وضيع... لم ينس الرئيس أن يفرق بين هؤلاء الشهداء الذين قدموا دمهم على مذبح الوطن في سبيل إعلاء شأن الوطن بالحكمة والكلمة والرأي والموقف ولم يكونوا رجال أمن أو جيش أي أن تكون مهمتهم الطبيعية أن يقاتلوا ويقتلوا... لم ينس الرئيس أن يقدم ويستهل كلامه عنهم قبل أن يتكلم عن أصحاب المهمة في الدفاع والقتال عن الوطن وهذا تمييز عاقل حكيم يرى بعين الصدق والحق ويسمع بإذن العدل والمنطق ويتكلم بلسان الناس كل الناس ولا عجب في ذلك لأنه رئيس الوطن كله وليس رئيس فئة أو حزب أو جماعة أو طائفة.

ثم قدم الرئيس تعازيه ليس لذوي الشهداء وعائلاتهم لأن الأمر هذا بديهي ويعرفه العامي والأكاديمي... قدم الرئيس تعازيه للعائلة السورية الكبيرة وفي ذلك معنى كبير وقيمة عليا وإحساس يفيض بالنبل والوطنية..

يقول الرئيس: عزاؤنا الوحيد وأنا لا أتحدث هنا عن عائلاتهم (أي عوائل الشهداء) وإنما أتحدث عن العائلة السورية الكبيرة.

ثم أردف قائلاً: عزاؤنا الوحيد جميعاً أن يعود وطننا سليماً معافى وأن ينعم أبناء هذا الوطن بالأمن والسلام والطمأنينة والاستقرار... /انتهى الاقتباس/.

العائلة السورية الكبيرة التي تضم كل الشعب السوري... هذا ما عناه الرئيس الأسد ومعنى العائلة كبير يحمل الحب والعاطفة والرحمة والتسامح والتناصح واحترام الكبير والشفقة على الصغير العائلة السورية كما سماها الرئيس وهو مؤمن أن سورية عائلته الكبيرة المؤلفة من أب وأم وأخوة وأخوات فهل من مقصد أشرف ومن مطمح أعظم ومن رغبة أنبل من أن يكون الرئيس أباً وأخاً للجميع وأن تكون سورية عائلة واحدة لا يفرق بين أبنائها أحد مهما بلغ من القوة والحقد والتآمر...

العائلة السورية الكبيرة وعزاء الرئيس لها باستشهاد وفقد أبنائها قيمة كبرى وشعار مقدس يجب أن يرفع فوق كل قمة وعلى كل هامة ويجب أن يكتب بماء الذهب في كل مكان وأول الأمكنة الواجب أن يكتب فيها وعليها هو قلوب السوريين كلهم أبناء هذه العائلة العظيمة.

حب الوطن مسؤولية: لا يكفي الكلام عن حب الوطن وعن الولاء له فنحن وللأسف مازلنا نتشدق بالحديث عن الوطن واستعراض بطولات وهمية لا تتجاوز اللسان ومازلنا نكيل الاتهامات لبعضنا في مزاد محبة الوطن وكأننا نمنّ على الوطن بمحبتنا.

الوطن بحاجة إلى الأفعال لا الأقوال، بحاجة إلى من يبني لا من يقول كي يقول، بحاجة إلى من يزرع أكثر من حاجتنا لمن يأكل، بحاجة أن نعطي قبل أن نأخذ وأن نفكر بالعطاء قبل أن نفكر بالأخذ وأن نسخر كل جهدنا للإنتاج لا أن نضيع الوقت في الكلام والنقد والمهاترات... هكذا

يكون حب الوطن، والوطن ليس بحاجة للمديح ولا للمباريات الكلامية في إظهار محبته وكما قال الله تعالى: ﴿وقل اعملوا﴾.. ولم يقل: وقل قولوا.

من هنا تكون محبة الوطن مسؤولية وواجباً والتزاماً ويكون المنصب تكليفاً لا تشريفاً وهذا ما أشار إليه الرئيس في خطابه لأعضاء مجلس الشعب الجديد حين قال: إن مجلس الشعب هو مجلس كل الشعب فهو مجلس المزارع الحالم بمحصول أفضل وهو مجلس الفلاح الماسح عرق الجبين ليطعم أبناءه وأهله ومجلس الموظف الكادح الممسك بيد ابنه يرافقه إلى المدرسة ليكون مستقبل أولاده أكثر أمناً واستقراراً ورفاهية، وتابع الرئيس كلامه: إن المجلس هو مجلس الجندي والمثقف والمتعلم والطبيب والمهندس والمحامي والصحفي وهو مجلس المرأة التي ما برحت تتقدم وتتطور... /انتهى الاقتباس/.

لقد أراد الرئيس إيضاح أمور بالغة الأهمية بالنسبة للمواطن السوري وفي مقدمتها أن مجلس الشعب يجب أن ينتقل من مجلس للكلام إلى مجلس للفعل ومن مجلس لا يكاد يمثل نفسه إلى مجلس يمثل كل الشعب ومن مجلس تنحصر مهمة أعضائه في نقل هموم الناس للسلطة التنفيذية إلى مجلس تفاعلي تشاركي.. إلى مجلس يفكر ويخطط.. يتابع ويراقب ويحاسب. دعا الرئيس في خطابه إلى تفعيل دور المجلس من خلال تفعيل دور أعضائه وتفعيل دور الأعضاء يكون بالتفكير والمتابعة والمراقبة والتشارك مع السلطات الأخرى في إيجاد الحلول وخلق فرص وإمكانات التطوير وليس بالكلام أو الصمت السلبي غير المجدي... لاحظوا قول الرئيس: تخيلوا عندما يكون لدينا بدلاً من عشرات الوزراء يفكرون ويخططون في مؤسسة مئات من الأعضاء مع العشرات يخططون ويفكرون وينفذون بكل تأكيد عملية التطوير ستكون أكثر إنجازاً وأكثر فاعلية... /انتهى الاقتباس/.

هنا تكمن المسؤولية الفعالة المسؤولة عن بناء الوطن... الكل يجب أن يفكر لا أن ينتقد وحسب... هناك في الوزارة ثلاثون وزيراً بينما في مجلس الشعب مائتان وخمسون عضواً أي ثمانية أضعاف عدد الوزراء ثم إن الوزارة ليست ملك أحد والوزير مسؤول وعليه عبء إنجاز مهام وزارته وهي مسؤولية وطنية وأخلاقية حتى إن اسم الوزير جاء من الوزر أي العبء والمسؤولية وبالتالي فإن مسؤولية أعضاء مجلس الشعب هي تفاعلية تشاركية مكافئة لمهمة الوزراء ومكملة لها إذا أردنا أن نفكر بالوطن وهمومه لا بالأشخاص وبالمنافع الشخصية الفردية.

وعضو مجلس الشعب ليس ممثلاً عن منطقته أو عشيرته أو من انتخبه بل إنه بمجرد وصوله إلى تحت قبة مجلس الشعب يصبح ممثلاً للشعب السوري كله ويتحمل الأمانة والمسؤولية الأخلاقية والوطنية أمام الشعب السوري كله وهذا يتطلب من الجميع الانتقال سريعاً من حالة التفكير القاصر غير المنتج إلى التفكير الجاد الفعال بالوطن كله بعيداً عن الأنانيات أو الاستعراض والخطابات وكيل النقد أو المديح لزيد أو عمر... لقد مررنا بمرحلة طويلة كنا فيها عندما نذكر مشكلة أو حالة سلبية أمام وزير أو مسؤول فيجيب أو يعلق وكأنه لا علاقة له وأنه سمع مثل غيره وهكذا... كأن الكل غير مسؤول فمن المسؤول إذاً؟ إن الارتقاء إلى الحالة الوطنية والتفكير

الصادق في قضايا الوطن يرتقي فوق كل هم وكل واجب لأن الوطن عندما يكبر ويقوى يكبر الجميع ويقوى الجميع وعندما نحمي الوطن نحمي كل شيء وليس العكس فالمنافع الشخصية والثروات الخاصة لا تبقى ولا تنمو بغير وطن قوي سليم معافى يحفظ كرامات الجميع ويحقق العدل والمساواة للجميع ولا يكون ذلك إلا بالترفع عن الصغائر والانتقال إلى التفكير بالوطن وتقديم كل ما يتعلق بالوطن والملك العام على سائر ما سواها.

وفي هذه الظروف العصيبة التي تمر بها سورية يجب أن نخلق حالة من الاستنفار والاستنهاض لكل القوى والوسائط والإمكانات الكفيلة بدحر العدو في الداخل أو في الخارج ومن في الداخل أشد خطراً ممن في الخارج وأولى بمواجهة حاسمة خاصة وأن هذا العدو يحمل الفكر الرجعي المتخلف ويدعو إلى الاقتتال الطائفي ولا يوفر وسيلة تدمر سورية إلا ويستخدمها وهنا تكون مهمة ومسؤولية المجلس الجديد كبيرة جداً ومختلفة جداً عمن قبلها فالمسؤولية هنا مسؤولية بناء وتطوير بالتوازي مع مسؤولية مواجهة قوة عملية قذرة تدفع باتجاه تدمير بنية الدولة السورية وإنهاء دورها المقاوم...

يقول الرئيس: اليوم تبدؤون دوركم التشريعي في مرحلة مفصلية تتجاوز خطورتها ما واجهته سورية منذ جلاء المستعمر الفرنسي.. وهذا يتطلب منكم دوراً استثنائياً للتعامل مع قوتين متعاكستين: الأولى تدفع إلى الوراء بما تحمله من محاولات لإضعاف سورية وانتهاك سيادتها من قتل وتخريب وجهل وتخلف وارتهان البعض للخارج والثانية تدفع باتجاه الأمام بما تحمله من تصميم على الإصلاح تجلى بحزمة القوانين والدستور الجديد... /انتهى الاقتباس/

هجمة عالمية وأزمة كبيرة:

منذ بداية ما يسمى بالربيع العربي الذي لم يجلب إلا الفوضى والخراب والويلات للشعوب العربية خرج البعض هاتفاً كالببغاء مطالباً بالحرية وبإسقاط النظام وبالإصلاح كما ادعى البعض الآخر، إنّ كل سوري شريف يدعو إلى الإصلاح ولم يكن الإصلاح والتطوير إلا شعاراً طرحه الرئيس الأسد في بداية ولايته وكان جاداً في تحقيق ما وعد وتحقق بعض مما وعد رغم الضغوط والحملات المعادية الحاقدة على سورية منذ احتلال العراق عام 2003 مروراً بحادثة مقتل رئيس وزراء لبنان رفيق الحريري وتداعياتها ثم حرب تموز التي شنها العدو الصهيوني على المقاومة اللبنانية وعدوان إسرائيل على غزة وغير ذلك كثير... هذه الأحداث والضغوط أثرت على مسيرة الإصلاح وإعاقتها إضافة إلى العامل الداخلي الأهم والذي شكل إعاقة كبرى تضاف للأولى، العامل الداخلي المتعلق بسوء الإدارة وضعف كفاءتها وطغيان الفساد وعدم قدرة المسؤولين على فهم مقاصد الرئيس أو ترددهم في التنفيذ وعدم جرأتهم على اتخاذ القرار.. كل ذلك شكل عائقاً رئيسياً لتقدم مسيرة التطوير والإصلاح التي قادها الرئيس منذ العام 2000م ثم جاء الشتاء العربي الذي توجهت أقوى رياحه وعواصفه التآمرية نحو سورية بغية تدميرها وتسويق مشروع

أمريكا وإسرائيل في إقامة شرق أوسط جديد أو كبير يقسم الأقطار العربية إلى دويلات طائفية وإثنية تأتي على العرب جميعاً بالدمار والخراب. ومع بدء الأزمة السورية بدأت الإصلاحات وسقطت الرهانات ووهت وتلاشت الحجج.. واستمرت الإصلاحات فتصاعدت الاحتجاجات حتى دخلت مجال العمل المسلح ووصلت إلى العلنية تنفيذاً وتمويلاً وإيواءً وتسليحاً ثم استباحت الوطن السوري قتلاً وتخريباً وضرباً لبنى الدولة ومؤسساتها ومقومات وجودها.

ومع ذلك استمر الرئيس في الإصلاح وحقق أكثر مما هو مطلوب مثل المادة /8/ من الدستور السابق التي تمت المطالبة بإلغائها فقام الرئيس بإلغاء الدستور كله، وَوُضع دستور جديد للبلاد... فعل الرئيس كل ما فعله لأنه يفكر بمنطق الوطن ويدرك مدى شراسة وخطورة الهجمة المدبرة للإطاحة بسورية، صبر الرئيس طويلاً وصبر معه حماة الديار وقدموا الشهداء قوافل إثر قوافل مع كل الحرص على الدم السوري البريء صبروا صبر المؤمن القوي المقتدر وأدار الرئيس المعركة التاريخية وفق مسارين: مسار يكمل الإصلاحات ويعمل على تعزيزها ومسار يواجه الإرهاب الحاقد الذي ضرب كل مكان من سورية ومع الإرهاب وقفت كل قوى الشر في العالم بما فيها الجامعة غير العربية ممثلة بالسعودية وقطر.. وانحنت الدولة كما تنحني السنابل الملأى بالقمح أمام الريح العاتية ووافقت على المراقبين العرب ثم الدوليين والإرهاب يتصاعد أكثر فأكثر وتتعدد أدواته وأساليبه أكثر فأكثر ومع ذلك سارت قافلة الإصلاحات لأن الرئيس يدرك أن المرحلة تتطلب الإصلاح رغم غياب بيئته وحاضنته والإصلاح حاجة لسورية ولشعبها على عكس ما يدعي المتآمرون والمأجورون من حرص على سورية وشعبها فسورية حريصة على أبنائها أكثر من أي كان وهذا الأمر طبيعي وبديهي... وتوجت الإصلاحات بمجلس الشعب الجديد ودخول جزء من المعارضة الوطنية ضمن صفوفه، هذه الإصلاحات تحتاج إلى إعادة ترتيب وتركيب الإدارة السورية برمتها وإعادة الترتيب والتركيب تتطلب تأقلماً مع الإصلاحات وإدراكاً عميقاً وعملياً لمتطلباتها وضمانة ترسيخها ونجاحها وهنا يقول الرئيس:

إذا كان الوقوف في وجه الهجمة الإقليمية والعالمية على بلدنا ليس بالمهمة السهلة فإن التأقلم مع الإصلاحات وتعزيزها ليس بالعملية السهلة أيضاً... /انتهى الاقتباس/.

إن الإصلاحات التي تمت ترسخ أسس الوحدة الوطنية وتفتح المجال للرأي والرأي الآخر وتفسح السبل لدخول الكوادر الوطنية ميدان التنافسية والتشاركية وتتيح لنا كسوريين أن نصل إلى مرحلة يكون فيها من يعمل للوطن والشعب هو الأفضل والأولى ويكون فيها مقياس التفاضل بين المواطنين هو العمل والأداء الأفضل ولا أية اعتبارات أخرى.

إنّ التأقلم مع تغيير كهذا التغيير البنيوي ليس بالأمر السهل وهذا ما أشار إليه الرئيس واعتبره تحدياً لا يقل أهمية عن الوقوف في وجه الهجمة الشريرة على الوطن.

إن تعزيز ونشر ثقافة المواطنة هو واحد من مهام المرحلة وواحد من شروط التأقلم مع

الإصلاحات فنحن بحاجة إلى إصلاح الإنسان قبل الآلة وبناء الإنسان قبل البنايات والمولات فالإنسان هو الهدف وهو الغاية وإن لم يصطلح الإنسان لا يصطلح شيء ولا يبنى وطن.

وما حصل خلال الأزمة من أحداث أدمت الوطن واستهلكت الكثير من رصيده مادياً ومعنوياً وأخلاقياً كما قال الرئيس الأسد يدل على أن خللاً مخيفاً حصل في وعي الشباب ابتعد البعض منهم إلى مسارات خطيرة تهدد الوطن وتنذر بنسف إنجازاته ووجوده وحضارته وهذا مؤشر خطير يدفع بنا إلى التفكير بأقصى الجهد لإعادة بناء الإنسان والشباب وتنظيف عقولهم مما علق بها من أدران الجهل والتخلف والأفكار الأثنية أو الطائفية أو التكفيرية الوهابية. ومهمة بناء الإنسان تقع على عاتق الدولة ومؤسساتها ولم يعد مقبولاً أن نتهم الغرباء باختلاق الأزمات عندنا ونحن من خلقنا البيئة الحاضنة لظهور وتفاقم الأزمات، لا يوجد أزمة بلا بيئة حاضنة ولا طائفية بلا حاضنة طائفية ولا إرهاب من غير حاضنة إرهاب وهكذا..

وقد أشار الرئيس إلى ذلك بقوله: إن المسؤولية الأكبر عن الخلل الذي يصيب المنزل تقع على عاتق مالكيه وساكنيه قبل أن تقع على عاتق الغرباء... /انتهى الاقتباس/.

كلنا يتذكر من خلال قراءة التاريخ أن العثمانيين حكموا بلادنا حوالي أربعمائة عام ورغم الفقر والجوع والأمية والخوف وسطوة الولاة السلجوقيين استمر حكمهم أربعة قرون وكان يغفر لهم ويوفر الغطاء الحاضنة الدينية التي منحناها لهم إذ اعتبرهم أبناء شعبنا آنذاك امتداداً للخلافة الإسلامية وأية خلافة هذه التي حملت كل ألوان الظلم والجهل للناس وجثمت على صدورهم وقلوبهم أربعة قرون تحت مظلة الدين والدين منهم براء؟!..

فكما قال الرئيس الأسد تقع المسؤولية عن الخلل في البيت على ساكنيه والخلل الذي يقع على الوطن يتحمل المسؤولية عنه أبناء الوطن كل حسب موقعه ومسؤوليته فالوطن للجميع وهو أمانة بين أيدي الجميع يصلح بصلاحهم ويفسد بفسادهم.. يُحفَظ بعرقهم ودمائهم ويُستباح بتخاذلهم أو انقيادهم وجهلهم.

والجهل شر مستطير أصاب شريحة لا بأس بها من شبابنا وأبناء وطننا فما زلنا إلى الآن نجد الحاضنة للإرهابيين في مجتمعنا ونجد من يصدق محطات التدجيل والتضليل ونجد من يرى أن المشكلة هي مشكلة النظام بينما يحترق الوطن ويقتل أبناؤه تمهيداً لتفجيره كلياً.. إننا بحاجة إلى المزيد من التعقل والعقلانية.. بحاجة إلى وقفة مع الذات ومع الضمير ومراجعة للأسباب والنتائج كي ندرك خطورة الهجمة ونتائجها الكارثية فيما لو حققت أهدافها الدنيئة وقد تطرق الرئيس الأسد إلى أهمية العقل والتعقل عندما قال: بعد كل هذه الحقائق الصارخة بوضوحها وبعد كل تلك الدماء الزكية التي سفكت والأرواح التي أزهقت فنحن بحاجة للكثير من العقل.

المواجهة والحل: قال الرئيس الأسد في صدد الحديث عن المواجهة والحل: نحن بحاجة لنتعلم من الشعب الذي ننتمي إليه والذي تمكن من فك رموز المؤامرة في بداياتها وحل شيفرة التزوير على تعقيدها مستنداً إلى حس شعبي لا يخطئ وذاكرة وطنية تنهل من تراث مليءٍ بالتجارب الغنية وتراكم أخلاقي شكل حصناً حمى مجتمعنا من الانحراف وتقاليدنا وهويتنا من الاندثار...

ويتابع قائلاً: إذا أردنا حل مشكلة ما فعلينا أن نواجه هذه المشكلة لا أن نهرب منها وقد تكون مواجهة المشكلة مؤلمة في كثير من الأحيان لكنها بالمحصلة شافية أما الهروب منها فهو كالمدمن الذي يشعر بالنشوة الكاذبة ولكنه في حقيقة الأمر يسير نحو الموت... /انتهى الاقتباس/.

ذكرتُ سابقاً المستعمر العثماني الذي حكم وطننا أربعة قرون متواصلة تحت مسمى الخلافة ومع الاعتراف بالجهل المطبق الذي دفع الكثيرين للقبول به تحت مسمى الدين والخلافة فإن الحقيقة تؤكد أن العثمانيين تعلموا من شعبنا ولم يعلموه... تعلموا منه عادات وتقاليد طيبة وتعلموا منه الإسلام السمح المعتدل ومازالوا يعترفون بتقدم أهل الشام على كافة المسلمين في الدين واللغة والمعاملة ويقولون عن الشام: شام شريف لقد حاولوا تتريك الوطن فلم يستطيعوا وبقيت اللغة العربية عصية على الإلغاء فهي لغة العالم وهي لغة القرآن ولذلك تعلموها هم ومازالوا يكتبون بالحرف العربي حتى عهد مصطفى كمال أتاتورك الذي أدخل الحرف اللاتيني إلى اللغة التركية، إذاً فشعبنا قادر على التعليم وعلى المسؤول أن يتعلم من الشعب وأن تكون طموحات الشعب ورغباته هي بوصلة هذا المسؤول أو ذاك وهذا هو ما يعنيه الرئيس الأسد من دعوته إلى التعلم من الشعب أما التراكم الأخلاقي الذي أشار إليه والذي يحمله الشعب السوري فهو تراكم قديم يتجسد في سلم معرفة وقيم رفيعة توارثها أبناء الشعب كابراً عن كابر وهي القيم والأخلاق الفاضلة التي حافظت على وجودنا وعلى عراقتنا وتميزنا في كثير من المجالات فالشعب السوري مزيج فريد من الأثنيات والطوائف والأديان مثل بستان جميل ضم كل ألوان الورود فشكل منظراً جميلاً يغني الحياة والوجود ولا عجب في ذلك فسورية هي وطن التاريخ وهي مهد الرسالات السماوية ومهد الأنبياء الذين شاءهم الله هداة للخير والفضيلة ودعاة للحق والعدل.

إن هذا التراكم الأخلاقي هو ثروة ليست لسورية فقط بل للعالم كله لأنها دستور حق وخير ورسالة معرفة وعلم وإيمان ومدرسة نور وهداية للإنسان أينما كان وقد حاول البعض من الحاقدين الجاهلين المأجورين الإساءة إلى هذا التراكم الأخلاقي والانسلال منه وتقويض بناه فلم يستطيعوا رغم إيذائهم لمنظومته وتلويثهم جزءاً من مساحة نقائه وبياضه وأقصد هنا أصحاب الفكر التكفيري الذين حاولوا مراراً ضرب الوطن وهدم أواصر المحبة بين المواطنين تحت مسمى الدين والتكفير والطائفية والدين بريء منهم ومن أفكارهم الهدامة وكذلك العقل بريء منهم، والعقل والحق يؤكدان أنه ما من أحد في الكون اختار دينه أو طائفته وإن الخلق كلهم عيال الله ونحن

نقول كما جاء في المصحف الشريف وفي فاتحته نقول والله عز من قائل: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ولم يقل رب المسلمين.

نحن لسنا طائفيين والطائفية ليست من أخلاقنا وقيمنا وبالتالي فليست الطائفية من تراكم أخلاقي نمتلكه بل هي عكس هذا التراكم ونقيضه.

وهنا أعود لقول الرئيس الأسد: إذا أردنا حل مشكلة ما فيجب أن نواجه هذه المشكلة لا أن نهرب منها وليسمح لي القارئ أن أقول: كان يجب علينا مواجهة المشكلة الطائفية بثقافة المواطنة وثقافة عدم الخلط بين الدين والسياسة وقبل أن يقول لي قائل أن لا مشكلة طائفية لدينا أقول نعم ليست لدينا ولم تكن لدينا مشكلة طائفية ولكن لدينا طوائف ولدينا من يصطف طائفياً إذا أتيحت البيئة الحاضنة لذلك... لدينا حواجز نفسية طائفية وهذه الحواجز سببها الجهل بالآخر وعدم الرغبة في المبادرة والفهم؛ ومن أسبابها أيضاً التعليم الديني باتجاه واحد والذي لم يأخذ بالاعتبار التشكيلة الطائفية والعقائدية الدينية الموجودة في وطننا... هذه الحواجز النفسية ضارة ومؤذية إن لم نقل خطيرة وأنا أرى أن طرحها والمكاشفة فيها لا على سبيل التفاضل والتصحيح أو التعديل بل على سبيل معرفة الآخر معرفة حقيقية لا تتيح اتهامه أو الطغيان عليه من غير معرفة ودراية كما هو حاصل عند المتشددين أو التكفيريين، أرى أن المصارحة والمكاشفة والتعارف هي وسائل تؤدي إلى تدعيم صرح الوحدة الوطنية وحمايتها من التفكك على المدى الاستراتيجي.

لقد تحدث الرئيس الأسد عن مشكلة كبيرة عانى منها أبناء الوطن جميعهم... مشكلة وطنية كبرى بامتياز والطائفية ومحاولة إثارتها كانت عاملاً خطيراً من عوامل المشكلة أما المشكلة ذاتها فهي متعددة الجوانب متعددة الأسباب والدوافع ولا تحل أبداً بالهروب منها بل بمواجهتها فالهروب منها يجعلها تكبر وتستعصي على الحل ومن هنا جاءت الإصلاحات باتجاهين أو هدفين نبيلين الأول أن الوطن والمواطن بحاجة ماسة لها فهي تحقق مطلباً ومصلحة للوطن والمواطن والهدف الثاني هو المقصود بالمواجهة وهو إسقاط ذريعة المطالبين بها وهم يقصدون أشياء أخرى لا علاقة للإصلاحات بها وبذلك فقد تعرى هؤلاء وسقطت مزاعمهم وصار من حق الدولة المبادرة إلى مواجهتهم.

إن المخطط الحاقد الذي رسم لضرب سورية هو من أخطر وأفظع وأسوأ مخططات الشر في التاريخ وقد مورست وفق هذا المخطط مختلف أشكال الإرهاب من الإرهاب السياسي والإعلامي والفكري والنفسي والاقتصادي إلى الإرهاب المسلح الذي مارس القتل والخطف والذبح والتمثيل ومارس الاغتيال والتفجير إضافة إلى قطع الطرقات والسطو المسلح وضرب بنية الدولة لإركاعها من الداخل... وهذا المخطط رسم في الخارج على يد قوى كبرى عالمية وإقليمية وعربية وكان يتصاعد مع كل إصلاح يحصل ليدل ويؤكد أنه الإرهاب الذي لا حل معه بالحوار بل إن القائمين عليه ضد الحوار وضد الإصلاح ولذلك فهم استعملوا لغة القتل والتفجير والتخريب كي ينشروا مشروع الفتنة الذي أرادوه وخططوا له وهنا يقول الرئيس الأسد: إن ما نواجهه هو مشروع فتنة وتدمير للوطن وأداة هذه الفتنة هي الإرهاب فكيف يمكن أن نربط بين العمل السياسي والإرهاب.. والإرهاب طال

واستطال في سورية بسبب الدعم الذي يأتيه من عدة محاور أما أدواته فهم في الغالبية أشخاص سوريون مأجورون منهم من ركب موجة التكفير وظن أن خادم الجنة بانتظاره وأن مقعده محجوز فيها ومنهم من حمل السلاح ليسطو ويسرق ويهرب والقاسم المشترك بين الجميع هو أنهم إرهابيون ويريدون تخريب الوطن وقد أشار الأسد إلى المأجورين المرتبطين بالخارج بقوله: إن الشعب احتقر ونبذ إلى غير رجعة من وضع جسده في الداخل وقلبه وعقله في الخارج... /انتهى الاقتباس/.

وهنا نقول عن الحوار ـ إن كان ثمة من يطالب بالحوار أو يدعو إليه كجزء من الحل ـ كيف يكون الحوار مع شخص وضع قلبه وعقله في الخارج؟ أي أنك تحاور شخصاً بلا عقل والحوار لا يكون بلا عقل بل إن أساسه وجوهره العقل والتبصر كما أن من وضع عقله وقلبه في الخارج هو مرتهن مأجور عميل ينفذ ما يتلقى من أسياده فكيف يمكن الحوار مع الخونة المأجورين وما هي نتائج حوار كهذا؟ إن الوطن يبنى بسواعد أبنائه الشرفاء المخلصين وبدماء شبابه الصامدين المضحين وبعقول أبنائه المنتمين له والمؤمنين به وأن كانوا معارضة أو كانوا ضد الحكومة ولكنهم في المحصلة ليسوا أعداء الوطن وليسوا أعداء الشعب.

الانتخابات واجب وطني: حتى الآن نجد بين السوريين وأنا منهم ومحب لهم جميعاً، نجد من لا يهتم بالانتخاب ولا يكلف نفسه الذهاب إلى أقرب مركز انتخابي لأداء الواجب الانتخابي واختيار من يشاء للفوز ولا شك هناك أسباب دفعت المواطن إلى ذلك فمنهم من يقول: إن الناجحين معروفة أسماؤهم سلفاً ومنهم من يقول لا ينجح إلا المدعوم أو المحسوب مهما بلغ من الثقافة والأخلاق؛ ومنهم من يقول مالي وللانتخابات أو ماذا سيفيدني عضو مجلس الشعب وتجد منهم من لا يعرف ألف باء الدستور الدائم للبلاد ولا تعريف الدستور كما أن هناك من لا يعرف مهام مجلس الشعب أو مهام الإدارة المحلية فهل ينتخب أو يصوّت لأمر لا يعرفه؟ بالطبع يجب على المواطن أن يعرف مصلحته كي يدافع عنها ويجب على الإعلام والمنظمات ومديريات الثقافية أن تضع برامج وخططاً لتعريف الناس والإيضاح لهم أهمية الانتخابات وضروراتها...

أما عدم الثقة بالانتخابات فله أسبابه الموضوعية التي يجب أن تزول كي تعود الثقة بمؤسسات كبرى في الدولة والتي يمثل مجلس الشعب قمة هرمه؛ وتعود الثقة عندما يصل إلى مجلس الشعب الأوفياء الأكفياء القادرون على حماية حقوق الشعب والمؤمنون بالدفاع عنها بغير ثمن أو مقابل لأن المصلحة الوطنية فوق كل مصلحة وكل اعتبار...

ولا شك بأن دخول المعارضة الوطنية لمجلس الشعب يعطي المجلس ومناقشاته وقراراته أبعاداً أعمق وأوسع وأنفع ويتيح المجال للجدية والدقة والموضوعية ليكون مجلس الشعب المؤسسة العاملة لمصلحة الوطن في التطوير والتنمية وفي المتابعة والمراقبة والمحاسبة وهذا هو دوره الفاعل وواجبه الطبيعي.. وبالتالي يجب اعتباراً من اللحظة أن نفهم أن الانتخاب واجب مقدس على كل مواطن ولا عذر ولا حجة لمن لا يبالي ثم يأتي وينتقد وينظّر ويقيس ويطيل ويقصر... إن من واجبات المواطن أن

ينتخب ويبتعد عن السلبية وعن الأفكار التي عششت في ذهنه وعقله والقائلة بأن الانتخاب أمر يدعو إلى السخرية وأنا لا أنكر على أحد أن الفترة الماضية سادها فكر معين جعل الناخب يحجم عن الانتخاب أما الفترة القادمة فهي مختلفة وصار من واجبنا أن نرفع الصوت في الانتخاب ونرفع الصوت ونحن ناخبون أو مرشحون واضعون الوطن نصب أعيننا ولا تصدقوا أن قوة في الكون تحمي أحد إن لم يحمه الوطن وأهل الوطن فلا المال ينفع ولا الجاه ينفع ولا الحراسات تنفع فما ينفع هو الحكمة والعقل ووعي الواجب ومعرفة الحق وحب الوطن وأهل الوطن.

والانتخابات واجب وطني مقدس لأنه واجب الفرد نحو الوطن وليس خدمة لسلطة ما أو رئيس معين أو فئة معينة إنما هو انتخاب للنخبة الوطنية التي تمثل بحق كل الوطن وتعمل بحق في سبيل كل الوطن ولندع خلافاتنا الشخصية أو العائلية جانباً ونبحث عن العقول.. عن الرجال عن الأوفياء الصادقين الذين يؤثرون على أنفسهم وتضيق مصالحهم الشخصية أمام مصالح الناس وقد جاء في خطاب الرئيس الأسد ما يغني وما يكفي لفهم حق الانتخاب وفهم معنى مقاطعة الانتخاب إذ يقول: إن هذه القوى هربت من الانتخابات تحت عنوان المقاطعة وعندما نقاطع الانتخابات فنحن لا نقاطع الدولة والحكومة والحزب الحاكم بل نقاطع الشعب لأن الانتخابات حق الشعب ولأن الناخب هو المواطن وليس الدولة ولا الحزب وبالتالي كيف يمكن لشخص أن يقف أمام الناس ويقول أنا أمثل الشعب وأنا أقاطع الشعب فهذا تناقض غير ممكن وإذا أردنا أن نضعه في فيلم خيال لما تمكنا... /انتهى الاقتباس/

نعم الانتخابات حق للشعب وليس للدولة أو الحزب الحاكم ولو كان للدولة أو الحزب تأثير على الانتخابات فتأثيرها على جزء منها وليس على الكل وبالتالي فمن الواجب أن يمارس المواطن حقه ولو في جزء من الحق المتروك له وهو بهذا الجزء المتبقي يستطيع إيصال صوته أولاً ويستطيع إيصال جزء ممن يرضاهم كي يمثلوه وهذا الجزء يؤثر على الكل وهكذا تسير العملية الديمقراطية الصحيحة ويصل المواطن إلى حقه في انتخاب ممثليه ولو طال الوقت أو قصر فالمهم أن لا يكون المواطن سلبياً وليتذكر كل منا الحديث النبوي القائل: من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان، وأعتقد أن الثالثة تكفي أي محاربة المنكر في القلب وإذا صح القلب صحت العقيدة، وإذا صحت العقيدة دفعت بصاحبها إلى أداء الواجب الانتخابي الذي لا يكلف مالاً ولا جهداً ينوء المرء بحمله بل العكس فالدولة في تحضيرها للانتخابات تتحمل وزراً ومهمة كبيرة لا يعرفها إلا القائمون بها وعليها.

إن الوطنية شعور رفيع المستوى شريف الهدف راقي المقصد يتمثل في حماسة ابن الوطن ونزوله إلى الساحات ليعبر عن هذا الشعور النبيل بينما ينظر آخرون بسخرية أو بهزل أو بلا مبالاة مفضلين النوم على المشاركة في هم الوطن.

خطاب القائد:

ليس شرطاً أن يكون الرئيس قائداً فهناك الملك والأمير والرئيس والإمبراطور وكل هؤلاء لا يملكون ملكات القائد ولا صفاته، فالقائد أخ وصديق وأب للجميع والقائد يقود شعبه أي يمشي في المقدمة أمامه ويضحي قبل الجميع ويتحمل المسؤولية الكبرى في الحفاظ على الوطن، والقيادة ليست رفاهية ولا امتيازاً لا بل إن الرئيس أو المسؤول المؤتمن يخسر نفسه وحياته وحقوقه الشخصية في سبيل أمان وحرية ورفاهية الآخرين من أبناء الشعب ولا تنظروا إلى السيارات التي يركب أو المكاتب التي يجلس فيها فهي ليست أكثر من رفاهية كاذبة تسجن في حقيقة الأمر صاحبها فالسيارة وسيلة ذهاب وإياب والمكتب مكان عمل وبالتالي أقول جازماً: إن جلسة فلاح في بيدره وحقله أو حرفي في محله أو ورشته يفتح وقت يشاء ويغلق وقت يشاء هي من حيث السعادة أمتع من قصور الدنيا مجتمعة ولهذا قال الرئيس الأسد من قلب صادق شفاف مرهف حضاري إنساني قال: إن أبواب سورية مفتوحة لكل من يريد إصلاحاً حقيقياً وحواراً صادقاً وإن قلوبنا مفتوحة لاشتراك كل سوري صادق في مسيرة النهوض بالدولة.. وسورية التي تسير نحو المستقبل رغم الجراح هي سورية الحاضنة لكل أبنائها مهما اختلفت الآراء إذا ما بقي الاختلاف سلمياً وديمقراطياً ولأجل الوطن وليس عليه... /انتهى الاقتباس/

لاحظوا ما أجمل وأبلغ هذا الكلام الذي يحمل الحب والحرب يحمل غصن الزيتون وطلقة المدفع وهذا خطاب الرجال الأوفياء خطاب رجال الدولة الذين يعرفون كيف تبنى الأوطان وكيف تصان الكرامات وليس بالضرورة إرضاء الجميع لأن إرضاء الجميع أمر مستحيل وغاية لا تدرك.

إن سورية أم لكل أبنائها مهما اختلفت رؤاهم وأفكارهم والاختلاف يغني ويبني إذا كان اختلاف عقول وثقافات وضمن حدود العقلانية واحترام الآخر والاعتراف بثقافته ومعتقده وميوله وأهوائه وضمن السلمية والسلام وليس الحرب والقتل والعدوان والطغيان لأن الحرب والقتل والطغيان يؤدي إلى خراب الأوطان ودمار البلدان وإن عاد المقاتلون أو الطغاة لعقلهم فسيجدون أنهم خسروا وأن الكل خسر فلا ربح في قتال أبناء الوطن ولا عقل فيه ولا وعي والأمثلة كثيرة من تجارب حصلت بين مواطنين في دول الجوار ودامت تجاربهم الجاهلية سنوات ثم عادوا إلى نقطة الصفر بعد خسارة قوافل من الأبرياء وسيول من الدماء.

لقد دعا الرئيس الأسد الجميع إلى إعمال العقل ومن يعمل العقل ينتج العقل ومن ينوي الصدق يجد الصدق والوطن للجميع ولا يحق لأحد الاستئثار به أو إدعاء ملكيته ووضح للجميع أن الاختلاف حالة حضارية شرط أن لا تتحول إلى حالة إلغاء أو إقصاء وحرب وقتل وتدمير وشرط أن تكون من أجل الوطن وليس عليه وهنا يمكن القول أن من حمل السلاح بقصد السطو والسرقة هو ضد الوطن وضد أبنائه ومستقبله وهو خارج العقل ولا يختلف عمن حمل السلاح لتخريب الوطن وتدمير مقوماته والقائد لا يتردد في الدفاع عن الوطن ضد من يتهدد أمنه وأمن ساكنيه وهذه مسؤوليته الأخلاقية والوطنية وفي هذا السياق يقول الرئيس الأسد: علينا إذن أن نكافح الإرهاب لكي يشفى الوطن ولا تساهل بالتالي ولا مهادنة معه ولا مع من يدعمه ولا تسامح إلا مع من تخلى عنه...

هنا يفتح الرئيس الباب على مصراعيه وهذه سجيته وأخلاقه لكل من يريد العودة عن الخطأ والتوبة عن المعصية فالوطن للجميع ويتسع للجميع وكم هي عظيمة أخلاق القائد الأسد الذي اتسع قلبه للوطن كله رغم الجراح ورغم الدماء والخراب حين يقول: أؤكد أننا لن ننتقم عاجلاً ولا آجلاً ونحن في الماضي وفي مفاصل مختلفة تسامحنا مع أشخاص من غير السوريين أساؤوا لسورية كثيراً فكيف لا نتسامح مع ابن الوطن.. /انتهى الاقتباس/.

هذا الخطاب هو خطاب القائد الذي يمضي بوطنه وأبناء وطنه إلى الإنجاز والتطور والانتصار.. خطاب الأب الذي يحاسب أولاده إن أخطؤوا من دون أن يؤذيهم أو يخرب البيت الذي يسكنونه.. القائد الذي لا ينتقم وهنا تتجلى سجية الحب وانتفاء الحقد وهذه سجية الكبار كما قال الشاعر العربي أن كبير القوم لا يحمل الحقد وقول آخر: لا يحمل الحقد من تسمو به الرتب.

وبصدد الحل السياسي الذي أشار إليه الأسد فإنه كما قال: لا يبدأ بالقوانين ولا يبدأ بالدستور ولا بكل هذه الإجراءات وإنما يبدأ بالمفاهيم والثغرات التي ظهرت لدينا في هذه الأزمة؛ إن الثغرات والمفاهيم التي ظهرت والتي تحتاج إلى معالجة قبل أية إجراءات أخرى تتمثل في غياب ثقافة المواطنة وظهور ثقافة الإقصاء والإلغاء والطائفية والتكفير ورغم أن أبناء الشعب رفضوا ويرفضون الطائفية المقيتة المدمرة إلا أننا لا نستطيع إنكار وجود ممارسة طائفية هنا وهناك ولا نأتي بجديد إن قلنا: إن أعداء الخارج وضعوا كل إمكاناتهم لضرب سورية من الداخل ومن خلال اللعب بالورقة الطائفية؛ وقد حاولوا إشعال النزاع الطائفي في أكثر من مدينة وحي وبلدة في مختلف أنحاء سورية وفشلوا وسيفشلون ولكن فشلهم لا يعني أنه لا طائفية بيننا ولا طائفيين ولا يعني أن نطمئن للواقع بل يجب التصدي لهذه الظاهرة الخطيرة بكل الوسائل المتاحة وبخاصة الوسائل الكفيلة بنشر الوعي الوطني وثقافة أن يكون ابن البلد مواطناً له ماله وعليه ما عليه بغض النظر عن دينه وطائفته وعشيرته وهذا ليس جديداً في وطننا سورية بل هو أمر منصوص عنه في الدستور وفي القانون والممارسة الطائفية أو مجرد الحديث فيها جريمة معاقب عليها؛ ولكن لنعد إلى كلام الرئيس الأسد ونوافقه على أن المسألة مسألة ثقافة ومفاهيم قبل أن تكون مسألة قوانين تسمح أو تمنع فنحن بحاجة إلى تطوير العقول قبل الدساتير فماذا يعني من يحمل الفكر التكفيري أن يكون هناك دستور أو لا يكون وهو بالأساس لا يعترف بالدستور ولا بالحكم ولا بالدولة، ثم ماذا يعني الجاهل المتخلف أن يكون هناك تعددية سياسية أو لا يكون وهو بالأساس لا يعرف شيئاً عن التعددية أو الديمقراطية ولا يعرف إلا كيف يؤمن متطلبات عيشه أو انحرافه وعلى طريقة "أبو نظير اللاذقاني" عندما حرق باص النقل الداخلي وقال: ربي يسر.

ومن المفاهيم التي يجب معالجتها مفهوم اللون الواحد وعدم الاعتراف بالآخر وتحديد معنى ومضمون الاختلاف فالاختلاف موجود شئنا أم أبينا والاختلاف مثمر وجيد ونحن من الأوطان التي أغنت الحضارات والثقافات بهذا النسيج الإنساني المتعدد وبهذا التآلف الفريد بين كل مكونات المجتمع السوري، إن الاختلاف بالرأي أمر طبيعي وبديهي لأن العقول متفاوتة وكذلك الثقافات

ولكن الثقافات والعقول يجب أن تلتقي وتتلاقح لا أن تتصارع وتتناحر ففي التلاقي والتلاقح إغناء للثقافات وانتعاش للحضارات وحفاظ على الناس والمكونات وفي التصارع الخراب والدمار والموت، أما الاختلاف الآخر والذي ذكره الرئيس الأسد أي الاختلاف على الوطن والذي يعني التدمير ففي هذه الحالة تبرز حالتان: أن تكون مع الوطن أو أن تكون ضد الوطن والحالة الطبيعية أن نواجه من هو ضد الوطن بكل الوسائل لأن من يقف ضد الوطن هو خائن والخائن يجب أن يموت وفق كل شرائع الكون ودساتير وقوانين كل بني البشر.

يقول الأسد: التعددية هي حالة فكرية قبل أن تكون حزبية، عندما نقبل الأفكار المخالفة لأفكارنا من دون أن تخالف أي منها مصلحة وسلامة الوطن... /انتهى الاقتباس/.

وبمنطق القائد يفند الأسد مفهومه للاختلاف والتعدد فيقول: إن الحل يبدأ عندما نعرف أن الأمم العريقة تذوب اختلافاتها في الأزمات والملمات لصالح الوطن وتصبح القضية مع الوطن أو ضد الوطن لا مع الدولة والحكم أو ضدهما وعندما تبنى الأولويات على مصلحة الوطن وليس على المشاعر والانفعالات الشخصية وعندما نرتقي في نقاشاتنا لنفرق بين الرأي والحقائق... بين الطموح والواقع ونفهم العلاقة بين العقائد والمصالح... نعرف أن التكتيك بدون إستراتيجية تقوده وتوجهه هو فشل محتوم.

إن الكلام الذي جاء على لسان الرئيس هو كلام ملوك الكلام فالاختلافات في الأمم المتحضرة تذوب أمام قضايا الوطن لأن قضايا الوطن مقدمة على كل ما سواها فما هي قيمة أفكارنا أو ثقافاتنا أو اختلافاتنا إذا ما حل بالوطن مكروه؟.

ـ نختلف ونتفق نحن كأخوة في بيت ولكن اختلافاتنا لا تصل بنا إلى هدم البيت وإذا فعلنا نكون حمقى وجاهلين وغير جديرين بالحياة، ثم إن الوطن ليس حكماً أو حاكماً أو وزيراً فكلنا كأشخاص ذاهبون أما الوطن فباقٍ ويجب أن يصان، ومن ثَمَّ فالأولوية للوطن وليس العكس كما يجب أن لا نفكر بالعاطفة والانفعال ونبني سلوكنا وتصرفاتنا على ذلك لأن العاطفة كثيراً ما تبتعد عن العقل وكثيراً ما تجلب الندم وأنت إذا ما كنت عاطفياً وانفعالياً في تربية أبنائك خسرتهم وخسروا أنفسهم لأنهم سيكونون أشخاصاً منحرفين شاذين حمقى لا يفيدون حتى أنفسهم وقد قال الإمام علي بن أبي طالب في وصية له لأحد ولاته: ابتعد عن صحبة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.

إن الوطن لا يبنى بالانفعال والعواطف ونحن للأسف شعب عاطفي ميال إلى الانفعال وميال لتصديق كل ما يقال وللحكم على الأشياء دون تدقيق واستدلال وهذه مشكلة تؤثر على حياتنا وتربيتنا وسلوكنا بشكل سلبي وكذلك نحن ما زلنا نرى أن آراءنا هي دائماً عين الصواب وقد تكون عين الخراب... صحيح أن لي رأي ولك رأي ولكن ليس بالضرورة أن يكون رأيي أو رأيك صحيحاً أو يمثل الحقيقة فالحقائق شيء والآراء شيء آخر مختلف أما عندما تتلاقى الأفكار والرؤى وتتم مناقشتها من قبل العقلاء المتحابين في الوطن وإن اختلفوا في الرأي تكون النتيجة أن يصل

الجميع إلى رأي واحد يخدم الجميع ويحافظ على الجميع ولنأخذ من عدونا مثالاً على ذلك.... هناك كتل وأحزاب تتنافس على المناصب في إسرائيل فيختلفون وتعلو أصواتهم ويتقاذفون التهم في الصحف وعبر وسائل الإعلام ولكن الجميع متفقون على بقاء وقوة الكيان الصهيوني، والجميع متفقون ومجمعون على أن مصلحة إسرائيل ويهودية إسرائيل فوق كل اعتبار، ومتفقون ومجمعون على العداء للعرب والاستعداد الدائم لحربهم... إنهم يتنافسون على مصلحة إسرائيل ولا يتنافسون من أجل مصالحهم الشخصية.

ونعود إلى قول الرئيس الأسد: ضرورة أن نفهم العلاقة بين العقائد والمصالح فالعقائد حالة شخصية فردية بالمحصلة وأقصد العقيدة الدينية وعلاقة الإنسان بالخالق علاقة خاصة به لا يحق لأحد فرضها على أحد ولا تعميمها على الآخرين، أما العقائد الأخرى ولتكن سياسية أو أخلاقية أو غير ذلك يجب أن نفرق بينها وبين المصالح الشخصية والمصالح الوطنية ويجب أن نكرس العقائد لخدمة المصالح وهنا أذكر احتجاج بعض الصحابة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما ألغى بعض ما كان معمولاً به أيام النبي (ص) فقال للمحتجين: حيث تكون مصلحة الأمة تكون الشريعة، وعودوا لصحيح البخاري للتأكد من صحة الحديث.

وعمر يعي ما يقول وهو الرجل الذي عاش قبلنا بألف وخمسمائة عام... يدرك عمر أن الشرائع جاءت لخدمة الناس وليس لضررهم وأن الشرائع جاءت لترسخ في الناس العامل الأخلاقي والوازع الأخلاقي وجاءت بتعاليم الحق والخير والفضيلة وليس العكس.

محبة الوطن ليست شعارات:

لقد اعتدنا أن نحمل الدولة المسؤولية كاملةً في كثير من المسائل التي تتعلق بالأمن العام والملك العام والحفاظ على المؤسسات العامة والمشافي والمدارس والجامعات إلخ واعتدنا أن نرى مؤذياً يؤذي مؤسسة أو طريق أو يفتعل حدثاً مخلاً بالأمن أو بالمصلحة العامة أو يخطط لذلك فلا نعطي الأمر اهتماماً ولو بالإعلام عن الخلل لا بل ما زال بعضنا يشير بالاتهام لمن يتعاون مع الدولة وكأن الدولة ليست منا أو الأمن ليس من أبنائنا وفي ذلك ظلم للدولة وظلم لأنفسنا بآن معاً.. هذا في الأحوال الطبيعية أي في ظروف الاستقرار أما في حال الأزمة التي تهدد الوطن فهل نستمر في سلبيتنا هذه وعدم اكتراثنا؟ بعضنا ما زال مستمراً وبعضنا الآخر له موقف سلبي من موظف أو عنصر أمن أو شرطي أو قاضٍ، وربما كان مظلوماً وتراه في هذه الأزمة سلبياً للغاية أو منخرطاً في أعمال مدمرة قد تصل إلى التفجير وحمل السلاح وقتل أبناء الوطن... يجب أن ندرك معيار الخطأ فلا نعمم الأخطاء الفردية والإساءات الشخصية ولا نأخذ من الدولة موقفاً سلبياً لخطأ ارتكبه زيد أو عمر كما يجب أن نرى بعين مفتوحة المصالح الحياتية والمصيرية التي توفرها لنا الدولة وأن نفكر بالحالة المعاكسة وهي حالة غياب الدولة لا سمح الله ماذا سيحصل وكيف سيكون المشهد؟

إن الشارع والرصيف والمؤسسة والمدرسة والمستشفى وغير ذلك هي ملك للشعب كله ومن الخطأ النظر إليها على أنها ملك الدولة، كيف نصل إلى حالة أو ثقافة اعتبار هذه الأملاك هي ملك للشعب؟ وأن ندافع عنها ونحافظ عليها مثلما نحافظ على بيوتنا وأملاكنا الخاصة.. كيف ندفع الرشوة ونقذف بالاتهامات للمرتشي؟ كيف ندس الرشوة للشرطي كي يمتنع عن مخالفتنا ثم نتحدث ونقول: إن الشرطة فاسدون ومرتشون؟ كيف ندفع ثمن ما نشتري ونحن نعرف حجم الزيادة في السعر والغبن الذي لحق بنا ونسكت وكأن شيئاً لم يكن وغير ذلك كثير...

إن محبة الوطن لا تكون بالشعارات ولا بالنقد والكلام على الطاولات وداخل الحجرات بل تكون بالعمل الجاد المنتج والالتزام بالقانون والواجب والحفاظ على الأملاك العامة والإعلام عن الثغرات والأخطاء والارتكابات واحترام الآخرين لنكون أسرة واحدة نتشارك العسر واليسر.

إن الترفع عن الصغائر واجب أخلاقي يستدعي من الجميع رؤية الأشياء وفق حجومها ومقاديرها فلا يرد أحدنا على الحجر بالرصاصة ولا يرى أحدنا أن الدولة سيئة لسوء شخص فيها أو أشخاص ولا يرى أحدنا من لا يوافقه الرأي عدواً أو من يخالفه الدين أو الطائفة كافراً، يقول الرئيس الأسد: في الأزمات لابد من الترفع عن الصغائر ويقصد الرئيس الأزمات أي على الأقل في الأزمات أما الحالة الصحية الصحيحة فهي وجوب الترفع عن الصغائر في الأحوال كلها، ويقول الأسد: لابد أن نكون كباراً بحجم التحدي وقد نطرح شيئاً قد يكون صحيحاً في وقت آخر ولكنه في هذا الوقت بالذات طرح خاطئ". وكما يقال لكل مقام مقال والرأي الصحيح قد يكون صحيحاً في زمان ومكان ما وخاطئاً في زمان ومكان آخر وفي أزمة الوطن توضع كل القضايا والآراء جانباً لتتوحد الجهود في سبيل إنقاذ الوطن وعندما تستقر الأوضاع ويصبح الظرف متاحاً ومناسباً نقول ما نشاء ونطرح الرأي الذي نراه مناسباً ويضيف قائلاً: لا يكفي أن نحب الوطن لكي نجعله قوياً بل يجب أن نعرف كيف نحبه فكم من أب وأم خرجوا للمجتمع أبناء فاشلين بتربية لا تخلو من المحبة ولكنها تخلو من المعرفة والعقلانية ولا يكفي أن نكره الدماء لكي لا تسيل ويجب أن نعرف كيف نمنعها من السيلان وهناك البعض يبني مواقفه السياسية على كلمتين يكره العنف ويكره الدماء وأنا أقول: من هو الإنسان العاقل الذي يحب الدماء؟.. /انتهى الاقتباس/

إن محبة الوطن ثقافة وثقافة عقلانية حضارية تدفع إلى العمل والتضحية وليس الكلام المرتجل.. إن باستطاعتنا أن نغني للوطن ونرقص ليلاً ونهاراً دون أن نخرج للعمل فهل ننتج شيئاً للوطن أو لأنفسنا؟ حتى الأبناء هل يكفي أن نحبهم حتى يتفوقوا في تعليمهم وتربيتهم؟ هل يكفي أن ننظر إلى الأرض الطيبة الجاهزة للزرع ونقول هذه الأرض غالية علينا أم نبادر لفلاحتها وزراعتها ورعايتها حتى تنتج وتطعمنا؟ وهكذا الوطن بل إن الواجب يكبر حيال قضاياه ومصالحه فعندما يحتاج الوطن إلى دماء يجب أن نكون جاهزين لبذلها في سبيله وهنا يعاتب الرئيس الأسد بعض السوريين بقوله: أعاتب سورياً أحب بلده لكنه لم يعرف كيف يحميه ولم يفهم ما الذي يحيط به فانجرف مع

الموجة وغرق في الشعارات الخلابة وساهم من حيث لا يدري في ضرب وطنه سواء بسبب الشخصانية التي تسيطر عليه أو الأحقاد التي تتحكم فيه أو لقصر نظر ومحدودية رؤيته.. /انتهى الاقتباس/

لا نريد أن نتفاضل في الوطنية فكلنا أبناء هذا الوطن وكلنا نحبه ولكن ليس كل أبناء الوطن وطنيين بالوعي والثقافة وليس كل أبناء الوطن مخلصين بل يوجد بينهم مخربون ومأجورون ومتخلفون وحاقدون ويوجد أيضاً مضللون ولصوص وقطاع طرق ويوجد انتهازيون يركبون الموج كما قال الأسد ليحققوا منافع شخصية ما؛ ونرى الأسد ومن موقع الأخ والقائد يعاتب هؤلاء ويلومهم دون أن يكيل لهم الشتائم كما فعلوا هم عندما لم يتركوا أسلوباً رخيصاً إلا واتبعوه للإساءة إلى الوطن ورموز الوطن.. لقد هتف بعض السوريين بعبارة إسقاط النظام وهم لا يعرفون ماذا يعني إسقاط النظام ولا يعرفون ما هو النظام وما هي مكونات النظام والأخطر في الأمر أنهم لا يعرفون ولا يقدرون النتائج فيما لو سقط النظام، لم يدركوا أن إسقاط النظام هو تدمير الدولة حكومة وشعباً ومؤسسات ولم يدركوا أن إسقاط النظام هو مطلب إسرائيلي أمريكي رددوه كالببغاوات في الميادين والساحات ثم إنهم رفعوا علم الاحتلال الفرنسي بدلاً من علم الوطن وهم غير مدركين أنهم إنما يرفعون علم الاحتلال وغير مدركين أنهم ينفذون ما أمروا به من الخارج وما أعد لوطنهم في غرف عمليات الأعداء ثم انتقل بعضهم إلى كيل الشتائم للرئيس وأهله وعائلته وهذا الفعل السيئ الشائن له حدّان: الأول أنه يشكل سلوكاً متخلفاً بعيداً عن الأدب والذوق والحياء والثاني أنه فعل معاقب عليه في القانون والدستور ومع ذلك لم تبادر السلطة للعقاب والانتقام وكذلك الشعارات الطائفية التي طرحت والتي تشكل جرماً في القانون وجرماً أخلاقياً وأدبياً يتمنى كل منا لو لم يرتكبه سوري أي سوري..

ثم انتقل آخرون إلى حمل السلاح وضرب رجال الأمن وحفظ النظام واستفزازهم كي يبادروا إلى استخدام السلاح وهكذا استمروا؛ ومن فشل إلى فشل أزاح عقول وبصائر أسيادهم ومموليهم فبدؤوا بالتفجير والقتل العشوائي ثم تفجير مؤسسات الدولة وبنيتها التحتية.. وفي كل هذه الأعمال كانوا يخربون الوطن وينسفون مقوماته خدمة لمخطط رسم في الخارج ومن قبل أعداء تكالبوا على تدمير سورية وتفتيت الوطن السوري كله ولم يدرك من حمل السلاح على الوطن أنه مجرد أداة يستخدمها العدو وأداة رخيصة مصيرها السجن أو القبر وهنا لابد من أن نثمن مشاعر الرئيس الأسد الذي احتفى بالعتاب واللوم مع امتلاكه القدرة والحزم وهو بذلك يجسد أخلاقية القائد المحب لوطنه وأهل وطنه.. القائد الذي ترعرع في بيت يفيض بمشاعر الوطنية والأخلاق الحميدة الرفيعة وهذا هو عهد بيت الرئيس الخالد حافظ الأسد رحمه الله.

الحرية المزعومة: هل يعقل أن ينادي أحد مطالباً بالحرية وهو يخرب وطنه ويقتل أبنائه؟ لقد خرج بعض شبابنا وهتفوا للحرية ولم ينظروا إلى ما حولهم ولم يتعلموا من تجارب غيرهم فهل تحققت الحرية للشعب الليبي أو التونسي أم اليمني والمصري أم تحققت الفوضى وغياب الأمن والسير إلى المجهول؟ يقول الإمام علي كرم الله وجهه (أحسن عظة لنفسك تجنب ما تكرهه من غيرك) فهل أعجب بعض شبابنا ما حصل حولنا في العراق مثلاً؟ وهل يعرفون أن حرباً طائفية مقيتة دامت خمس عشرة سنة في لبنان قتل خلالها الأهل بعضهم وخربوا وطنهم وجعلوه ساحة للتدخل الخارجي ثم لجؤوا إلى الحوار وجلسوا على الطاولة ولم يربح أحد شيئاً بل خسر الجميع كل شيء.

يقول الرئيس الأسد موضحاً: إن لدينا أشخاصاً وهم قلة لحسن الحظ لا يتعلمون إلا على خلفية من الدماء والأشلاء؛ والمشكلة أن البعض لا يرى الأمور إلا وهي مدبرة ولا يراها وهي مقبلة أي لا يتمكن من رؤية المستقبل حتى ولو كان شديد الوضوح.../ انتهى الاقتباس/

إن من الحكمة أن يتعظ المرء بغيره ويستفيد من تجارب الآخرين وكما يقول المثل: من يجرب المجرب عقله مخرب، فهل نجرب كيف ندمر وطننا وهل نجرب كيف نتقاتل طائفياً حتى نعي ونتعظ ونعرف أن الطائفية نار محرقة تأتي على الأخضر واليابس؟ هل يدرك من يثير النعرات الطائفية أنه مثل من يأتي بالسم لقتل أبنائه؟ إن التعقل يوفر على الإنسان كثيراً من الخير وعدم التعقل يسبب خسارة الدماء والأرواح وقد تصل إلى خسارة الوطن ثم تكون الندامة عندما لا ينفع الندم، إن من لا ينظر للأمور إلا وهي مدبرة هو شخص متخلف فاقد للبصر والبصيرة ومن لا ينظر للأشياء إلا بمنظار السواد والظلمة هو إنسان مريض يحتاج إلى علاج وخطورة مرضه تكمن في انتشاره وعدواه للآخرين ومن هم حوله. ماذا يجني القاتل والمقتول في جرم جنائي... أحدهما إلى القبر والثاني إلى السجن.. وإذا ما أردنا استعراض جزء مما دار في وطننا وعلى سبيل المثال لا الحصر ماذا استفاد أبناء منطقة الزبداني من كل ما حصل من تظاهرات واغتيالات وحمل للسلاح وإجبار الناس على الإضراب وإغلاق المحلات التجارية؟ لن أجيب وسأترك الإجابة لأهلنا في الزبداني ولكن سأكرر السؤال: ماذا استفاد أبناء المناطق السورية التي خرج بعض شبابها مطالبين بالحرية ومرددين شعارات ومنفذين لأوامر من دول تريد تخريب سورية ولا تملك من الحرية ولا الديمقراطية شيئاً؟ وأعود لمثل شعبي آخر أتمنى لو يستفاد منه.. يقول المثل (لم تمت.. ألم تر من ماتوا) وأعود أيضاً لقول الرئيس الأسد: ألا نتعلم إلا على دمائنا وأشلائنا؟ ولماذا لا نرى الأمور إلا وهي مدبرة؟ وأي مستقبل ينتظرنا إذا كان العقل مدبراً؟ ثم هل تكون الحرية بضرب وتخريب خطوط نقل النفط والغاز والكهرباء وهل تكون بالقتل والسطو وقطع الطرق؟!..

إن الحرية مطلب مقدس منذ أقدم العصور ولكن الحرية نفسها تحمل كل معاني الانضباط واحترام الآخر والالتزام بالقوانين والتشريعات ولا يمكن للحرية أن تكون منفلتة من عقالها وإذا ما انفلتت من عقالها تصبح حرية الوحوش في الغابات وليست حرية البشر العقلاء المبصرين.

وهنا يقول الرئيس الأسد لمن ظن أنه الأكثر معرفةً في مجتمعنا: تعلموا من الشعب بدلاً من أن تعلموه فهو الأكثر ثقافة ومعرفة وهو الأصوب رؤية.. تعلموا من إحساسه الفطري كيف نبني الأولويات وكيف لا تحل الهوامش محل الأساسيات) لم يقل الأسد تعلموا من بعض أفراد الشعب بل قال تعلموا من الشعب فالشعب بكليته مدرسة تعلّم وتوجه وتعطي الرؤى وتحدد اتجاه بوصلة الوطن لأن الشعب يمتلك الإرث التاريخي المعرفي والاجتماعي والأخلاقي.. يمتلك التجارب الحية سواء المفيد منها أم غيره كما يمتلك الذاكرة التي لا تخطئ والإرادة التي لا تقهر.. من الشعب يتعلم كل من يريد أن يتعلم ويخطئ خطأ كبيراً من لا يتعلم من الشعب.. والشعب أدرى بأولوياته فلا يخطئ في تقديم الهوامش على الأولويات أو الأساسيات ولا يخلط بينهما وشعبنا السوري ذكي ويملك فطرة حساسة وتاريخاً يمتد لآلاف السنين.

ثم يقول الأسد: الشعب الذي يمتلك حضارة كالشعب السوري لا يقلد عادةً بشكل ببغائي كل ما يأتيه من الخارج.

وقول الأسد: كل ما يأتيه من الخارج ليفصل بين الجيد والسيئ بين الصحيح والفاسد بين السم والدسم فليس كل ما يأتي من الخارج سيئاً ويا ليت من قلدوا كالببغاء قلدوا الأجنبي فيما ينفعهم وينفع وطنهم، لكنهم قلدوا ببغائياً ما تم تلقينهم به وما تلقوه من تعليمات وإشارات فمثلاً عبارة (الشعب يريد إسقاط النظام) كانت تردد في كافة المناطق التي خرج فيها متظاهرون بآن واحد وهكذا كل الهتافات الأخرى كانت تهتف في كل المناطق وفق تعليمات الخارج وإطلاق التسميات على أيام الجمع كانت تحضر من قبل أعداء سورية وتبلغ لمن يهمه الأمر من أبطال التنسيقيات كما سموا أنفسهم أو سماهم الأعداء.

لقد خلق دعاة الحرية في وطننا بيئة من الفوضى والتجاوز على القانون والحريات ثم على الحقوق والكرامات ثم على الأرواح والدماء عندما احتضنت الفوضى الإرهاب...

يقول الرئيس الأسد: الفوضى هي البيئة الطبيعية التي تحتضن الإرهاب ولأن من سوَّق للفوضى هو من طبّل لعهد جديد من الحرية والازدهار وهو لا يعرف عن ماذا يتكلم فاحتضن الأول الفوضى والفوضى احتضنت الإرهاب فأصبح هؤلاء الأشخاص من دون أن يدروا مساهمين بشكل أو بآخر في موضوع الإرهاب.. /انتهى الاقتباس/

نعم إن من نادى بالحرية لا يعرف معنى الحرية ومن نادى بإسقاط النظام لا يعرف ماذا يعني النظام وما هي مكونات النظام ولو أسقطنا حال الحرية في الدول التي دعمت ومولت دعاة الحرية لدينا على حال سورية لكان هؤلاء الببغائيون أول من يرفضها لأن حرية آل سعود وقطر لا تناسبهم ولا تفيدهم وحرية أمريكا والغرب لا تناسبهم أيضاً ولا تتفق مع عاداتهم وتقاليدهم فأي حرية يطلبون إذاً؟ الحقيقة التي أثبتها الواقع هي أنهم يريدون الفوضى وفي الفوضى تكمن مصلحتهم وتتحقق رغباتهم.

لقد بدأت التظاهرات في سورية بأعداد قليلة خجولة ثم بدأت تقل وتضمحل بعكس ما يريده دعاة الحرية المرتبطون المأجورون فراحوا يدعون الناس للتظاهر من خلال إثارة مشاعرهم ثم صاروا يتهمون ويصمون الناس بالجبن وقلة الناموس كقولهم (من لا يشارك ما فيه ناموس) والناموس بالعرف السوري هو النخوة والحمية ثم راحوا يهددون المواطنين بالإيذاء وبالقتل إن لم ينضموا إليهم وبالفعل اغتالوا كثيراً من الأشخاص من أبناء حيهم أو عائلتهم وألصقوا بهم تهمة العمالة للدولة وفق تعبيرهم، وأنا لا أفهم ولا يفهم من يريد أن يفهم كيف يكون الإنسان عميلاً لدولته أو بلده ووطنه فالعمالة تكون للأجنبي وللعدو لا للوطن بل إن العمالة للوطن وأمن الوطن واجب وليس تهمة كما ادّعوا، وهكذا اتسعت ساحة الفوضى وكثر عدد المتظاهرين وظهر السلاح بين بعضهم بحجة حماية المتظاهرين والحقيقة غير ذلك أو القصد.. فالقصد هو تخويف المتظاهرين وتهديدهم تحت ذريعة حمايتهم كي يستمروا بالتظاهر وكي يتحمسوا ويرفعوا الصوت عالياً أكثر فأكثر وكي يرفعوا من مستوى المطلوب في الهتاف إلى أن هتفوا بإسقاط النظام وشتموا رمز الدولة وأطلقوا شعارات طائفية.

ثمن ما بعد الأزمة: يقول الرئيس الأسد: إن الثمن الذي دفعناه الآن غال ولكن أنا أتوقع أن الثمن الذي سندفعه بعد الخروج من الأزمة قد يكون أغلى ليس من الناحية الأمنية وإنما من الناحية الأخلاقية فأنتم تعرفون ما هي المفاهيم الجديدة التي دخلت لدى قسم كبير من الجيل الشاب في سورية: مفاهيم الإرهاب... العنف... اللصوصية والمرتزقة... /انتهى الاقتباس/.

نعم إن ما يقوله الأسد هو عين الحقيقة لأن ما دفعناه من ثمن رغم قساوته وإيلامه سيمضي بقسوته وألمه وإن بقي في النفس والذاكرة لأمد طويل ولكن ما يعزي النفس أن الثمن الذي دفعناه كان فداءً للوطن ودفاعاً عن الوطن وكان عربون وفاء للوطن وبالتالي فمن فقد غالياً أو خسر صديقاً أو جاراً أو أخاً يجد العزاء في حق الوطن أن يفتدى وحق الوطن أن ترخص له المهج والأرواح ومن ثم تعود الأمور إلى الاستقرار والبناء والعيش من جديد بشعور يحمل نشوة الانتصار للوطن أما الثمن الواجب الدفع بعد الأزمة فقد يكون أغلى كما قال الأسد فهو الثمن الذي سيدفع والجهد الذي سيبذل لمعالجة الخلل النفسي والمعنوي الذي أصاب الناشئة والخلل الأخلاقي الذي أصاب قسماً لا يستهان به من الشباب.. هذا الشباب الذي أضاع البوصلة وفقد الاتجاه ولم يعد يميز بين مصلحة شخصية تافهة وبين مصلحة الوطن التي لا تقارن ولا توازى بمصلحة أخرى في الوجود.

إن الخلل الأخلاقي والوطني الذي حصل عند بعض شبابنا قد تحتاج معالجته لسنوات وقد لا يشفى منه الكثيرون بدءاً بالخلل الطائفي الذي جعل البعض يصطف في طابور مرضى الطائفية البغيضة ولا يعرف أن المرض سيصيبه وأن الطائفية شر مستطير لا يبقي ولا يذر ولا ينتفع منه ومن عواقبه إلا أعداء الوطن أما الوطن وأبناؤه فهم ضحايا هذا المرض فيما لو ألم بهم لا قدر الله.

ماذا عن العنف الذي مورس على مرأى ومسمع الأطفال أو العنف الذي شاهده الأطفال يُمارس على أطفال مثلهم.. كيف تعالج آثاره المعنوية والنفسية وكم من السنين تحتاج للشفاء والمعافاة؟!.. كم نحتاج من الوقت والجهد لمعالجة مراهقين خرجوا للتظاهر وهتفوا لإسقاط وطنهم مقابل مبالغ مالية زهيدة وكما قال الأسد: فما هو الثمن والوقت والجهد المطلوب منا كي ننظف ما علق في عقول وقلوب أولئك الشباب وكيف يمكن أن نعيد تربية هؤلاء كي يعرفوا بأن الفوضى لا تجلب سوى الفوضى وأن المجتمع لا يمكن أن يبنى إلا على الأخلاق الحميدة وأعتقد أن التحدي كبير جداً أمامنا في هذا الإطار.. /انتهى الاقتباس/

إن هذا الأمر البالغ الأهمية والخطورة يحتاج إلى جهد وعمل مضاعفين من قبل كافة المؤسسات التعليمية والتربوية والإعلامية والثقافية ويحتاج إلى استنهاض كافة الجهات الرسمية والشعبية لأخذ دورها في مواجهة أزمة تربوية أخلاقية أصابت شبابنا بفعل الأزمة ومفاعيلها وتداعياتها.

ولابد من الإقرار والاعتراف بأن ضعف دور المؤسسات والجهات المسؤولة وانتشار الفساد فيها وغياب الحس الوطني والوعي الجمعي وسيطرة الفردية والأنانية والمحسوبية واختراق الخطاب الديني المتطرف كلها أسباب أدت إلى تكوين الحالة التي نواجهها وعملت على خلق الحاضنة الحقيقية للفوضى ومن ثم الإرهاب.

إننا مدعوون إلى تطبيق مبدأ الحساب والثواب فلا يساوى الوطني بالمأجور ولا يستوي اللص والشريف ولا يستبعد الكفءُ والنظيف ويقرب الجاهل والسارق ولا تؤخذ الناس بالشبهات والظنون أو بالمحسوبيات والجماعات والصداقات ولا يقوم على اختيار الناس وتقييمهم أناس هم بحاجة إلى تقييم وتصويب ولا يقوم على المؤسسات الأمنية من لا يستطيع تنسيق وضبط وتناغم أشخاصها وأدواتها ولا يقوم على مؤسسة من يظن أن المؤسسة ملكه وأن العاملين يعملون في مزرعة جده ولا يقوم على الحدود من يسمح بتمرير السلاح والمخدرات مقابل منفعة شخصية تؤدى له، ولا يقوم على القضاء من يستهتر بحقوق الناس ويجعل من الجاني بريئاً ومن الضحية مجرماً أو من (يمطمط) في قضايا الناس في القضاء ويجعلها في الأدراج سنوات وسنوات فتضيع الحقوق ويصبح صاحب الحق ظالماً والسارق والظالم يسرح ويمرح أمام عينيه وكذلك في الشأن الديني فلا يجوز أن يقوم بمهمة الإرشاد الديني من يحتاج أصلاً إلى إرشاد ولا يجوز أن يعتلي المنبر ليخطب في الناس إلا من كان أهلاً للخطاب ومن كان يعرف كيف يحب الوطن وكيف يحبب الآخرين بالوطن وهم قلة للأسف... وأعتقد أنني لم أخرج عما قصده الرئيس وعناه بكلامه عن الأزمة وعن ثمن ما بعد الأزمة.

الرئيس للوطن والوطنيين:

يقول الرئيس الأسد: إن البعض يطرح ومنذ بداية الأزمة أن الرئيس يجب أن يكون لكل السوريين وأنا أقول كي أكون دقيقاً إن الرئيس هو لكل من يقف تحت سقف الوطن والدستور والقانون وإلا ساويت بين العميل والوطني وبين الضحية والجلاد وبين الفاسد والشريف وبين من يخرب ومن يبني وبالتالي فهذه الرمادية الوطنية مخالفة للدستور ونكث بالقسم وضرر بالمصلحة العامة وخيانة للأمانة الوطنية... /انتهى الاقتباس/

إذا كان هناك بين من يطرحون هذا الكلام الهدام شخص واحد موضوعي وعاقل ووطني فليأت ويناقشنا بكل صراحة وجرأة متى كان الرئيس لفئة دون أخرى من الشعب ومتى كان لشريحة أو جماعة أو طائفة دون أخرى؟ ليعطنا مثالاً واحداً على ذلك.. الرئيس في قيد النفوس من محافظة اللاذقية ولكنه ولد وتربى في محافظة دمشق وتعلم في مدارسها وجامعتها ثم أكمل تعليمه في إنكلترا وهو ابن رئيس شهد له العالم بالحنكة والسياسة والوطنية وارتفع اسم سورية باسمه في كل أصقاع الأرض بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء فلماذا إذن نجلد أنفسنا ونحط من قدر أنفسنا وتحت أي مسمى وأي شعار؟ ثم "هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين" كما يقول الله تعالى.. هاتوا مثالاً واحداً يدل أن الرئيس أعطى بلدته التي ينتمي إليها بقيد النفوس ميزة واحدة أكثر مما أعطى محافظة حلب أو حماة أو ريف دمشق؟ إن الرئيس لم يأت بانقلاب ولا بفعل القوة بل بالانتخاب من قبل كل الشعب السوري وبالأكثرية الساحقة ولنتذكر أن أكبر وأرقى دول العالم في الديمقراطية كما يدعون وهي الولايات المتحدة الأمريكية لا يفوز فيها الرئيس بأكثر من خمسين بالمائة إلا بقليل وهكذا الحال في فرنسا وألمانيا وإنكلترا وغيرهم أما أن نشتم من أصحاب هذه الطروحات رائحة الطائفية العفنة والتخلف الهدام فهذا أمر مرفوض قانونياً وأخلاقياً ووطنياً.

والرئيس يجيب على هؤلاء قائلاً: أما من يبحث عن رئيس من دون لون أو طعم أو رائحة لبلد هو الأغنى بالألوان والأكثر استساغة للعيش فيه والأزكى رائحة بعبق التاريخ فأقول لهم: إن لوني من لون هذا الشعب الذي فيه من أطياف السيادة والمقاومة والكرامة والمحبة، وأما كل طيف آخر من أطياف الإرهاب والطائفية والأشياء الأخرى التي رأيناها مؤخراً فهي أطياف غريبة لا تنتمي إلينا ومصيرها سيكون الاضمحلال والزوال... /انتهى الاقتباس/.

هل هناك أجمل وأروع من ألوان الشعب السوري الأبي صاحب التاريخ العريق الذي يعبق بالمحبة والكرامة؟ وهل هناك أجمل وأروع من وطن هو مهد الرسالات والديانات ومهد التنوع، التنوع الذي جاء نتيجة الغنى الثقافي والمعرفي والتمازج الحضاري والإنساني عبر التاريخ؟

أعود للقول: لماذا نجلد أنفسنا ونحن أصحاب العزة والمجد والسؤدد؟ فلا يجلد نفسه إلا المعاق عقلياً وفكرياً ونتمنى أن لا يكون بيننا الكثير من المعاقين.

الجيش السوري البطل: لقد حاول الأعداء في الداخل والخارج النيل من جيش سورية النبيل لأنه تصدى موحداً لمخططاتهم وهذا عهد الجيش السوري وليس طارئاً عليه فالجيش السوري له تجاربه النضالية وتاريخه المشرف وهو جيش العرب قبل أن يكون جيش سورية فمنذ حرب الإنقاذ في فلسطين عام 1948م وصولاً إلى حرب تشرين إلى حرب تموز وقبلها اجتياح الكويت وحرب العراق وإيران ثم غزوا العراق لم يكن جيش سورية إلا جيش الأمة الحريص على أمنها القومي ووحدة ترابها.

يقول الرئيس الأسد: في قلب هذه الأحداث كانت قواتنا المسلحة الباسلة في مركز الهجوم الذي استهدف سمعتها ودورها وصورتها التي رسمت عبر عقود من التضحيات ولم يكن من الممكن لمؤسسة أن تقدم ما قدمته قواتنا المسلحة من تضحيات لولا وجود عقيدة توجه أبناءها بالاتجاه الصحيح فكان المستهدف هو العقيدة التي تعبر عن انتماء الشعب فاستهدفت هوية الشعب عبر استهداف المؤسسة التي يفخر بها... /انتهى الاقتباس/

لقد أرادوا النيل من هيبة الحكم ومؤسسة الرئاسة ثم الجيش السوري والقوى الأمنية التي تصدت للمعركة الشرسة التي تستهدف الوطن وهنا يمكن أن نسأل الأعداء والعملاء أي جيش تريدون النيل من سمعته وكرامته؟ وهل الجيش السوري هو ميليشيا طائفة أو جماعة؟ ألم تروا مواكب الشهداء تطوف في دير الزور وحلب وحماة وحمص واللاذقية؟ إن الجيش السوري هو جيش الوطن وهو الجيش الذي يحمل عقيدة راسخة عمادها حب الوطن والجاهزية للتضحية في سبيله وهو الجيش المدافع عن سورية وعن العرب فكيف يتهم بقتل أهله وأبنائه؟

وإذا ما صار العدو في الداخل كما قال الرئيس الأسد.. أليس من واجب الجيش التصدي له؟ لقد أقسم الجيش السوري أن يحمي سورية كل سورية براً وبحراً وجواً وداخل أراضي الجمهورية وخارجها.. هذا هو قسم الجيش السوري وهو لم يخرج يوماً عن إطار وحدود قسمه ولكنه شكل القلعة الصامدة التي تكسرت عند أسوارها مخططاتهم الشريرة فثارت ثائرتهم ضده وكالوا له الاتهامات والأراجيف.

يقول الرئيس الأسد: إن قواتنا المسلحة بناء عريق شامخ بنى الوطن ودافع عنه وحمى استقلاله وما يزال ولا يجوز المساس برمز يعبر عن وطنيتنا ووحدتنا وشرفنا... /انتهى الاقتباس/

إن جيش سورية البطل هو جيش فريد من نوعه في العالم لأنه جيش إيمانٍ وعقيدة جيش يضحي بدمه ولا ينتظر أجراً من أحد هو منذ ولد وتأسس تربى على حب الوطن وتشكل من كل أبناء الوطن وأقسم على الفداء للوطن، أما هؤلاء الذين أرادوا النيل منه فهم الأعداء والعملاء الذين يبغون الانتصار اعتماداً على اللصوص والمأجورين والمرتزقة.

الأزمات في تاريخ الأمم: يقول الرئيس الأسد: الأزمات تظهر المعدن الحقيقي للشعوب والأمم الحضارية فإذا كنا حضاريين فأول ميزة للأمم الحضارية عندما يكون هناك ملمة أو أزمة حادة أن يتوحّد الشعب وليس العكس.. الأمم غير الحضارية تظهر ثغراتها ومشاكلها وانقساماتها في الأزمات... فأنا أتمنى فعلاً أن نثبت كما نقول دائماً بأننا شعب حضاري ننتمي لواحدة أو لعدة من أقدم الحضارات على وجه الأرض... /انتهى الاقتباس/

إن الأزمات هي المحك الحقيقي والاختبار الدقيق للأفراد والشعوب، وعلى سبيل المثال فقد أظهر شعبنا قدرة فائقة والحفاظ على مقومات وجوده من تاريخ وعادات وتقاليد ولغة وقد ذكرت سابقاً أنه أظهر ذلك في الأزمات والملمات.

وفي خلال أربعة قرون من الاحتلال العثماني ورغم فرض هذا الاحتلال لحالة من الإفقار والتجهيل والإقطاع الظالم.. لم يستطع المستعمر أن يفرض لغته أو عاداته على مجتمعنا ولم يستطع أن يفرق بين أبناء الوطن رغم محاولاته البائسة اليائسة وكذلك الأمر عندما حاول المستعمر الفرنسي تقسيم الوطن إلى دويلات طائفية وباء بالفشل الذريع ووجد أن الشعب السوري قد التف حول وطنه ورفض تقسيمه بأي ثمن كان وفي الأزمات التي ألمت بالأقطار العربية المجاورة كان شعب سورية النصير والظهير فقد استقبل أبناء الشعب السوري أكثر من مليوني عراقي مهجر إثر العدوان الأمريكي على العراق الشقيق وقاسم الشعب السوري الأخوة العراقيين الماء والهواء والدواء.. وكذلك كان موقف السوريين من الأخوة اللبنانيين الذي هجروا من ديارهم في أثناء عدوان تموز على لبنان وعلى المقاومة الوطنية اللبنانية.

وأتوقف هنا قليلاً وأقول لكل من حاول أن يصفر بالبوق الطائفي في سورية: إن الشعب السوري لم يميز بين المهجرين العراقيين واللبنانيين على أساس طوائفهم ولم يخطر في بال أحد من السوريين مثل هذا التصنيف.

أما أن تعود هذه الأبواق للصفير فهذا ليس بجديد وقد فعلوا سابقاً وحاولوا وفشلوا.

يقول الرئيس الأسد بصدد ذلك: الغريب أن هناك أموراً واضحة كانت منذ البداية حيث بدأت الأزمة مع الأبواق الطائفية فكيف لم يفهموا ماذا تعني الطائفية؟... /انتهى الاقتباس/.

تعني تقسيم وتفتيت وتفجير المجتمع فكيف لم يروا هذه الأمور على وضوحها؟ إن الطائفية مسألة خطيرة طارئة على مجتمعنا السوري وإن كان لدى البعض تقييمات معينة طائفية ولكنهم كانوا يحتفظون بها لأنفسهم أما اليوم فقد تحولت إلى دعوات صريحة وإلى افتعال جرائم وخلق ذرائع بغية شحن النفوس بالطائفية والحقد الطائفي.

ولكن لن يكون لهم فرصة للوصول إلى هدفهم لأن الشعب السوري ليس طائفياً والطائفية ليست في قاموسه ولا ثقافته ويجب أن يدرك السوريون ويسمعون بإمعان ودقة أن الطائفية ليست إلا كما قال الرئيس الأسد: إنها تعني تقسيم وتفتيت وتفجير المجتمع فهل يقبل عاقل على وجه الأرض

أن يفجر وطنه وأهله.. إنها الأزمة وفاعلوها الموتورون في مواجهة الجيش والأمن السوري وبانتظار دور الشعب الذي أثبت في الأزمات أنه شعب حضاري يحمل أرفع القيم وعلى الجزء الذي يشكل بيئة حاضنة للإرهاب والإرهابيين أن يتخلى عن هذه الحاضنة كي يتعافى الوطن ولا يتجه للتفجير كما قال الرئيس الأسد.

إن ما حصل في الوطن السوري العزيز منذ مطلع العام 2011م يؤلم العين والقلب إذ صارت سورية اليوم غير سورية الأمس بفعل الإرهاب وأدواته الرخيصة المأجورة.

يقول الأسد: إن ما حصل في الحولة والقزاز والميدان ودير الزور وحلب وأماكن أخرى كثيرة في سورية وصفناه بالمجازر البشعة والشنيعة والوحشية وفي الحقيقة حتى الوحوش لا تقوم بما رأيناه وخاصة في مجزرة الحولة وأعتقد أن اللغة العربية وربما اللغة البشرية بشكل عام غير قادر على وصف ما رأيناه ونحن كسوريين عايشنا هذه المرحلة وسنبقى نشعر بالخجل كلما تذكرناها طالما أننا أحياء ونتمنى ألا تبقى في ذاكرة الأبناء والأحفاد بل أن تبقى الدروس من هذه الأزمة دون أن تبقى الصور والمشاعر موجودة في مجتمعنا... /انتهى الاقتباس/.

لقد تمنى الرئيس الأسد أن تبقى الدروس والعبر وأن تنسى الصور وتغيب المشاعر عن الذي حصل في هذا الوطن فالدروس مفيدة لأنها تقدم لكل قابل للتعلم الأدلة القاطعة على عدة نقاط مهمة يجب تجنبها كي نحافظ على وطننا ونحميه من كيد الأعداء المتربصين بنا شراً وعدة نقاط مهمة أيضاً يجب اعتمادها والتركيز عليها ومن هذه النقاط:

- الاهتمام البالغ بالخطاب الديني والدروس والحلقات الدينية وجعل مناهجها موحدة وموجهة لما فيه ترسيخ الاعتدال وفهم مقاصد الدين والشريعة وفضح الفكر الإخواني والوهابي التكفيري بغية بناء جيل بعيد عن التعصب والتشدد الديني؛ جيل يدرك كيف يحب وطنه وكيف يترجم هذا الحب عملاً وسلوكاً بنّاءً يدفع عن الوطن مخاطر التكفير والفتن.
- تفهم الأولويات وعدم تقديم الهوامش عليها ومن أهم الأولويات محبة الوطن واعتبار مصلحته فوق كل اعتبار.
- نشر ثقافة المواطنة بكافة الوسائل من إعلام وتربية وثقافة ومنظمات شعبية وصحافة وتعليم الخ...
- العمل على تعزيز ثقافة الأمن الوطني في المجتمع والتي ترسخ القناعة لدى أفراده أنه يتوجب على كل مواطن أن يكون رجل أمن وأن أمن الوطن مطلب مقدس وهو فرض عين وليس فرض كفاية على الجميع.
- تعزيز اللحمة الوطنية وتوضيح مخاطر المساس بها من خلال إقامة البرامج الثقافية والملتقيات والندوات وكل السبل المتاحة لضمان أمن الوطن واستقراره.

ـ محاربة الرمادية الوطنية وتوضيح مخاطرها وتعزيز المبادرات الإيجابية في المجتمع وترسيخ دعائم الأمن والسلم الأهلي.

ـ محاربة الشائعات والأخبار الكاذبة وعدم الانجراف وراء التضليل والترفع عن الصغائر والاستفادة من تجارب الآخرين.

ولا شك أن معظم هذه الأفكار تضمنها خطاب الرئيس الأسد بعناوينه العريضة ومضامينه الكبيرة.

الجانب الاقتصادي: لم يغب الوضع الاقتصادي عن اهتمام الرئيس الأسد في خطابه التاريخي كما لم يغب عن باله يوماً منذ بدء ولايته... يقول الأسد: إن شعبنا الصامد تعرض لمحاولات التجويع والحصار والتلاعب بقوته اليومي فكونوا على ثقة بأن كل هذا زائل عندما نعمل معاً على تحقيق ما يحتاجه المواطن من عدالة اجتماعية تتجلى بتوزيع منصف للثروة وتكافؤ للفرص والحصول على الخدمات الأساسية ولابد من إنماء متوازن بين الريف والمدينة وتعميم شبكات الدعم الاجتماعي بهدف تعزيز وتوسيع الطبقة الوسطى في المجتمع.

لقد تعرض شعبنا في ثمانينات القرن الماضي لحصار اقتصادي شديد بغية تجويع الشعب وإضعاف الاقتصاد الوطني للوصول إلى إضعاف الدولة وضرب قدرتها على الصمود والمواجهة خدمة لمصالح إسرائيل واستطاع شعبنا الانتصار على الحصار بالاعتماد على الموارد الذاتية ونحن شعب قادر على الصمود والتكيف وسورية لديها من الناتج الزراعي ما يكفي لإطعام شعبها ولديها من الناتج الصناعي ما يكفي لإكسائه.

وفي هذه الأزمة وتحت شعارات ومسميات كاذبة تم فرض عقوبات ظالمة على سورية شملت كل قطاعات الصناعة والتجارة والسياحة والطيران والمصارف والشعارات والمسميات الكاذبة وادّعاء أن هذه العقوبات فرضت على النظام السوري وليس على الشعب وأنها فرضت لمعاقبة النظام كي يتوقف عن قتل شعبه كما زعموا وهي في الواقع عقوبات على الشعب السوري كله وعلى الفقراء فيه وأصحاب الدخل المحدود بشكل خاص فلقد ارتفعت أسعار المواد الاستهلاكية وفقد بعضها واحتكر بعضها الآخر وطال الأذى والضرر محطات توليد الكهرباء وخطوط النفط والغاز مما تسبب في انقطاع الكهرباء ونقص حاد في مادة الغاز المنزلي.. إن الشعب السوري يدرك أن أمريكا وإسرائيل والغرب ما برحوا يستهدفون سورية ويمارسون أقصى جهدهم لإركاعها والقضاء على مشروعها النهضوي وخطها المقاوم والسوريون قادرون على مواجهة حصارهم وحقدهم بمزيد من الإيمان والصمود والاعتماد على الذات وإصلاح الشأن الداخلي وهو الأولوية في كل إصلاح يقول الأسد: إن كل ذلك بحاجة لإصلاح إداري يقضي على الهدر والفساد والمحسوبيات والتسيب وضعف الشعور بالمسؤولية وعلينا أن نحاسب كل من يحاول استغلال هذه الأزمة من أجل التلاعب بقوت الشعب.

لقد وضع الأسد يده على الجرح فنحن نعاني من الفساد والهدر والتسيب وضعف الشعور بالمسؤولية وسبق أن ذكرت كيف ينظر بعض المواطنين كما لو أنها ملكٌ سائب، وبعض آخر لا يعنيه الملك العام وكأنه ملك أجنبي فبعضم راح يسرق المال العام وآخر راح يهدره ويبدده وآخر غير مسؤول ولا يعنيه شيء شرط أن يحيد عن ظهره، وفي هذه الأزمة ظهر بعض السوريين بمظهر العدو لوطنه عندما تلاعبوا بقوت الشعب فاحتكروا ورفعوا الأسعار وغيبوا بعض المواد الأساسية عن الأسواق وهم في فعلهم هذا مشاركون للعدو في هجمته الحاقدة على الوطن ويجب محاسبتهم.

وأشار الأسد إلى المناحي التي يجب دعمها والاهتمام بها في مواجهة الأزمة وبهدف التنمية والاكتفاء الذاتي.

إذ يقول: علينا دعم الزراعة كقطاع استراتيجي وكدعامة من دعائم استقرار المجتمع واستقلالية القرار الوطني مع ضرورة الاستمرار في تعزيز وتحديث الصناعة إضافة إلى دعم الحرف والصناعات الصغيرة والمتوسطة كأحد عوامل التوازن الاجتماعي ورافد مهم للناتج الوطني والتي يجب أن تشكل القاعدة الأوسع لاقتصادنا من دون أن يغيب عن ذهننا الطاقات التي استنزفتها الظروف الراهنة وأعاقت مسار التطوير بشكل جدي فعطلت مشاريع حيوية... /انتهى الاقتباس/.

إن اقتصادنا هو اقتصاد زراعي ولكن خطط الدولة لم ترتق بالزراعة إلى ما تستحقه ولذلك لا يمكن حتى الآن توصيف اقتصادنا الحقيقي بشكل حقيقي وبالتالي فمن الواجب النهوض بالزراعة وتطويرها وإيجاد الفرص الكافية لاستصلاح الأراضي واستثمار البادية السورية واستكمال مشاريع الري والسدود والبحيرات.

ودعا الرئيس الأسد للبحث عن طاقات وموارد بديلة وإلى ترشيد الإنفاق وإعادة ترتيب الأولويات فنحن نملك أهم موارد الطاقة التي لم تستثمر بعد وهي الشمس والرياح ولدينا الكثير من المياه التي تضيع سدى وهي بحاجة إلى تجميع للاستفادة منها في ظروف الجفاف؛ ولدينا بادية مترامية الأطراف كانت في الماضي مزروعة بالكرمة والنخيل وهي الآن شبه صحراء خاوية، ولدينا أولاً الإنسان المؤمن المحب لوطنه.. الإنسان الذي يجب أن يكون الغاية والمنطلق لبناء الوطن وقهر التحديات ودحر العداء والذي يجب أن يتوجه الاهتمام كل الاهتمام لبنائه بناءً سليماً من خلال العلم والمعرفة والتربية الحسنة.

الخاتمة :

لا أجد أبلغ من قول الأسد لأختتم به هذه الإضاءة على خطابه مع أن الخطاب مضيء وشديد الوضوح، يقول الأسد: بإرادتنا ووحدتنا سنقهر الأعداء ونتجاوز الأزمة.

ويقول: تذكروا أن الفرد زائل والشعب باق وأن المناصب متغيرة والوطن ثابت.

ويقول: نعزي أنفسنا بالمستوى الذي وصل إليه بعض السوريين ونعزي أنفسنا بالضحايا ولكن نعزي أنفسنا أكثر بمستوى الإجرام الذي وصلنا إليه والذي هو مؤلم كألم الجريمة بحد ذاته.

ويقول أيضاً: لن نسمح للقادمين من خارج التاريخ أن يكتبوا شيئاً لم يكتبه التاريخ من قبل وهو أن السوريين يوماً دمروا وطنهم بأيديهم.

ويقول: الشعب الذي يمتلك حضارة كالسوريين لا يقلد بشكل ببغائي وخاصة عندما تأتي الرسائل والأفكار عبر دول لم تدخل عصر الحضارة بعد... /انتهى الاقتباس/

لا أحد يعيش مسلوب الإرادة إلا العبيد فالإرادة الصلبة هي مشيئة الأبطال الأوفياء العقلاء الذين يعرفون مالهم وما عليهم ولا يرتهنون لإرادة أحد كائناً من كان والشعب السوري أثبت عبر تاريخه أنه صاحب إرادة حرة لم تهادن ولم تساوم ولم تتنازل ولم تهرول كما فعل الآخرون وبهذه الإرادة حققنا الانتصارات وحفظنا الكرامات وبهذه الإرادة يثق الرئيس الأسد ويؤمن مضيفاً إلى الإرادة الوحدة الوطنية فالوحدة الوطنية تحفظ الإرادة الموحدة وتحدد سمتها ووجهتها ضد العدو الصهيوني ومن يقفون خلفه ومن يهرولون إليه، الإرادة الموحدة تحدد اتجاهها فتوحد جهودها، والإرادة الموحدة تعرف عدوها فتستعد له من خلال المزيد من التراص والبناء وحب الوطن والإخلاص له، أما الإرادة الأخرى التي تبغي ضرب الوحدة الوطنية فهي إرادة تخطط لتمزيق الوطن عبر تمزيق الإرادة إلى إرادات متناحرة فيما بينها بين أبناء الوطن الواحد ونتيجتها لن تكون إلا كما قال الأسد تدمير الوطن وتفجير المجتمع فالإرادة والوحدة الوطنية هما الكفيلان بقهر الأعداء وتجاوز الأزمة وهذا ما قصده الأسد في خطابه وبإشارته إلى الإرادة ثم يعود الأسد ليدق جرس الخطر منبهاً ومحذراً من عواقب ومحاذير ضياع الوطن لأن ضياع الوطن لا يبقي على شيء ولا يتصور أحد أو يتخيل أنه قادر على أن يكون شيئاً أو يمثل شيئاً أو يعبر عن شيء عندما يفقد وطنه فهو في أحسن الأحوال سيتحول إلى رقم في بلاد الآخرين أو جواز سفر مذل على الحدود الأجنبية ولذلك يؤكد الأسد أننا كأفراد زائلون أما الشعب فهو مستمر وباقٍ وكذلك المناصب فهي متغيرة أما الوطن فثابت.. لا يتجاوز عمر أي فرد منا المائة سنة في حدوده القصوى والعشرون سنة الأخيرة من المائة غير مفيدة ولا منتجة، أما وطننا وأرضنا وشعبنا الموجود على هذه الأرض فعمره يتجاوز الآلاف من السنين ثم يعزي الأسد أسر الشهداء فتعزيتهم أمر بديهي إنما يعزي الوطن بالمستوى الذي وصل إليه بعض من أهل سورية في الإجرام واعتبر الأسد أن هذا المستوى مؤلم كألم ما حدث من إجرام، وفعلاً لا يكاد أحدنا يصدق أن ما حصل قد حصل في سورية أو أن سوريين ارتكبوا ما ارتكبوا من فظائع وجرائم وهذا يدعونا

إلى إعادة الحسابات والبحث عن الأسباب والمقدمات التي أدت لهذه النتائج وأدت لظهور مثل هؤلاء السوريين وهم بهذه العقلية الظلامية الحاقدة فليس من عاداتنا ولا تقاليدنا ولا معتقداتنا أن يحصل، الذي حصل إن هذه الثقافة الظلامية الحاقدة التكفيرية هي وافدة إلينا وكي لا نبرئ أنفسنا نقول: إن لدينا من استعد وفتح صدره وعقله لاستقبال هذه الثقافة التكفيرية وهنا يجب أن نحارب باتجاهين: اتجاه ضد الثقافة الوافدة واتجاه ضد الرعاع الذين استقبلوا واقتنعوا وجعلوا من أنفسهم وقود نار تحرق أهلهم ووطنهم وفي زعمهم أنهم حجزوا لأنفسهم مقاعد في الجنة.

وبكل شجاعة وشهامة القائد السوري المخلص الصادق لوطنه وشعبه يؤكد الأسد أننا لن نسمح للرعاع القادمين من الخارج أن يكتبوا في التاريخ ما لم يحصل في تاريخنا من قبل وهو أن السوريين دمروا وطنهم بأيديهم.

تصوروا ما أبلغ وأعظم هذا الكلام فهل يقبل إنسان سوري أن يقال عن السوريين إنهم دمروا وطنهم بأيديهم وهل نحن مجانين، أم معتوهون؟ أم مستوطنون أغراب عن هذا الوطن العزيز؟ نحن لسنا كذلك ولكن لا ننكر أن بين صفوفنا مجموعات لا يجب التقليل من خطرها أو تجاهلها وهي مجموعات تكفيرية خارجة عن كل القيم الإنسانية والأخلاقية قامت بتدمير أجزاء هامة من مؤسسات الوطن ومقومات قوته وقوت أهله وأرواح بنيه وهي لن تتوقف عن المضي في سلوكها الإجرامي إلا إذا تصدينا لها بكل حزم وإرادة ووعي.

وفي الختام أقول: إن خطاب الرئيس الأسد في جلسة مجلس الشعب السوري في دورته الأولى بعد الدستور الجديد هو خطاب تاريخي شامل يشكل منهج عمل واستراتيجية وطن للسنين القادمة... منهج عمل واستراتيجية يجب العمل وفقها للنهوض بالوطن والحفاظ عليه وعلى مقومات حياته وقوته وصموده وسورية تستحق ذلك والرئيس مدرك لأهمية سورية ومدرك أن الوطن السوري لا تقاس أهميته وعظمته بالمساحة الجغرافية التي يشغلها بل بالمساحة التاريخية والأخلاقية والحضارية التي يمثلها والرئيس مدرك أن الأشخاص يزولون بينما يبقى الشعب والمناصب زائلة بينما الوطن باق وهو بذلك يعبر عن عميق وعي وتوقد ذهن وحدة بصيرة وهو إنما يبلغ وما على الرسول إلا البلاغ فهو قائد أمة فقدت اتجاهها وباع حكامها مالا يجوز أن يباع أو يوضع في مساومات أو رهانات.

وأتمنى لو نجعل من هذا الخطاب دليل عمل وخطة انطلاق نحو سورية أقوى وأفضل وأبقى وستكون كذلك إن شاء الله وما هذا الخطاب إلا خطاب الوطن بكل جدارة واستحقاق، خطاب الثقة والإيمان لكل سوري ينظر إلى الأشياء وهي مقبلة غير مدبرة فالإقبال مستقبل وحياة والإدبار ماضٍ وهزيمة.

❑❑

ملف وثائقي

الديمقراطية في مواجهة الإرهاب

□ أ. محمد حديفي

حين تكون مستهدفاً في كيانك ووجودك، وحين تتكالب عليك كل قوى الشر في الأرض، وترى أن الهدف من وراء ذلك كله هو تمزيق تراب الوطن ووحدة أرضه وشعبه؛ ليس لك إلا أن تتماسك لتثبّت أقدامك وترفع قامتك في مواجهة الريح لتجابه الخنجر والرصاصة، ولئن قدِّر ومت فلكَ المجد لأنك تموت واقفاً كما الأشجار.... في اللحظات الحرجة والدقيقة، وفي الوقت الذي تقف فيه على مفرق الموت والحياة ليس لك إلا أن تفعل ما بوسعك لكي تكون أنت من دون أن تتنازل عن ثوابتك أو تغير من قناعاتك شيئاً.. والثوابت هاهنا تدعوك لأن تحتفظ بحقك في الحياة وتؤمن في الوقت عينه بأن للآخر حقاً في أن يعيش حراً وكريماً يتقاسم معك الهواء والأرض..

للثورات في تاريخنا القديم والمعاصر طقوسها وأهدافها وأخلاقياتها فأن تكون ثائراً يعني أنك تمتلك أخلاق الثائر وقيمه وشهامته وعقله الحاضر للحوار والاستماع للآخر دون إلغاء أو إقصاء وهنا سر الإيمان بالديمقراطية والسعي باتجاهها والعمل من أجلها،

فمن يطالب بالديمقراطية عليه أن يكون ديمقراطياً بعقله ووعيه وسلوكه، ومن يريد الحرية ويسعى إليها يختار سبلاً غير تلك التي نراها في شوارعنا وحاراتنا وحافلاتنا والتي لا تخلّف وراءها إلا دماً يسيل وأرواحاً بريئةً تُزهق وأيتاماً لا تجف دموعهم وأرامل وثاكلات لا يعرفن سبباً لكل هذا القتل ولكل هذا الموت الذي يبدو للوهلة الأولى مجانياً؛ ولكنه في حقيقة الأمر مقبوض الثمن مالاً تجود به أكفٌ ما عرفت البذل يوماً إلا من أجل أن ترتهن لإرادة عدو العرب والمسلمين، وتتمادى في عمالتها لكي لا يكون لها اسم ثان!!!

يمثل المشهد جلياً أمامنا الآن... يدٌ تمسك حفنةً من تراب الوطن كمن يمسك بالجمر... تدافع عنه بدمائها وبما تبقى لها من حفنات هواء لم تلوث بعد، ويدٌ تمسك بأداة القتل تضرب بها من دون رحمةٍ ودون وعيٍ ودون تمييز، والضحية دائماً شباب الوطن وفلذات الأكباد ولقمة العيش.

ولنا كامل الحق في أن نتساءل الآن: ما الذي يفعله فوق تراب وطننا أفغاني أو شاشاني أو ليبيٌ أو سعودي..إلى آخر الجوقة؟ ولنا كامل الحق بأن نتساءل أيضاً.. إن كان الهدف هو مرضاة الله وقتال الأعداء وحجز المقاعد في الجنة فلماذا لا يختارون الأرض التي تستحق من الجميع التضحية والعطاء وبذل الدماء!؟

لماذا ــ وغزة تحترق والجولان ينادي أبطال الأمة ــ لا يذهب هؤلاء إلى حيث يستحق الأمر الجهاد؟!

ولماذا أيضاً لا يبذل هذا المال كلّه من أجل تحرير القدس التي تُنتهك مقدساتها كل يوم ويُذل أهلها ويمنعون حتى من الحصول على فضيلة الصلاة في المسجد الأقصى؟!!

إنه عصر الارتهان العربي لا... بل عصر الذل والانكسار والضياع وإلا فما الذي يدفع بعض مشيخات الخليج ودوله لأن تحجب الحياة عن السوريين ولو استطاعوا لحجبوا عنهم الهواء أيضاً في حين أن أموالهم وكرمهم وعطاءهم وكل ما يملكون من ثروات جادت بها الأرض العربية تذهب لدعم الاقتصاد الأوروبي والأمريكي لمنعه من الانهيار، والثمن دوماً ابتسامةٌ من هيلاري كلينتون أو ساعةٌ من الصفاء والود مع صهيونية حسناء!!!.

يخرج المسلحون إلى شوارع سورية وحواريها وأزقتها، يعتلون أسطحة المنازل ويصوبون أسلحتهم الفتاكة والبالغة الدقة إلى صدور النساء والأطفال، ويتناخون لقطع إمدادات التموين وتفجير خطوط البترول والسطو المسلح على ممتلكات المواطنين ومنازلهم وأرزاقهم التي استغرقت عمراً بأكمله حتى صار المواطن على قدر ولو ضئيل من السترة وكفاف العيش.

ما الذي يحسه القاتل وهو يرى أن يده الملطخة بالدماء قد تسببت بتقطيع الجثث وإزهاق الأرواح وانسكاب الدموع؟!!

كيف يستطيع النوم على مشهدٍ لم نألفه نحن السوريين من قبل فالدماء أنهار تسيل والأجساد تتناثر هنا وهناك والدموع لا يكفكفها إلا الإيمان بأن الوطن يستحق التضحية والفداء؟!!

أكل ذلك من أجل الحرية والديمقراطية؟ أين الحرية وأين الديمقراطية في أن يأتي قاطع طريق أو مرتزق أو مهرب امتهن القتل لسلب الآخرين حيواتهم وأرزاقهم وحصيلة شقاء العمر؟!!

أين الحرية والديمقراطية في أن تمتثل لإرادة الآخرين وحبهم وسعيهم للاستيلاء على وطنك وتقطيع أوصاله؟!!

إنه الوطن الذي سالت دماء الآباء والأجداد فوق ترابه المقدس لكي تصون هذا التراب من طمع الغزاة وسعيهم للنيل منه ومن قدسيته

إنه الوطن الذي فيه تنسمنا عشق الحرية وفوق ترابه تعايشنا أخوةً متحابين متعاضدين متكاتفين مؤمنين بأن الدين لله والوطن للجميع..

هاهي غزة تحترق وأشلاء أطفالها ونسائها تتحول مزقاً تتناثر فوق ترابها الطاهر فقد حولها العدو الصهيوني إلى حقل يجرب فيه أسلحته الفتاكة، وهي تلوب وحيدة في مواجهة آلة القتل وبعض العرب يتفرجون وهم إن تدخلوا فإنهم يتدخلون لشق صف الفلسطينيين وتحريضهم بعضاً على بعض

وهنا نتساءل لماذا لم يترك هؤلاء العملاء وسيلةً من الوسائل إلا وسلكوها لإدخال السلاح المدمر والفتاك إلى سورية من أجل قتل أهلها وتشريد سكانها وتحويلهم نازحين ومشردين حيث الليل الطويل والبرد القارس والغربة القاتلة، في حين أنهم أغلقوا المعابر التي من خلالها يتنفس الفلسطينيون ويحصلون على الغذاء والدواء؟؟ ..

إن بضعة صواريخ أرسلتها المقاومة اللبنانية وبعض الشرفاء من العرب بطرقهم الخاصة وبضعة صواريخ أخرى قام الفلسطينيون في غزة بتصنيعها أربكت إسرائيل وأرغمت سكانها على النزول إلى الملاجئ ليبيتوا ليالي فيها، فكيف لو أن هؤلاء العرب الذين تناخوا لإسقاط سورية وتقسيمها حولوا أسلحة الدمار والقتل هذه لمن هم بحاجتها فعلاً للدفاع عن وجودهم وكرامتهم وكرامة العرب أيضاً!...

أليس من الأجدى أن يقوم هؤلاء العرب المرتهنون للغرب والأذلاء أمامه وأمام طلباته وأوامره وإملاءاته بتحويل كل هذا المال المبذول ظلماً لقتل السوريين إلى حيث يجب أن يوجه وإلى حيث يساهم في إيقاف قتل الفلسطينيين وقضم أرضهم وتهجيرهم ومن ثم استعادة القدس وتحرير المسجد الأقصى لاسيما أن هؤلاء العربان يتبجحون بأن وجهتهم هي القدس وهدفهم تحرير الأقصى؟!!

مليارات من الدولارات قدمتها دول الخليج للولايات المتحدة الأميركية وأوروبا في ظاهرها لشراء الطائرات والأسلحة وفي باطنها الدعم اللامتناهي لاقتصاد أمريكا وأوروبا!!!

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن أول تصريح أعلنه أوباما في بداية ولايته الثانية مفاده التعاطف اللامتناهي مع الدولة المغتصبة إسرائيل والتشديد على حقها في قتل الفلسطينيين وحرمانهم من الحياة بعد أن قاموا بحرمانهم من الأرض.

نحن لا نريد أموال الخليج فالحرة تجوع ولا تأكل بثدييها؛ ولكن أقصى ما نطلبه وهذا حق طبيعي لنا أن يوقفوا إرسال السلاح والمال لقتلنا، وألا يعملوا جاهدين كما يفعلون الآن على تضييق الخناق علينا وحصارنا لتجويع السوريين ظناً منهم بأن ذلك سيدفع السوريين للتخلي عن ثوابتهم والتنازل عن مبادئهم التي رضعوها مع حليب الأمهات.

وفي نهاية المطاف فالنصر لنا لأننا أصحاب الحق وصاحب الحق هو المنتصر والنصر تلزمه التضحيات والسوريون أهل تضحية وفداء...

أين ساحات ما يسمى بالربيع العربي التي امتلأت يوماً بالأجساد المتدفقة والقبضات المرفوعة والهتافات المتصاعدة طلباً للحرية والديمقراطية ومن ثم تمخضت فأنجبت عملاءً للكيان الصهيوني ورؤساءً كان أول عملٍ قاموا به هو كتابة الرسائل المنمقة والعاشقة والمرتهنة للقادة الصهاينة الوالغين بدماء العرب والمسلمين؟!..

أين هؤلاء الذين امتهنوا الكلام وسيلةً لإذكاء التفرقة بين مكونات الشعب السوري وتنقلوا بين عواصم العالم وأقاموا في فنادقها الفاخرة وكان همهم الوحيد استجداء التدخل العسكري العربي لقتل السوريين وتمزيق وحدتهم وإحراق أرضهم؟! أين هم مما يحصل داخل الأرض الفلسطينية من قتلٍ وتشريد وتهديم، ثم أين هم من تحرير الجولان وكيف يمكن لأهل الجولان أن يثقوا بزمرةٍ كان أول تصريح نطقت به هو الصلح مع إسرائيل وإحلال السلام معها وعقد الاتفاقات المذلة وتبادل السفراء؟!!

من أجل كل ذلك تقف سورية اليوم، لتضمّدَ جراحها، ويتحمل أبناؤها الجوع والغلاء والبرد وشظف العيش حتى لا تغير ثوابتها ولا ترتهن لإملاءات الأعداء واضعةً نصب عينيها أن ما ينتصر في النهاية هو الحق ومن تليق به الحياة هو الذي يستحق الحياة.

أما الذين يتبجحون بالحرية والديمقراطية ولا يملكون من قيمها شيئاً فنقول لهم: ما هكذا تورد الإبلُ...

❑❑

اتحاد الكتاب العرب

الفكر السياسي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد ٤٥ - خريف - ٢٠١٢- السنة الرابعة عشرة

غزة وفجر (٥)
دلالات ومواقف

فلسطين في أجندة
الثورات الجديدة

أسس
التحول المجتمعي

هل ولد النظام الدولي
متعدد الأقطاب